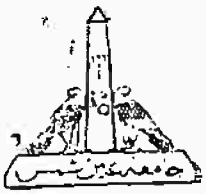

حولية كلية البنات

بجامعة عين شمس

العـدد الرابع
يوليـة ١٩٦٤

حولية كلية البنات

رئيس التحرير : الدكتور عبد الحميد البطريق
سكرتير التحرير : الدكتور عبد العزيز مطر

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

المحتويات

صفحة

ثلاثية نجيب محفوظ : للسيد الدكتور ماهر حسن فهمى ، المدرس بقسم اللغة العربية ٥

تحديدات عربية للجمال : للسيد الدكتور أحمد كمال زكى ، المدرس بقسم اللغة العربية ١٤

القياس الخاطىء وأثره فى التطور اللغوى : للسيد الدكتور عبد العزيز مطر ، المدرس بقسم اللغة العربية ٢٩

الوهابية : عقيدة ودولة . للاستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق استاذ كرسى التاريخ الحديث ، ورئيس قسم التاريخ والجغرافيا ٤٢

الغرب والبحار : للاستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، الاستاذة بقسم التاريخ ٦١

الحضارات الافريقية وفكرة الانتشار الحضارى وطرقه فى افريقيا للسيدة الدكتورة كوثر عبد الرسول الاستاذة المساعدة للجغرافيا بكلية البنات الاسلامية ٩٥

المجوسية والمجوس : للسيد الدكتور على حسنى الخربوطلى ، المدرس بقسم التاريخ ١٤٧

ثلاثية نجيب محفوظ

للدكتور ماهر حسن فهمى
المدرس بقسم اللغة العربية

جوهر ثلاثية نجيب محفوظ يتركز فى حياة أسرة من الطبقة الوسطى، تتبعها فى ثلاثة أجيال متعاقبة . وقد كان فى الواقع يصور مجتمعنا فى ثلاث مراحل من حياته ، من خلال اختياره لهذا القطاع . وأصحاب الواقعية يشترطون أن تكون أحداث القصص من المستندات التاريخية[1] . وفى الحقيقة « لا فرق بين الواقعيين والطبيعيين إلا فى المبدأ الذى تمسك به زولا فى الانتهاء فى القصص إلى نتائج أيدها العلم من قبل »[2] خاصة علم الوراثة ، كما وضح فى سلسلة قصص «زولا» الطبيعى عن أسرة "Rougon-Macquart"[3]

وقد عرض الدكتور لويس عوض فى مقالتين له لثلاثية نجيب محفوظ، وتتبع بعض مظاهر الوراثة فى الشكل وفى الطبع ، تتبعاً دقيقاً رائعاً ، ينتهى به إلى قوله : «وهذا هو المقصود بالحتمية العلمية فى عرف أدباء المذهب الطبيعى ، أى حتمية الوراثة والبيئة . إن زواج عبد الجواد وهنية كزواج الأرانب أو فيران المعمل ، ما كان ليثمر غير ما أثمر ، ونتائج التجربة الفنية، لا يمكن أن تختلف عن نتائج التجربة العلمية[4] » .

---

(١) الروايات الواقعية فى القرن التاسع عشر لمحمد غلاب ص ٨٠ .
(٢) الأدب المقارن لغنيمى هلال ص ٣٩٤ .
(٣) راجع :
L'Epoque Réaliste et Naturaliste Par R. Dumesnil, P. 433
(٤) صفحة الأدب بالأهرام ١٩٦٢/٤/٢٧ .

كل هذا حق ، وهو يؤيد تأثر نجيب محفوظ بالمذهب الطبيعى فى القصة ، ولكن تتمة هذا الحق هو تأثر نجيب محفوظ بالمذهب الواقعى أيضاً تأثراً واضحاً كبيراً ، على عكس ما انتهى إليه الناقد لويس عوض فى إحدى مقالتيه حين قال :

« وعندى أيضاً أن أكثر أشخاص (بين القصرين) و (قصر الشوق) و (السكرية) ليسوا مجرد أشخاص عاديين سواء فى طبقتهم أو فى المحيط البشرى الكبير ، فهم إذن ليسوا نتاجا من نتاج الفن الواقعى » .

ولكن يبدو أن نجيب محفوظ قد تنبه إلى أن اعتماده على المذهب الطبيعى وحده سوف يوقعه فى مبدأ الجبرية الذى يؤخذ على أصحاب هذا المذهب ، بحيث يصبح الفرد آلة يحركها علم الوراثة ، ولا سبيل إلى أن يغير من واقعه الموروث . ومن هنا أخذ يزاوج بين المذهب الطبيعى والمذهب الواقعى فى ثلاثيته .

وبطل قصة « بين القصرين » هو السيد أحمد عبد الجواد ، وهو شخصية مهابة فى بيته نسمعه يقول لزوجته : « أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك » . بين القصرين ص ٩ .

وجلسته مع أبنائه على قصرها شديدة الوطأة عليهم بما فيها من تزمت وصرامة من جانبه ، ووقار ورهبة من جانبهم . فهل كان هذا الرجل — الذى عاش أول هذا القرن — شاذا بين الرجال فى وقته ؟ كلا بل هو صورة صادقة حية بما فيها من دقة شديدة ، لرجل أول القرن فى مجتمعنا . وإذا أردنا نصاً يثبت ذلك وجدناه عند « أحمد أمين » فى مقالته « سلطة الآباء » حين يقول : « رحم الله زمانا كان الأب فيه الآمر الناهى ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ، ينادى فيتسابق من فى البيت إلى ندائه ، ويشير فإشارته

أمر ، وطاعته غنم ، تحدثه الزوجة فى خفر وحياء ، ويحدثه الابن فى إكبار وإجلال ، من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره أو يرد عليه قوله أو يراجعه فى رأى ، أو يجادله فى أمر . أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها وغض الخجل طرفها ، قليلة الكلام متحفظة الضحك ، خافضة الصوت . تتوهم أنها أخطأت فى التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها »[1] .

ونستمر فى قراءة « بين القصرين » فنجد « فهمى » الشاب يوسط أمه فى أمر زواجه من « مريم » ، ونجد « عائشة » تضحى بمن تحب لأنها لا تجرؤ على أن تناقش أباها فى رأى وإن كان خاصا بزواجها .

فإذا ما أعدنا النظر فى مقالة « سلطة الآباء » سمعنا أحمد أمين يقول :

« وإذا جاء حديث الزواج والزوج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض وفيما يفعل وفيما لا يفعل ... فإن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ، إنما يحاور ويداور ويلمح ويرمز ، فإن أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح »[1] .

ولم يكن السيد أحمد عبد الجواد فى حياته كلها صارما متزمتا ، ولكن حياته خارج البيت وعلى الأخص أمسياته . كانت دائماً مترعة باللذات ، تناقض أشد المناقضة حياته فى منزله . « ولكنه كان يصدر فى سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص فى كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة وبات قرير العين . وكان إيمانه عميقا ، أجل كان إيمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة

---

(١) فيض الخاطر ج ١ ص ٥٥ .

وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى ، أوطقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الإيمان الخصب النقى أقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة فى حب ويسروسرور ، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة ، جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم إلى الرى من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها ، يهش للما كل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعاً فى مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقا منحته إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر فى ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته . أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة ؟ أم كان أعتقاده فى السماحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ، وحتى فى حالة تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحداً » . بين القصرين ص ٥١ .

والواقع أن أحمدعبد الجواد فى هذا التناقض كان كذلك صورة صادقة لإنسان هذه الفترة فى مجتمعنا . مجتمع اسلامى شرقى بدأت تغزوه حضارة أوربية ، فلابد أن يتردد الناس بين الحضارتين المتصارعتين بالنسبة للفكر وبالنسبة للحياة الاجتماعية أيضاً . فإلى جانب المعاهد الدينية وجدت المدارس الأجنبية ، والى جانب الجرائد العربية وجدت الجرائد الأوربية . وأهم من كل ذلك وجد من المثقفين من يريدون النهضة على أساس تراثنا وتقاليدنا ومن يريدونها غربية خالصة . والى جانب المساجد المنتشرة انتشرت الخمارات حتى تغلغلت الى أعماق الريف كما يحدثنا عبد الله النديم فى «الأستاذ» و « التنكيت والتبكيت » ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة . وكان قصر الخديو يقيم الحفلات الراقصة كل عام واتخذت الحرية وسيلة

للانكباب على اللذات . فبدأت الطبيعة الشرقية السمحة التي عاشت تستنشق دائماً عبق الدين ، بدأت تفتح نوافذها وتطل على دنيا الملذات فلا تملك زمام نفسها : يقول «لوثروب ستودارد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» : «أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب يطفر في تحوله ، إذ أن مايأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقي على تطور الشرق ، هذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالأعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشئون بعضها قبل أوانه ، وبعضها الآخر بعد أوانه ، وفي مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلي والخلقي تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . . وربما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته سجيته وخلقه خلقه[1]» .

وهذا نفسه ماحدثنا عنه إبراهيم سلامه فيما أسماه «قانون المدنيتين»[2] والسيد أحمد عبد الجواد صورة لذلك الجيل المتناقض ، الذي يتحمس بلسانه للديمقراطية ولا يطبقها في بيته ، ووطنيته وطنية سلبية في أكثر الأحيان ، فهو قد قنع بالمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل ما ، وقته خالص لحياته ، وللوطن عواطفه وماله كلما تيسر . فاللهو لا يغير ما بقلوب الرجال . وقد ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم ، فلا خجل عند الحزن على نفيه من كأس تخفف الأحزان . بين القصرين ص ٤٠٣ .

هذه صورة واقعية للرجل العربي في مصر بداية هذا القرن ، بما في حياته من تناقض اجتماعي ، وبما في نفسه من تناقض إنساني . ولكن الجيل التالي كان أكثر تلاؤماً مع نفسه ، جيل «فهمي» الفتى الثائر ، وجيل

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٥ .

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب ص ١٤٧/٢٢٧ .

« كمال » الفتى الباكى الحزين . جيل « فهمى » الذى قام بثورة ١٩١٩ فأحس بكيانه الذى أضاعه الاستعمار من قبل ، وجيل كمال الذى أحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة ، بعد أن بذلت كل أسرة ما بذلته أسرة « السيد أحمد عبد الجواد » التى قدمت ولدها فهمى قرباناً على مذبح الثورة .

وما من شك فى أن « كمال » هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة ، وهو أيضاً بطل هذا الجيل فى حياه شعبنا التى اصطبغت بصبغة رومانتيكية بعد ثورة ١٩١٩ ، فاتخذ موقفاً سلبياً شعاره المرارة والانطواء ، انعكس على كل اتجاهاته[1] .

أليس كمال هو الذى يقول عن نفسه : « وقد مل حتى طفح بالملل ، فمتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ » السكرية ٢٠٥ .

« سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت » قصر الشوق ٣٧١

أليس هو الذى استعذب الألم مثلما استعذبه كل الرومانتيكيين حين قال : « شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار » السكرية ٢٧٢ .

وإذا حولنا بصرنا عن هذا الفتى الرومانتيكى وجدنا الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى عاش فى هذه الفترة يعبر عن الآلام التى أحاطت به من كل جانب فلا مفر له منها ، فيتحدث عن رياض من الآلام وعن أزهار من الندم ، وعن اللذة الحزينة التى يجدها قاطفها وجانيها فيقول :

كم جنينا من أزاهير الألم زهرة سوداء من زهر الندم

---

(١) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ص ١٨٨ .

زهرة سوداء من زهر النقم فهى طيف من ممات قد ألم
هذه الأزهار سود كالقضاء فى رياض من شقاء وعناء
ليس لى منها مفر أو نجاء فهى حولى فى صباح ومساء[1]

وهو يودع أحلامه حتى دون أن يحاول شيئاً ، يودع كل أحلامه المركزة فى صاحبته التى هى رمز لتلك الآمال ، ويصطدم بواقع الحياة فلا يزداد إلا مرارة وبكاء وإمعاناً فى الانطواء والأحلام . (إن أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن موقفهما ويتجهان نحوه ، ومرا به فى سلام . وأتبعهما عينيه وهم بالسير فى أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر . ولبث أمام معرض اللعب ، ينظر ولا يرى شيئاً . ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع ، وكانت تبتعد دون توقف ، تختفى تارة وراء المارة وتبدو تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم « وداعاً » . ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالا مماثلة ماضية دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتهما المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم ، وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفية مبهمة) السكرية ص ٢٧٢ .

ومن المهم أن نذكر أن « كال » لم يتزوج ، وهو يحاول أن يبرر ذلك التصرف أمام نفسه بأنه حب للحرية المطلقة وهروب من الأسر ، ولكن الواقع أنه هروب كامل من الحياة ، فحياته تنتهى وهو يلهث مولياً ظهره لواقعها ، مخلفاً وراءه جيلا جديداً كان رد فعل لهيام سابقه فى الخيال ، فهام هو بحثاً عن الحقيقة . وهكذا نسمع « إبراهيم شوكت » يقول « لياسين »:

---

(١) ديوان شكرى جـ ٢ ص ١٨ .

« فنحن نربى ونوجه ونصح ولكن كل ولد ينـدمج فى مكتبته ، وهى عالم مستقل عنا يزحمنافيه أناس غرباء لاندرى عنهم شيئاً ، فما عسى أن تصنع؟ » السكرية ص ٣٢ .

إنه جيل مثقف مضطرب ، ولعـل من السخرية المرة أن يكون فى الأسرة الواحدة الوفدى والإخوانى والشيوعى ، بل فى البيت الواحـد يكون هناك اجتماعان ، أحدهما المتعصبين لسيطرة الدين على الحيـاة ، والآخر لمن لا يؤمنون بالدين نفسه . ولم يعـد من الهين على الآباء أن يأمروا ويزجروا ذلك الجيل المتوثب المضطرب فيستسلم دون نقاش. فمن الطبيعى أن نجد « السيد أحمد عبـد الجواد » يستنكر استجابة « ابراهيم شوكت » لرغبة ولده الطالب ويزوجه. ومن الحق أن السيد عبد الجواد نفسه قد بدأ أسلوب حياته مع أبنائه يتغير بعد الثورة ، فهو يترك لولده « كمال » أن يحدد مستقبله حين يختار مدرسة المعلمين العليا ، التى لم يرض هو عنها ، وهو لا يملك إلا أن يناقش « ياسين » مناقشة منطقية فى أمر زواجه من « مريم » .

ومن الطريف حقاً أن نجد الفارق بين تفكير جيلين فى مسألة تتعلق بعصب المجتمع ، « حين تقول نعيمة بحسرة : — وددت لو أتممت تعليمى ، كل البنات يتعلمن اليوم كالصبيان . فتقول أم حنفى باحتقار : — يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس » . السكرية ص ٩ .

جيل جديد فى كل شىء ، نجـده أيضاً مصوراً فى « سـلطة الآباء » حين نقرأ :

« وقال الأبناء لآبائهم : إننا مخلوقون لزمان غير زمانك ، فاخضع لحكم الزمان ، وقد نشأنا فى زمن حرية فى الآراء ، وحرية فى الأعمال ، وحرية فى التصرف ، لا كما نشأت فى جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد ،

فحال أن يسع ثوبك الضيق أبداننا ، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا » .

وإذا كان « السيد أحمد عبد الجواد » هو بطل الجيل الأول و « كمال » هو بطل الجيل الثانى ، فمن الطبيعى ألا نجد بطلا للجيل الثالث . جيل ملىء بالشجاعة وقوة الإرادة والرغبة فى العمل ، وكأنما قد أتى ليكون كفارة عن سلبية وجمود جيل مضى .

وإذا كان الجيل الأول قد هام باحثاً عن شهواته فى أكثر الأحيان ، وإذا كان الجيل الثانى قد هام فى أحلامه ، فإن الجيل الثالث كان هائماً يبحث عن بطل يجمع قواه المفرقة ليخلق منه قوة حقيقية ، فقد بدأت الأمور تبشر بتغيير شامل فى المجتمع .

« هذه الوجوه الكالحة البائسة هى الشعب . . . وهذا الرجل المنوط به خلاص الإنسانية ينبغى أن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض . . . إن موقفا إنسانياً واحداً هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان . السكرية ص ٣٠٩ .

وإذا عرفنا أن الطبيعيين يكرهون أن يختموا قصصهم بمغزى لها ، وأن الواقعيين الاشتراكيين يحتمون أن يثبت الكاتب فى تصويره للشر دواعى الأمل فى التخلص منه[1] ، أدركنا عمق التيار الواقعى الذى ينساب فى ثلاثية نجيب محفوظ من أولها إلى نهايتها .

---

(١) الأدب المقارن لغنيمى هلال ص ٢٩٥/٢٩٧ .

تحديات عربية للجمال

للدكتور أحمد كمال زكى
المدرس بقسم اللغة العربية

(١)

إذا سلمنا بوجود حضارة جاهلية — ويجب أن نسلم — فإننا لانجابه فيها بأفكار أساسية عن طبيعة الخلق الأدبى . بل لا نعرف أن تلك الحضارة حددت معنى الجمال ، وإن تكن عرضت لظاهرة الخيال عرضا لم يقف عنده الإغريق على رغم تقدمهم الفنى .

على أن تداول العرب القدماء كلمة الخيال لم يعن قط أنهم كانوا يمنحونه منزلة رفيعة ، بل ارتبط بوجود « الرئيات » أو الشياطين التى توحى للشعراء بما يقولون[1] . واقترن كذلك بقصص الخرافة ، ثم لم يسلم من السب به بعض السجاعين الكهان .

ويبدو أن المصطلحات الفنية الخاصة بالأدب وبكل قضاياه أو أغلبها لم توضع إلا بعد الاتصال بأرسطو ، وكان ذلك بعد أن أرسيت نهائيا قواعد الحضارة الإسلامية مع بدايات القرن الثالث الهجرى . وهنا يتكشف لنا أن الإغريق — وقد أهملوا الخيال — لم يعنوا أيضاً بالجمال كمصطلح وإنما عرفوه حين عرفوا كلا من الحق والخير .

هم فهموا الجميل كما فهمه العرب ، ولكن اعتدادهم بالعقل طرح بالجمال إلى المطلق والنسبى[2] . وظهر عند سقراط مرتبطا بفكرة « الملائم » أحيانا

---

(١) فى القرآن الكريم عارضا للشعراء « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين »

(٢) يقال ان سقراط كان اول من حاول ان يضع أسس علم الجمال ، فقد سأل هيبياس قائلا : ما الجمال ؟ فلما أجاب بانه صفة تطلق على المرأة أو الذهب أو الفرس الخ .. قال سقراط : أنا لا أسألك عن الأشياء التى يمكن أن تكون جميلة ، وانما أسأل ما الجمال ! كان سقراط يسأل عن ماهية الجمال وليس عن ضروبه الجزئية ، ومع ذلك فلم يكن ما سأل عنه حاسما فى تقنين الجمال .

و « النافع » أحيانا أخرى فهو خير ، ثم ظهر عند أفلاطون فى صورة « جمالات » جزئية متفرقة ترتقى إلى « مثال الجمال » أو « الجمال المطلق » دون ما بعد عما رآه أستاذه[1] . وحين جاء أرسطو أدرك أن أفلاطون يعجز عن فهم القيمة الجمالية فهما فنيا ، ويضفى عليها طابعا أخلاقيا بتقريره أن الجمال المطلق هو جمال الحق وجمال الخير ، ولما كان الشعراء يكذبون بتقولاتهم على الآلهة فقد حمل عليهم حملة شنيعة واشتدت حملته شناعة عندما قرر أنهم « يحاكون » المظاهر المتعددة لا المثال .

لاحظ أرسطو ذلك فحاول أن يعدل منه ، ولا سيما بالنسبة للشعراء ولكنه ظل مرتبطا بالنافع ، مع إضافة عنصر « اللذة » واستعمال كلمة phantasia مطلقة على نوعين من التصور : أحدهما جمع الانطباعات ، والثانى تنسيقها لخلق شىء آخر يشبه مايجرى فى الحياة ، فتبدو من هنا أولى المحاولات لرصد « الخيال » كمقابل للواقع ، وإن يكن دونه مكانة .

هذا مافهمه العرب ، وفهموا أيضاً ـ خطأ ـ أنه يعنى بالمحاكاة فى الشعر إهدار قيمة الطاقة الخلاقة التى تميز الفن ، فوضعوا على ذلك نظريتهم فى التقليد وفى عمود الشعر ، وفى غيرهما من أصول النقد .

لقد غاب عنهم مدلول كلمة poieö ومعناها make أى يعمل ، ومدلول كلمة mimeomai ومعناها imitate أى يحاكى[2] ، ثم مدلول كلمة

---

(١) على الرغم من هذا وآثاره أيضا الجميل فى ذاته مقترنا بالمثال المطلق فمن العبث أن نبحث فى الفلسفة الافلاطونية عن مذهب متكامل فى علم الجمال كما يقول دنيس هويسمان فى كتابه L'Esthétique

(٢) ومنها mimesis أى imitation وهى المحاكاة او التقليد . والشعر عند ارسطو لا يقلد الطبيعة كما يتوهم بعضنا بل يقلد ما يتصوره الشاعر ، اى يصنع ما يتمثله خياله .

phantasia التى عرضنا لها منذ قليل ، ومن ثم لم يفهموا قوله « إن الخيال الخلاق هو جوهر الشعر » على أساس أن الشعر يبنى بناء خياليا هو عبارة عن الاحتمالات لما فى الطبيعة .

ومبدأ الخيال الخلاق الذى لم يحسن العرب فهمه ، وقع فى شططه أكثر الأوربيين ، وإن يكونوا أدركوا أن أرسطو فى حديثه عن «اللذة» بمشاهدة المحاكيات إنما كان يحرر الفن من الأخلاقية التى تحدث عنها أفلاطون ومن قبله سقراط .

وعلى ذلك النحو كان تقبل العرب المسلمين لفكرة الجمال الأرسطية ، وقد رسخت هذه بما ذهب إليه من أن لغة الشعر ليست لغة التخاطب ، وللشاعر أن يخترع المجازات وضروب التمثيل فى غير ابتذال ثم يضفى على النص ماشاء من الغرابة والزينة ، فإذا كذب فلسنا نتهمه كما اتهمه أفلاطون ، ولكن نفترض أنه يصور الآلهة — أو الناس — كما يجب أن تكون[1] .

ولقد اعتنق المسلمون هذه النظرية متماسكة الأطراف أو مفككة ، ولكن التباين — كما عرفه الغربيون — بين الفن لخدمة الدين والفن الدنيوى لم يكن واضحا على الإطلاق . ولم تكن ملحوظات الرسول عن الجمال[2] ، وبناء دور العبادة فى تشكيل معمارى حسن ، ثم صنع بعض الأدوات الفنية لم يكن ذلك كله ليوضح اتجاه العرب الجمالى ، فإنهم مافتئوا يحتاجون إلى من يدافع عن إحساسهم الفنى ضد الأخلاقيين منهم ، ثم وجد الكلاميون

---

(١) فن الشعر ٦١ الى نهاية الفصل ٢٢ ، صفحة ٧١ الى نهاية الفصل ٢٥ ، ويورد فى صفحة ٧٣ ان سوفوكليس كان يصور الناس كما ينبغى ان يكونوا بينما صورهم يوريبيديس كما هم فى الواقع ، وقد اصبحت هذه الموازنة مشهورة !

(١) كان محمد عليه السلام يقرأ قوله تعالى فى الابل « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » وكان يقول « ان الله جميل يحب الجمال » واستمع الى الغناء ودق الدفوف فى بيته !

يناقشون الحياة على أساس يمجد العقل ويرفض الخيال الكذب ا حقا ظهر بين الكلاميين أدباء كالنظام والجاحظ ، إلا أن هؤلاء كانوا يعتبرون الجمال فضولا يضاف إلى الشكل ، والمعنى بعد مطروح فى الطريق يعرفه العامى والخاصى .

وهكذا تبلورت النظرة على النحو التالى : شكل ومحتوى أو لفظ ومعنى وهما جسم العمل الفنى ، ثم زينة تضاف إلى الشكل ماقدر الفنان عليها وأصاب . وهذه الزينة كانت من التناسق الذهنى بحيث ارتبطت بالترديد الزخرفى والهندسى ، على ماظهر فى معمار العباسيين وغيرهم . وقدبلغ اهتمام الفنانين بهذه الظاهرة الشكلية حدا رفضوا معه أى تنويع داخلى ، ثم انطبع هذا على شعرهم يقويه إيمان عميق بالموروث الجاهلى ، فكانت النتيجة وضع القواعد التى تتحكم فى التعبير الأدبى .

وعلى هذا يكون الجمال حتى هذه المرحلة من حياة العرب — وهى مرحلة ماقبل العصور الوسطى — شىء ظاهرى ، قدتدخل القيم الدينية فى تقديره، وقد يقتحمه مبدأ « النفع » قدر مايقتحمه مبدأ « اللذة » .

حقا ثار الأدباء على هذا التقنين بثورتهم على القديم فى القرنين الثانى والثالث (حول التاسع الميلادى) غير أنهم لم يلبثوا أن فقدوا مكاسب هذه الثورة . ووجد النقاد — كقدامة بن جعفر — الذين يهونون من قيمة الابتكار القائم على الخيال ويجعلون الشعر علما[٢] له أقسامه ومقاييسه التى يقاس بها الحسن والقبيح أوالجودة والرداءة . والغريب أن هذه المحاولات لم تعمل إلا قليلا على تعميق الشعور بالجمال ، ولكن وضعت القواعد فى صورة « عمود الشعر » ونحوه . وكذا اتضح كيف أن الظاهرة الأدبية

---

(٢) فى وساطة الجرجانى صفحة ٢١ ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له (ط . صبيح ١٩٤٥)

التى أهمل أصحابها الخيال الابتكارى واعتدوا بالعقل — قد ارتبطت بالصنعة ، فكان لابد لطائفة من النقاد أن تنمى فكرة « المطبوع والمتكلف » التى ظهرت فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

وهذا الموقف المضطرب لا يظهر لنا فيه هل كان أساس الحسن الجمالى عند العرب يقوم على عناصر خارجية أم على عناصر شخصية ، ومن ثم تراوح الحكم النقدى بين الموضوعية والذاتية فى بلبلة يكشف عنها الآمدى فى الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، فهو يجعل أساس الموازنة قواعد موضوعية يمكن التمرس عليها ، واستعداداً شخصياً يحسن تطبيق تلك القواعد « وبفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته »[1]

ومعنى ذلك أن الحكم الجمالى كان مرتبطا بالصنعة ، وهذه كانت شكلية ، وظلت كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجانى فقال فى صراحة « إن هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله ، صفة يستعان عليها بالفكرة »[2] ولكنه يحرص — بناء على مذهبه فى النظم — على ألا يفصل بين الشكل والمحتوى لأنه « لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعانى فى النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها ، لكان ينبغى ألا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه » .

على أن هذه النظرة لم تكن إلا فردة ، فقد ظلت سائدة فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، واعتبر الجمال معهما زينة خارجية يظفر بها الأديب ، إذا هو تلاعب بالعبارة ، فأتى بسجعة وقدم أو أخر ، وشبه أو أحسن التعليل . أو أتى بالغريب وسائر أنواع المجاز كما يقول أرسطو . ثم كان

---

(١) الموازنة ٢٨٣ (ط . محمود توفيق

(٢) دلائل الاعجاز ٤١ (ط . المنار سنة ١٣٣١

التطور الجمالى لاشىء . فهو دائر فى حلقة مقفلة ، والإجادة ليست إلا تحسينا أو تحويراً لما يتردد عند الأولين ومن لحق بهم .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يظهر حازم القرطاجنى ليدخل فى وعى — وليس كما فعل قدامة — نظرية أرسطو البلاغية إلى البلاغة العربية . واختلف بذلك عن عبد القاهر الجرجانى والشهاب الخفاجى صاحب « سر الفصاحة » والسكاكى صاحب « مفتاح العلوم » وغيرهم ، وقرر أن الشعر يجب أن يعتمد على الخيال أو التخييل كما يقول ، فى حين تعتمد الخطابة على الإقناع . وكلاهما قد يستند إلى كذب ، ولكن بالتمويه والاستدراج تتم استمالة المستمع إليه . وفى الشعر تكون المحاكاة تحسينا للطبيعة ، ولهذا يحسن التشبيه الذى يجرى بمقدار ، ويرتبط بالتخييل أولا وأخيراً . ويكون الحسن فيه إما أحسن مافى معناه وإما أحسن منه . وكذلك القبح قد يوجد أقبح منه ، أولا يوجد . « فالحسن الذى لا أحسن منه والقبيح الذى لا أقبح منه — ولا يوجد مساو لهما فى معنييهما — لا ينبغى أن تكون الأقوال فيهما صادقة فى الأولى والأكثر ، فإن محاكاته بما هو دونه تقصير به وليس هناك إلى مايطمح به . فأما الحسن والقبيح اللذان يوجد فى معناهما ماهو أعظم منهما أو مايساويهما ، فإن الأقاويل الشعرية ترد فيهما صادقة وكاذبة بحسب مايعتمده الشاعر من اقتصاد فى الوصف أو مبالغة »[1] .

وخلاصة موقفه الجمالى لم يقربه من قرنائه العرب ، فهو لأول مرة يرى أن « الاعتبار فى الشعر إنما هو التخييل » ويختلف عنهم من ناحية ثانية هى فى تقبله الكذب ، وإن يكن لا يجعل الأقاويل الشعرية كلها كاذبة[2] .

---

(١) من كتاب منهج البلغاء نشرته المعارف ضمن «الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين» ص ٩١ ، ٩٨ ، ١٠١

(٢) المصدر نفسه ١٠٧

غير أنه يجعل لقضية « الخير » محوراً فى بحثه ، وذلك حين يدعو إلى أن يتفهم الشاعر المواطن التى لا يليق بها إلا الصدق وهى « مناصحة ذوى التصافى »[١] .

ومثل هذا التطور نلقاه فى أوربا طوال العصور الوسطى ، فالخيال ينشط ولكن حيث يكون الخير محك كل شىء . ذلك أن المجتمع البشرى ولا سيما فى أوربا كان يخضع للسيطرة الدينية المطلقة ، وفى ظل هذه السيطرة كان الفكر الجمالى مقيداً بما قيده به العرب تقريباً . بل ربما كان اصطناع العرب الغرابة والإتيان بالعجيب والنادر واصطناع المحسنات البديعية قد برز عند الغربيين بروز مشكلة « الشكل والمحتوى » أيضاً ، بل إن الصور والمجازات التى توصل إليها العرب ومعهم الفرس بعد ذلك « تكاد تكون فى كثير من الأحوال هى عين الصور والمجازات التى أوجدها الأدباء الأوربيون فى القرن السابع عشر »[١] .

وكما كنا نرى القاعدة العربية التى تقرر أن الجمال « شىء زائد يوشى به الكلام كما يوشى الثوب بالتطريز » نرى ايسيدور يقول فى تلك الآونة: الجمال شىء يضيفه المرء إلى الأبنية بغية التزين والأبهة . ومن هنا ظلت الفلسفة الجمالية — على نحو ما خطط لها حكماء اليونان — أحد وجوه الحق والخير، وترتبط بمبدأ اللذة ومبدأ المنفعة « يجب على التمثال أن يذكر الناس دائما بالخالق ومريم واليسوع » .

(٢)

الى هنا ينتهى دور العرب تماما فى التأثير فى أوروبا عن فلسفة الجمال ،

---

(٢) نفسه ١١٠ وقديما كنا نسمع الاصمعى يقول : الشعر نكد بابه الشر ، فلاذا دخل فى الخير لان !

(١) دراسات فى الادب العربى ١٤ لجرونباوم . (ط . بيروت)

ولم تكن الإستاطيقا قد ظهرت بعد كعلم خاص بالمعرفة التى تكتسب بالإدراك الحسى . وكان لابد أن تظل مع مايقابل الجمال من قبح فى تهويمات اللاهوت والميتافيزيقا ، حتى يقيض لها فلاسفة القرن الثامن عشر وأدباؤه كشوبنهاور وشيلر وجوته . فيهزونها ، ويقومون بغربلتها ، ويرون أن تخطيطها القائم على الانسجام والتنسيق ودقة الإيقاع لم يعد وافيا . بل ترددوا فى الإبقاء على قيمها الأخلاقية والميتافيزيقية ، ثم كان لمناقشة نظرية القبح كامتدادات لجماليات الفن أثر كبير فى الفصل بين الفن والجمال . وبهتك هذا الستار ، لم يعد ما يمنع اتجاهات القرن العشرين التقدمية من أن تطل بيسر وسهولة .

على أن الطريق لم يكن ممهداً دائماً ، فبين النصف الثانى من القرن الثامن عشر والقرن العشرين ترددت الإستاطيقا بين أن تكون الحدس أى البصيرة كما يقول فريق ، أو أن تكون العلم الذى يتضمن معارف النشاط الفنى الخاصة كما يقول فريق ثان ، أو أن تكون كشفا عن الخصائص النوعية للفن الجميل كما يقول فريق ثالث ، أو أن تكون على نحو هذا كله ومايجرى مجراه .

وفى تلك الآونة نرى الثورة الفرنسية أو آراء جان جاك روسو بصفة خاصة تعمل عملها فى تضمين الإستاطيقا صفة الحساسية sensibilité ومنه تعلم الرومانسيون كيف يستهينون بقواعد الكلاسيكية التى تربطهم بالإغريق واللاتين ، ثم تبلورت الحركة الرومانسية فى الاستغناء عن الجانب النفعى ماكان إلى ذلك من سبيل .

ونستطيع أن نلمح فى آثار الرومانسيين الأدبية كل ماهو مرتبط بالطبيعة ، وكل ماهو متطرف وحاد وغامض بلا غاية . ونرى مثله فى أعمال جريكو وديلاكروا التصويرية ، حيث رسم الأول حطام الميدوزا وهو اسم

الوحش الخرافى[1] الذى خلعه على سفينة فرنسية كانت ذاهبة لغزو شمالى أفريقيا ، ورسم الثانى « الحرية تقود الشعب » بما فى المشهد من حدة ودم ، وقد حدد الاثنان جماليات الرومانسية تحديداً قائما على الإحساس المباشر بالانفعال المتحمس .

ثم انتقل الفن إلى الواقعية فاستبعدت الجوانب الذاتية منه وأحلت محلها التسجيلات الموضوعية ، ثم ربطت نفسها بالوظيفة الاجتماعية للفن . ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة تماما ، فقد عقد نقاد الأدب — ومنهم الأخلاقيون — مجادلات حول التعارض بين جمال الشكل وصدق القانون الأخلاقى . وكانوا قد انتهوا إلى أن الشكل يقترن به الإمتاع فقط ، وهذه هى القاعدة التى يرتكز إليها أصحاب نظرية الفن للفن ، فى حين بقى فريق آخر يدعو إلى أن يكون الفن (نافعا) أو (مفيداً) . وهكذا اضطرب العصر الفيكتورى بين المذهبين ، وأصبح الدارس يجد نفسه فى الدوامة نفسها التى عصفت بالإغريق واللاتين جميعا .

وكان معنى ذلك أن البحث فى الأدب باصطلاح الشكل التعبيرى على مايقول أصحاب الفن للفن ، واصطلاح الشكل العضوى الذى يستهدف الإفادة عن طريق الفكرة الحيوية . . كان معنى ذلك أن البحث فى الأدب يدفع إلى سلسلة من المتناقضات ، ولا يضع أيدينا على حقيقة ماتذهب إليه المدارس الأدبيه فى تصارعها واختلافاتها .

إلا أن هنرى جيمس القاص الأمريكى يرى منذ عهد مبكر — يرجع إلى ماحول سبعينات القرن الثامن عشر — أن خلق النقاد للتضاد بين الواقع والحقيق أو بين الجميـــل والنافع لايعدو أن يكون فهما خطأ للعمل الأدبى كله .

---

(١) فى الأساطير ان كل من كان يقع عليه بصره يتحجر .

لقد قرأ جورج إليوت ، وبلزاك ، وتورجنيف ، وفلوبير ، وألفونس دوديه وغيرهم . ثم انتهى من قراءته — على ما سجل فى نقوده المختلفة — إلى أن الحس بالحياة هو نقطة البداية لخلق الفنان الكبير ، وأن الاعتماد على تذوقه وتعلقه هو الذى يصهر مادة الأدب — يريد القصة بالذات — ويصهر فيها حقيقة الأخلاق دون أن يفطن إلى مهارته أحد ، ومن ثم لا تضاد بين العمل الأدبى الجميل المحكم وبين أن يقصد نفعا !

وفى الشعر كانت البلبلة نفسها ، ولكنه فى الإجمال فقد بعض سحره إزاء نهضة الرواية فى القرن التاسع عشر . وكان انتقال الجانب القصصى منه — على ما يظهر فى الملاحم — إلى القصة عاملا آخر فى تأخر درجته . وقد خضع فيما يبدو وبعد آراء أفلاطون وأرسطو لسلطان هوراس الشاعر الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد ، وكان هذا يقول : غاية الشعراء أما الإفادة أو الامتاع أو إثارة اللذة وشرح عبر الحياة فى آن واحد[1] .

ويكون بذلك قد أثبت للشعر قيما ثلاثا : الأولى تعليمية ، والثانية جمالية ، والثالثة تعليمية جمالية . ولم يكن بعد ذلك أى عجب فى أن ينحو الفكر الغربى فى العصور الوسطى إلى التوحيد بين الشعر والدين فى ضوء القيمة الثالثة ، ثم يستكشف به الشعراء جماليات النفس عن طريق الإمتاع فقط ، ويصل الأمر بالرومانسيين إلى أن يعتبروه إفرازا تلقائيا يستهدف الجمال فقط .

ولكن ثمة شعراء من هؤلاء كشلى يقدمون الفائدة ، ويأتى بيتس ليقرر أن الجمال الشعرى الحقيقى هو أن يحدث باسم الإنسانية لا باسم الوطن فقط . ثم يختلف الشعراء بعد ذلك بين أن يجعلوا الجمال شيئاً خاصاً بالشكل ،

---

(١) فن الشعر ٨٨ ترجمة لويس عوض (ط . النهضة المصرية سنة ١٩٤٧) .

أو جزءاً من الموضوع . وقد انتهى النقاد تقريبا إلى أن الشعر — مهما يكن لونه — يصدر عن جبرية تكمن فى اللاوعى ، وعن تنظيم واع يتدرب عليه ، والجمال من ثم معرفة حسية تحدد العلاقة بين الفهم الشعرى والمظاهر الحضارية من صناعة ودين وعلم .

وهكذا يلتوى بنا الأمر فى تقصى إستاطيقا الأدب ، فلا عجب أن يقول أناتول فرانس بعد هذا إن علم الجمال لا يمكن أن يقف على أساس متين ! كان هذا قرب نهاية القرن التاسع عشر وكانت الحياة الأدبية كلها فى الغرب وفى الشرق العربى تقرر — رغم كل ماقدمه الجماليون — أنه ليس ثمة قواعد فى الإستاطيقا يجمع على التسليم بها كثيرون .

(٣)

وفى القرن العشرين ارتبط الجمال بالمضمون ، وكانت نظرية التحام الشكل بالمحتوى ، التحاما عضويا قد استقر عليها أغلب الأدباء . وكان من السهل على أى أديب ابتداء من دوستويفسكى حتى هنرى ميلر ، ومن إبسن حتى صمويل بيكيت ، ومن إليوت حتى أودن[1] أن يحطم شكليات العمل الأدبى باعتبار أن هدفه الجمالى هو أن يفكر ويشعر ويؤثر بلا قيود ، ذلك أن قضايا إنسان هذا القرن لا يتسع لها الشكل التقليدى للعمل الأدبى .

إذن فقد انهار الشكل الجميل وبرز المضمون ، وعن طريق موقف الأديب يحس الناقد أنه يعبر فقط . . يرسم يوطوبياه . . يحدد معنى أن يعيش كما ينبغى أن يعيش ، وهذه هى الجمالية الجديدة !

---

(١) فى سنة ١٩٥٠ أصدر « نكرات » Nones وقد تخلص من الشكلية المحكمة ومن أخطار الأسلوب المنمق .

نعم قد نجد بول فاليرى — وهو أحد شيوخ المحدثين — يصرح بأنه لايكاد ينظم أية قصيدة حتى يحس كأنه أمام مشكلة هندسية[1]. وقد نجد مايا كوفسكى، وسومرست موم، وألبرتومورافيا ودرنمات وفروست، إلا أن هؤلاء بقايا الجيل العظيم الذى يعنى بالتكنيك ويرفض إهدار الجمال الشكلى فى سبيل إبراز المضمون.

وفى الشرق العربى يتقبل الأدباء هذه القفزات بحذر فى أول الأمر، فنجد أدباء الريادة يصطنعون الأناقة الشكلية، بل قد يهدرون قيمة المحتوى فى سبيل تحسينات الأسلوب. غير أن الحرب العالمية الثانية لاتكاد تنتهى حتى يتفتحوا على الاتجاهات الحديثة فى الرسم والموسيقى والأدب، بل لعل ما أصاب الحياة العربية نفسها من هزات قد أذن للأدب أن ينحرف عن اتجاهاته التقليدية.

فقد تحرر الفنان العربى من أسر الإقطاع والمستبدين، ولكنه قوبل بأزمة العصر المتفشية، وراح يعيش الصراع الذى عصف بأغلب قيمه ومنها قيم الجمال التى لم تعد ترتبط بظواهر الأشكال. وفضلاعن ذلك فقد تعمق أبحاث برجسون فيما يتعلق بالإدراك الغريزى، وتكشفت له نظريات جديدة فى الطاقة بعد نسبية أينشتاين، وشاهد غزو الفضاء، وأدرك بحدسه أنه يعيش تجارب ذات عمق جديد وإيقاع فريد!

لهذا كله اندفعت عجلة الأدب اندفاعة عنيفة، وإذا الشعر يتخلص من شكلية الخليل وتقنينه، ويستعين بالأساطير كقيمة تعبيرية لها مدلولاتها

---

(١) من رأى هذا الشاعر أن علم الجمال القديم والتقليدى قائم على أصول جدلية بحتة (راجع كتابه « الخلق الفنى وتأملات فى الفن » وهو مناقشات مع أقطاب الأدب والفن ترجمة بديع الكسم ـ منشورات الرواد بدمشق)

الجمالية الخاصة ، ويطالب بالموقف الذى ينبع عن فلسفة متمثلة لا مقومات مهوشة .

ومن أبرز شعراء المضمون — وهم أصحاب الشعر المرسل الذى يهاجمه بقايا شيوخ العصر - بدر السياب وصلاح عبد الصبور وخليل حاوى ورفيق خورى وخليل الخورى وعبد المعطى حجازى وكاظم جواد والبياتى وأدونيس (على أحمد سعيد) ويوسف الخال .

أما الأمر فى القصة فدون ذلك ، وباستثناء نجيب محفوظ فى أعماله الأربعة الأخيرة[1] لم يظهر سوى سهيل إدريس وغسان كنفانى[2] . وهذا نفسه أحد عشاق الوجودية ويحتذيهم فى رصانة ، وقد جاءت روايته « أصابعنا التى تحترق » صورة جديدة تشبه « الماندرين » التى كتبتها سيمون دى بوفوار .

فيما عدا هؤلاء الثلاثة تقريبا لا نرى واحداً ككامى يكتب مثل « السقطة » ولا واحداً كهنرى ميلر يرفض أن « يمتع » القارىء أو « يفيده » . بل ربما صارحه بأنه لا يريد إلا أن يثير اشمئزازه !

ومع ذلك فثمة جمال فيما يكتبون ، والجمال ليس فى الشكل وإنما هو فى المضمون ، وفى أعماقه التى يكشفها بتلقائية وسماحة .

وأما فى المسرحية فيبرز توفيق الحكيم . . ربما عن أصالة ، وربما عن تقليد ، غير أن روح العصر تشفع له فى التخلص من تكنيكيات الدراما الموروثة ، فهو يكتب « يا طالع الشجرة » ويكتب « رحلة صيد » و « رحلة

---

(١) أولاد حارتنا ، اللص والكلاب ، السمان والخريف ، الطريق .

(٢) الاول قاص لبنانى محدث متأثر بالوجودية ، ويعتبر من رواد « اللاقصة » فى الادب العربى المعاصر . والثانى له « رجال فى الشمس » يخرج بها على التكنيك القديم .

قطار ، فإذا هى شىء يقترب أحيانا مما يكتبه بيكيت ويونسكو ، وإذا بعضها يوشك أن يكون قصة قصيرة لها الإطار الدرامى الغريب .

والجمال بعد ليس فى الشكل ، ولكننا نجده فى ذهنيات الحكيم ، أو فى المسائل الحياتية التى يثيرها . غير أنى لست أدرى من سواه يكتب الدراما على هذا النحو الجديد ، ولكنها من غير شك لو أخذت بمقاييس الإستاطيقا التقليدية لباءت بالفشل !

(٤)

وبعد . . فهل نحن بحاجة إلى أن نعيد القول فى الأسس الجمالية لأدبنا؟

لقد فصلنا القول فيها قبل أن تظهر الآداب العالمية وبينا علاقتها بالسيكولوجية الأرسطية ، وحددنا النقط التى التقى عندها العرب والغربيون جميعاً . كما شرحنا القيم أو موازين النقد من خلال المعتقدات الجمالية التى سادت مختلف العصور ، وانتهينا — عندما انقطع العرب عن دور القيادة — إلى أن آراء روسو قد دفعت بعجلة الفنون إلى أمام ، ولكنها لم تستطع أن تبعد الفنانين عن آراء الإغريق واللاتين فى الجمال .

على أن تحول الكون من ثباته إلى ديناميته الدائبة ، واضطرار إنسان القرن العشرين إلى أن يعيد النظر فى موقفه الفكرى على أساس هذا الطارىء ، وتحول اتجاهات العلم بحيث تجعل الإنسان خالقاً . . كل أولئك عمل على أن يكيف جمالية العصر بأسلوب يبعد عن أسلوب القدماء ، وكان من أبرز سمات تلك الجمالية تغيير الإيقاع وتحطيم الشكل الأدبى المألوف .

وقد استطاع الفنان العربى الذى فاته قطار التطور خلال عصور الانحطاط أن يستعيد فى القرن العشرين — قدرته على الخلق الأدبى بنفس

طاقات العصر ، وبحيث يجد الناقد سهولة فى أخذه بإستاطيقيات المضمون ، ومن ثم نرانا مضطرين إلى أن نختم العرض بهذه المقالة التى تبدو محزنة : إن إستاطيقيتنا اليوم لم يعد لها إلا بعض ملامح هزيلة للفهم العربى للإستاطيقا، وأما روحها وأكثر أطرافها فمستورد من الغرب ، وليس هذا يدل على إفلاس ما ولكنه يدل على أننا نعيش عصر التلاحم الفكرى والفنى جميعاً!

القياس الخاطئ وأثره فى التطور اللغوى

الدكتور عبد العزيز مطر
مدرس فقه اللغة
قسم اللغة العربية

القياس اللغوى هو رد الشيء إلى نظيره[1] . وهذا الذى يرد إلى نظيره يكون جديدا بالنسبة إلى المتكلم لم يسمعه من قبل ، أما النظير الذى رد إليه اللفظ الجديد فهو معروف للمتكلم ، سمعه من قبل . والمرء يلجأ إلى هذا القياس فى لغته منذ الطفولة ، ويظل يستعمله فى كل ما لم يرد على لسانه من قبل . وهذا أمر ضرورى « فليس كل كلام إعادة لكلمات سابقة فقط ، بل هو فى نفس الوقت إنشاء لنطق جديد ، لأنه لا يمكن لموقف من المواقف أو دافع من الدوافع . أن يكون كالموقف أو الدافع السابق فى كل تفاصيله »[2] .

والمتكلم — مع استخدامه القياس فى تنمية لغته — لا يتعمد القياس فى كل حال بل يتم غالباً دون وعى منه . ولهذا ترى المتكلم والسامع لا يشعران بهذه العملية إلا إذا تبين لأحدهما أو كليهما أن هذا القياس مخالف لما تعارف عليه أهل اللغة ، وجرى فى كلامهم . ومعنى ذلك أن القياس نوعان :

١ — قياس صحيح .

٢ — قياس خاطىء[3] .

---

(١) المعجم الوسيط : ٧٧٥/٢ .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية للدكتور تمام حسان : ٢٩ نقلا عن نص للغوى الامريكى « ستيرتفانت » .

(٣) المشهور استخدام « اخطا » الرباعى ومشتقاته والتفرقة بينه وبين الثلاثى ، ولكننا جرينا هنا على رأى أبى عبيدة فى أن « خطىء » و « اخطا » بمعنى (الصحاح) .

وتوضيح ذلك أن العملية الذهنية التى تتم فيها المقارنة بين الكلمة أو الصيغة المجهولة ونظيرتها المعلومة ، قد تقوم على أساس التشابه التام بينهما وتسفر عن كلمة أو صيغة قد تعارف عليها أهل اللغة وإن كانت مجهولة للمتكلم لم يسمعها من قبل . وفى هذه الحالة يحكم على القياس بأنه صحيح .

أما إذا أسفرت هذه العملية الذهنية القياسية عن كلمة أو صيغة لم يتعارف عليها أهل اللغة ، أو قامت عملية المقارنة على أساس تشابه موهوم بين الكلمة المجهولة والمعلومة ، فإنه يقال حينئذ إن هذا القياس خاطىء .

وهذا القياس الخاطىء ، يبدأ عادة فى لغة الأطفال ، فإن لم يجد الطفل من يصلح له خطأه حدث فى لغة الجيل الناشىء أمور لم تكن مألوفة فى لغة السلف ، وحل الخطأ الجديد محل الصواب القديم ، وأصبح ما كان يعد خطأ فى لغة الأجداد أمراً معترفا به شائعاً فى لغة الخلف[1] وقد يقع القياس الخاطىء من الكبار أيضاً .

وهذه الظاهرة اللغوية ، أعنى القياس الخاطىء ، معترف بها من اللغويين المحدثين[2] .

ومعالم هذه الظاهرة واضحة عند اللغويين العرب فيما سموه «التوهم» وربما عبروا بالخطأ فى القياس أيضاً ، جاء فى «المزهر» للسيوطى[3] — عن شرح الفصيح لابن خالويه — «كان الفراء يجيز كسر النون فى شنان تشبيها بسيّان وهو خطأ بالإجماع فإن قيل الفراء ثقة ولعله سمعه ، فالجواب : إن كان الفراء قاله قياسا فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربى ، فإن الغلط

---

(١) من أسرار اللغة للدكتور ابراهيم أنيس : ٢٢ .

(٢) راجع مجلة مجمع اللغة العربية : ١٧٧/٨ (بحث أبواب الثلاثى للدكتور ابراهيم أنيس) .

(٣) المزهر : ٥٠٤/٢ .

على ذلك العربى ، لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة مرغوب عنها » .

فعلى الاحتمال الأول يكون الفراء قد وقع فى قياس خاطىء لأنه شبه شتان بسيان فظن الأولى مثنى وكسر نونها مثل سيان . ولكن شتان مبنية على الفتح لأنها اسم فعل وليست مثنى . وعلى الاحتمال الثانى يكون العربى قد جرى على القياس الخاطىء فانتهى إلى اعراب خالف به سائر العرب .

واستعمل سيبويه لفظ «التوهم» وهو ليس إلا قياسا خاطئا قال : «فأما قولهم مصائب فإنه غلط منهم ، وذلك أنهم توهموا أن مصيبة فعيلة ، وإنما هى مُفْعِلة [1]» .

وقد وضح ابن جنى طريقة هذا التوهم — أو القياس الخاطىء — بقوله : «وذلك أنهم شبهوا مصيبة بصحيفة ، فكما همزوا صحائف همزوا أيضاً مصائب ، وليست ياء مصيبة بزائدة كياء صحيفة ، لأنها عين عن واو ، وهى العين الأصلية وأصلها مُصْوِبة لأنها اسم فاعل من أصاب [2]» . وهذا معدود عند سيبويه وابن جنى من أغلاط العرب . بل وضح «سيبويه» عملية القياس الخاطىء على انها تشبيه صيغة بصيغة ، قال [3] : «وقالوا رجل حميد وامرأة حميدة ، يشبه بسعيد وسعيدة ، ورشيد ورشيدة ، حيث كان نحوهما فى المعنى واتفق فى البناء» .

ومن هذا التوهم قول امرأة من العرب : رَثَأْتُ زوجى بأبيات [4] بدل رَثَيْتُ . وقد وضح الفراء ما فى هذا المثال من توهم أو خطأ فى القياس ، بقوله « وهذا من المرأة على التوهم ، لأنها رأتهم يقولون : رَثَأْتُ اللبن [5] ،

(١) كتاب سيبويه : ٢٦٧/٢ .
(٢) المزهر : ٤٩٦/٢ .
(٣) كتاب سيبويه : ٢١٣/٢ .
(٤) اصلاح المنطق : ١٥٨ . المزهر : ٤٩٦/٢ .
(٥) أى حليته على حامض فخثر (الصحاح) .

فظنت أن المرثية منها ، وإلى ذلك يشير الفراء أيضاً فى قولهم : حَلَّأْتُ السويق بدل حليت ، بقوله « قد همزوا ما ليس بمهموز، لأنه من الحلواء»[1] .

ومن ذلك ما جاء فى المخصص[2] لابن سيده : « زعم أبو العباس محمد ابن يزيد (المبرد) أن أبا حية النميرى كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة (مثل مُوسى) وذلك أن الواو المضمومة تهمز باطراد فتوهم الضمة التى قبل الواو واقعة على الواو » .

ويتضح أثر القياس الخاطىء فى التطور اللغوى من قول أبى بكر الزبيدى[3] بعد أن ذكر خطأ العامة فى قولهم لواحدة الصئبان : صئبانة : « وإنما دخل عليهم لقولهم صئبان ، فتوهموا أن واحدته صئبانة ، وظنوه من الجمع الذى ليس بينه وبين واحده إلا الهاء » .

ومن قول الحريرى (القاسم بن على) : « ويقولون قد حَدُث أمر . فيضمون الدال من حَدَث ، مقايسة على ضمها فى قولهم : أخذه ما حَدُث وما قَدُم ، فيحرفون بنية الكلمة المقولة ، ويخطئون فى المقايسة المعقولة ، لأن أصل بنية هذه الكلمة ، حَدَث على وزن فعل بفتح العين . وإنما ضمت الدال من حدث حين قرن بقَدُم لأجل المجاورة والمحافظة على الموازنة[4] » .

وفى اللغة أمثلة كثيرة خرجها اللغويون على التوهم، كتوهم أصالة الميم فى المرآة، والمسكنة، والمدرعة والمنديل. جاء فى اللسان « وفى الحديث لا يَتَمَرْأَى أحدكم فى الماء . أى لا ينظر وجهه فيه وزنه يتمفعل من الرؤية ، كما حكاه سيبويه من قول العرب تمسكن من المسكنة ، وتمدرع من المدرعة . وكما حكاه

---

(١) الصحاح (حلأ) .

(٢) ١٠٦/١٦ .

(٣) لحن العامة : ٤ ـ أ (مخطوط) .

(٦) درة الغواص : ٣٠ .

أبو عبيد من قولهم : تمندلت بالمنديل ، وفى الحديث لا يتمرأى أحدكم فى الدنيا أى لا ينظر فيها » .

ولكثرة الشواهد التى خرجت ، أو يمكن تخريجها على مبدأ التوهم هذا كاد مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، يقر هذا المبدأ ويعترف به فى عداد الأقيسة اللغوية ، بعد أن استمع إلى ثلاثة بحوث للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربى (ت ١٩٥٦) فى دورات المؤتمر فى أعوام : ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٢ [1] قدم فى البحثين الأولين شواهد على توهم أصالة الحرف الزائد قال إنها « بلغت من الكثرة حدا رأيته كافيا فى اعتبار هذا الضرب من التوهم قاعدة تحتذى ، فيحمل على شواهدها المنقولة عن الفصحاء : شواهد أخرى تشبهها من كلام المولدين فنعتبرها صحيحة سائغة الاستعمال ، ولا نخطىء الكتاب المعاصرين أو المولدين فى استعمالها [2] » .

أما توهم زيادة الحرف الأصلى — وهو موضوع البحث الثالث — فقد وجد منه الشيخ المغربى سبعة شواهد « على أن فى اللغة طريقة ثابتة للتوسع فى نظائر كلماتها وتسهيل أمر التخاطب بها » ولقلة هذه الشواهد لم يقترح على المجمع اعتبار مبدأ توهم الزيادة قياسيا [3] .

أقول : كاد المجمع يقر مبدأ توهم أصالة الحرف ، ويوافق على اقتراح الشيخ المغربى كاملا ، فى اعتباره قاعدة يخرج عليها كلام المولدين والمعاصرين الذى يوجد له نظير فى كلام الفصحاء . ولكن المجمع اكتفى بهذا القرار :

« جرت بعض الكلمات العربية على مبدأ توهم أصالة الحرف [4] » . وليس

---

(١) البحوث الثلاثة منشورة فى مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٥٧/٧ د ٣٦١ و ٦١/٩ .
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٦١/٩ .
(٣) مجلة مجمع اللغة العربية : ٦٥/٩ .
(٤) مجموعة القرارات العلمية للمجمع : ١٠ .

فى القرار بهذه الصيغة جديد . بل هو إعادة تسجيل للواقع الذى أعترف به اللغويون القدماء . وقد نقلنا أقوالهم فى ذلك . ولم يحقق القرار الغاية التى من أجلها قدم الباحث بحوثه ، وجمع شواهد لتكون مثالا يحتذى ، ومقاييس ترد اليها نظائرها من كلام المولدين والمعاصرين . على أن بحوث الشيخ المغربى لم تعالج الا بعض جوانب « القياس الخاطىء » ، فهو أعم وأشمل من توهم الأصالة ، أو توهم الزيادة ، وذلك كالتوهم الذى يقع فى صيغ الجمع ، أو فى التأنيث والتذكير ، أو صيغ الفعل .

ويمكن أن يعزى إلى ظاهرة « القياس الخاطىء » ما حدث من تطور فى الكلمات الآتية ، المستعملة فى لهجاتنا العامية المعاصرة :

أولا : فى الإفراد والجمع :

(ا) فى اللغة العربية كلمات مفردة تجمع ثم يكون لصيغة جمعها جمع آخر ، وهو المسمى « جمع الجمع » مثل « إناء » ، فإن جمعه آنية وجمع جمعه أوانى . « ومصير » وهو المِعَى : واحد الأمعاء وجمعه مُصران ، وجمع الجمع : مصارين . وقد يحدث فى هذه الحالة أن يشتهر جمع الجمع مثل الأوانى والمصارين ، ويكتفى بأن يكون المفرد هو الآنية والمصران . وهكذا يسمع فى اللهجات المعاصرة « الآنية النحاسية » . والمتكلم يعنى الإناء الواحد ونسمع « المصران الأعور » « والمصران الغليظ » على حين أن المصران جمع مصير . وقد ماتت هذه الكلمة الأخيرة فى اللهجات اكتفاء بالمصران .

وقد حدث هنا قياس خاطىء : فالمتكلم قاس « آنية » « وأوانى » على « خابية » « وخوابى » « وساقية » « وسواقى » فحسب الآنية مفرداً كالخابية والساقية .

وقاس لفظ « مُصران » و « مَصارين » على « ثُعبان » « وثَعابين » ، « ومِفتاح » « ومفاتيح » « وقِرطاس » و « قراطيس » فكما أن الثعبان والمفتاح والقرطاس كلمات مفردة فكذلك توهم « المصران » .

(ب) هناك جموع يكون الفرق بينها وبين مفرداتها بالتاء المربوطة ليس غير ، وذلك فيما يسمى « اسم الجنس الجمعى » مثل تفاح وتفاحة ، وسحاب وسحابة ، وعنب وعنبة ، وشجر وشجرة .

وقياساً على هذا حدث فى بعض الكلمات صياغة مفرد لها مشتمل على التاء الفارقة ، على حين أن الجمع الخالى من التاء له مفرد آخر . ومن ذلك ماقيل فى اللهجات العامية لواحدة «الذباب» : ذِبَّانَة[1] (بالذال أو بالدال). وإذا كان «الذباب» فى اللغة من النوع الذى يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال ذبابة ، فإن «الذِبَّان» ليس من هذا النوع بل إن واحدته « ذبابة» أيضاً لا «ذِبَّانة» . ولكن قياسها خطأ على ذباب وذبابة هو الذى أدى إلى هذه الكلمة الجديدة أعنى «ذِبَّانة» .

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى اللهجات من قولهم « صِئبانة[1] » لواحدة «الصئبان» والصئبان جمع صُئْوابة ، وليس من الجمع الذى يفرق بينه وبين واحده بالتاء . ولكنها ليست خطأ على صئواب . ومفرده صئوابة. وقد تمت العملية القياسية هكذا :

لما كان الذباب جمعاً مفرده ذبابة
∴ الذِبَّان مفرده ذِبَّانة

و

لما كان الصئواب جمعاً مفرده صُئْوَابة
∴ الصِئْبان مفرده صِئْبانة

---

(١) قالها عامة الأندلس فى القرن الرابع الهجرى (لحن العامة للزبيدى : ٥ ــ ب) وعامة صقلية فى القرن الخامس الهجرى (تثقيف اللسان لابن مكى : ١٨ ــ أ) وعامة بغداد فى القرن السادس (تقويم اللسان لابن الجوزى : باب الذال) وما زالت الكلمة مستعملة فى لهجاتنا المعاصرة .

(١) تنطق فى أكثر اللهجات بحذف الهمزة فيقال صبانه ، وفى بعض اللهجات تنطق الصاد سينا فيقال : سبانه . وقد وردت كلمة « صئبانة » فى لهجات عامة الاندلس فى القرن الرابع لحن العامة ٤ ــ أ) وعامة صقلية فى القرن الخامس (تثقيف اللسان : ٦٨ ب) .

وقد فسر أبو بكر الزبيدى هذا الخطأ فى القياس بقوله : « وإنما دخل عليهم لقولهم صئبان ، فتوهموا أن واحدته صئبانة ، وظنوه من الجمع الذى ليس بينه وبين واحده إلا الهاء[1] » وربط الزبيدى بين هذا الخطأ وخطئهم فى ذبانة ، إذ قال : « وغلطهم فى هذا كغلطهم فى الذبان »[2]

ومثل ذلك ما حدث فى بعض اللهجات العربية المعاصرة فى مصر ، إذ تسمى الحلوى المصنوعة من النعناع « أرواح » فإذا أراد المتكلم التعبير عن الواحدة أضاف التاء الى هذا الجمع فقال : «أرواحة» وسمعت من يقول لبائع الحلوى « هات أرواحتين » .

(ح) هناك كلمات عربت وهى مفردة لكنها جاءت على صيغة من صيغ الجمع فاشتق لها مفرد قياساً على مفرد هذا الوزن ، وذلك مثل كلمة «قروش» التى دخلت اللغة العربية ، عن طريق اللغة التركية التى انحدرت إليها الكلمة من إحدى اللغات الأوربية . وكلمة « غروش » فى التركية مفرد لا جمع ، ولكنها لما دخلت العربية صادفت صيغة فعول ، وهى من صيغ جمع الثلاثى مثل قرد وقرود . ولهذا اشتق لها مفرد على وزن فِعل وهو القرش ، وهذا المفرد لا وجود له فى اللغة التركية .

ومثل ذلك كلمة « سراويل » فهى مفرد لا جمع ، ولكنها لما جاءت على صيغة الجمع وهى فعاليل ، اشتق لها مفرد وهو سروال[3] ، قياسا خاطئا على قنطار وقناطير .

(ء) ومن الكلمات التى تأثرت فيها اللهجات العربية الحديثة باللغة التركية ، وقيس عليها مثيلاتها قياسا خاطئا : الزيوتات والفحومات والشحومات . وصحتها : الزيوت ، والفحوم ، والشحوم .

---

(١) لحن العامة : ٤ ـ أ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ ـ ب .

(٣) فى النحويين من يزعم أن سراويل جمع سروال وسروالة (راجع الصحاح) .

والسبب فى هذا أن الأتراك – الذين نقلت منهم هذه الصيغة – لا يعرفون صيغ الجمع فى اللغة العربية ، فلما دخلت هذه الكلمات العربية إلى اللغة التركية ، أضافوا لها – وهى جمع – الألف والتاء ، فقالوا : اللوازمات والعفونات . ولما أخذها المصريون عن الأتراك أخذوا طريقتهم الخاطئة فى هذه الجموع .

(هـ) كذلك يؤدى القياس الخاطىء دوراً فى إيثار صيغة من صيغ الجمع على أخرى ، فيكون ذلك من أسباب اختلاف اللهجات بين البيئات المختلفة ، فمن ذلك أن أهل الإسكندرية يجمعون « الشماعة » على « شماميع » و« الجاكتة » على « جكاكيت » على حين أن أهل القاهرة يؤثرون جمع المؤنث السالم فى هذه الحالة ، فيقولون : « شماعات » و« جاكتات » ، كما يجمعون التاكسى على « تاكسيات » على حين أن أهل الإسكندرية وبعض الأقاليم يقولون « التكوسة » ، كما يقول بعض أهل الأقاليم فى جمع الراديو « الرداوى » ، وأهل القاهرة يقولون : « الراديوات » . على أن إيثار صيغة من صيغ الجمع على غيرها قد يتم عمدا لسبب اجتماعى خاص ، وذلك كما حدث فى تسمية « قانون الموظفين » بعد تعديله عام ١٩٦٤ باسم « قانون شئون العاملين » ولم يسم قانون « شئون العمال » فإيثار صيغة جمع المذكر السالم على صيغة جمع التكسير قصد به التمييز بين هذا القانون ، وقانون العمال بالمعنى الشائع لكلمة عامل ، على حين أريد بلفظ « العاملين » ما يشمل الموظفين والعمال .

ثانياً : فى التذكير والتأنيث :

عندما يقول الطفل : « البلحة الأحمرة » و« الأسمرة » بدل الحمراء والسمراء يكون قد قام – لاشعوريا – بعملية قياسية سريعة ، قفز إلى ذهنه فيها ما يسمعه حوله ، مثل : حلو وحلوة ، وكبير وكبيرة ، فحسب مؤنث الأحمر « والأسمر » يكون كذلك بزيادة تاء على الكلمة الدالة على المذكر ، فأخطأ

فى القياس ، لأن هذه الصيغة تؤنث بعلامة أخرى غير تاء التأنيث ، فتكون على فعلاء « كحمراء وسمراء » .

والتطور اللغوى فى التذكير والتأنيث يقع — غالبا — نتيجة لمثل هذا القياس الخاطىء ، وذلك بوضع علامة التأنيث فى اسم لم يسمع عن العرب بهذه العلامة ، أو باستبدال علامة بأخرى ، أو الجمع بين علامتين للتأنيث.

وقد جمعت من اللهجات العربية المعاصرة طائفة من الكلمات التى وقع فيها التطور اللغوى — بالنسبة للعربية الفصحى — فى التذكير والتأنيث ، وقمت بتصنيفها فى أنواع يمكن ردها كلها إلى القياس الخاطىء وهى :

١ — كلمات ورد السماع بها عن العرب بدون تاء التأنيث ، ويستوى فيها المذكر والمؤنث ، فتميل اللهجات إلى التفرقة بينهما بتاء التأنيث قياساً خاطئاً على الكلمات الكثيرة التى وقعت فيها التفرقة بالتاء رغبة فى اطراد الصيغ واطراد التفرقة فى النوع .

ومن ذلك : عروسة ، وامرأة صبورة ، وحقودة ، وعجوزة ، على حين أن المروى عن العرب : عروس وصبور ، وحقود ، وعجوز[1] .

وهذه كلها على وزن فعول بمعنى فاعل ، وهو من الأوزان التى لا تدخلها التاء الفارقة[2] ومما يبرر هذا القياس الخاطىء أنه سمع عن العرب : عدوة لمؤنث العدو[3] ، كما سمع عجوزة لمؤنث العجوز .

ومما ورد عن العرب أنه يستوى فيه المذكر والمؤنث كلمة « فرس » ولكن

---

(١) ذكر ابن مكى فى تثقيف اللسان : ٢٧ — ب (مخطوط) أن ابن دريد ذكر أن عجوزة وردت عن العرب ولكنها رديئة.

(٢) راجع كتاب سيبويه : ٢١٣/٢ وشرح المفصل لابن يعيش : ١٠٢/٥ وشرح ابن عقيل : ٣٣٦/٢ (تحقيق محمد محيى الدين) .

(٣) الصحاح (عدا) .

اللهجات الحديثة تفرق بين المذكر والمؤنث بالتاء فتقول : «فرس» للمذكر «وفرسة» للمؤنث . وهذا قياس خاطىء على «بغل» و«بغلة» .

٢ — كلمات جاء مذكرها فى اللغة على «فَعْلان» ومؤنثها على «فَعْلى» كسكران وسكرى ، وشبعان وشبعى ، وغضبان وغضبى . وكسلان وكسلى . ولكن اللهجات تميل إلى التفرقة بين المذكر والمؤنث هنا بالتاء — قياسا خاطئا — فيقال : سكرانة وشبعانة ، وغضبانة وكسلانة . على أن هذا التطور فى تأنيث هذه الصيغة قديم ، فقد روى أن قوما من بنى أسد يقولون : سكرانة[1] وعليها قول عمارة بن عقيل :

ومن ليلةٍ قد بِتُّها غيرَ آثمٍ بساجيةِ الحِجْلَيْنِ رَيَّانةِ القُلْبِ[2]

٣ — كلمات جاءت فى اللغة العربية مذكرة ، أو بالوجهين ، فاختارت اللهجات تأنيثها . وفى هذه الحالة تلحق بها علامة التأنيث رغبة فى اطراد الصيغة ، وقياسا خاطئا على الكلمات التى لحقتها التاء ، ومن ذلك قولهم :

«سكينة» و«خميرة» و«حصيرة» و«ضبعة» والمسموع عن العرب «سكين» و«خمير» و«حصير» و«ضَبُع» .

٤ — كلمات مذكرة منتهية بألف مثل «مستشفى» تميل اللهجات الحديثة إلى نطقها «مستشفه» وتبعاً لذلك تعد مؤنثة ، قياسا خاطئاً على الكلمات المؤنثة بالتاء .

٥ — فى اللهجات العربية المعاصرة ، صيغة مستحدثة من صيغ التأنيث

---

(١) اصلاح المنطق : ٣٥٨ .

(٢) امالى القالى : ٢/٦٠ . والقلب (بضم القاف) : السوار .

وردت عليها كلمات كثيرة شائعة مثل . سمكاية ، و بلحاية ، و تفتاحاية ، وتأملاية كاريكاتورية ، ومرشحاية[١] .

وقد لحظت فى هذه الأمثلة وما جرى على وزنها ، أنها :

(ا) تصاغ بزيادة ألف وياء ، قبل تاء التأنيث . وإذا كان فى الكلمة ألف أصلا مثل عصاة وحصاة زيدت ياء فقط فتميل عصاية وحصاية .

(ب) تصاغ للدلالة على الوحدة ، فمعنى « بلحاية » : بلحة واحدة « وسمكاية » : « سمكة واحدة » .

وتطور « عصا » — وهى الصحيحة فى العربية — إلى عصاة قديم ، فقد قال ابن السكيت : « زعم الفراء أن أول لحن سمع بالعراق هذه عصاتى »[٢] وفى « مراتب النحويين » لأبى الطيب اللغوى[٣] : أن زيادا وأبا الأسود الدؤلى سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى . وفى « تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلى : أول لحن سمع بالبصرة : « هذه عصاتى »[٤] وفى « البيان والتبيين » للجاحظ : « أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى »[٥] .

أما تطور « حصاة » « وسفاة » « وشذاة » « ودباة » إلى . حصاية ، وسفاية ، وشذاية ، ودباية — فقد حدث فى لهجة أهل صقلية فى القرن الخامس الهجرى[٦] .

---

(١) هذه الصيغة ترد كثيرا فى عنوانات الرسم الكاريكاتيرى الذى يقدمه الرسام صلاح جاهين فى صحيفة « الأهرام » .
(٢) اصلاح المنطق : ٢٩٧ .
(٣) ص : ٨
(٤) ٢٧ ـ ا (محفوظ)
(٥) ٢١٩/٢ .
(٦) تثقيف اللسان : ٢٨ ـ ب .

وفى بيان السر فى نشأة هذه الصيغة الغريبة خطر لى تفسيران :

١ — أن كلمتى عصاية وحصاية قيستا خطأ على عباية وصلاية فى عباءة وصلاءة ، وكلتاهما قد وردت عن العرب الفصحاء ، وقيس عليهما غيرهما رغبة فى اطراد الصيغة وزيدت الألف فى الكلمات التى لا توجد فيها الألف أصلا مثل سمكاية وبلحاية .

٢ — من الممكن القول بأن الألف والياء فى هذه الصيغة كانتا فى الأصل « أى » ، ثم تطورت صوتيا إلى الصورة الجديدة ، أعنى أن « سمكاية » أصلها « سمكة أىّ سمكة » ثم اختزلت إلى « سمكة أى » ثم تطورت إلى « سمكاية » ويطبق هذا على الأمثلة السابقة .

وقد بدأ لى احتمال أن تكون هذه الصيغة من صيغ التصغير فى إحدى اللغات السامية كالسريانية والعبرية . ولكن الأستاذ حامد عبد القادر — وهو حجة فى الساميات — نفى لى هذا الاحتمال .

وهناك آثار واضحة أخرى للقياس الخاطىء فى صيغ الفعل[1] ، وصيغ المشتقات نرجىء بيانها إلى بحث آخر ، مكتفين بالأمثلة السابقة فى الاستدلال على أثر ظاهرة القياس الخاطىء فى التطور اللغوى .

أما بعد ، فلعل مجمع اللغة العربية يجعل هذه الظاهرة قاعدة ، استناداً إلى ما رويناه عن اللغويين ، وإلى الشواهد التى سلم بها المجمع ، حين اتخذ قراره بأن بعض الكلمات العربية جرت على مبدأ توهم أصالة الحرف[2] ففى الاعتراف بأثر القياس الخاطىء رفع لصفة الخطأ عنه وجعله عرفا لغويا ، يوسع نطاق القياس ، ويقرب بين الفصحى والعامية . وهذا أمر منوط بالمجمع بحكم قانونه .

---

(١) راجع بحث الاستاذ الدكتور ابراهيم انيس « أبواب الثلاثى » فى مجلة مجمع اللغة العربية ١٧٢/٨ .

(٢) مجموعة قرارات المجمع : ١٠ .

الوهابية .. عقيدة ودولة

للدكتور عبد المجيد الشرفي
استاذ كرسي التاريخ الحديث
ورئيس قسم التاريخ والجغرافيا

في أوائل القرن الثامن عشر وقع في جزيرة العرب حادث خطير ، غير تاريخها السياسي ، وقلب نظامها الاجتماعي ، وأثر كثيراً في نظامها الاقتصادي وخرج بها عن عزلتها الطويلة إلى مجرى السياسة العالمية ، ذلك الحادث هو ظهور مصلح كبير يدعو إلى مبادىء جديدة غايتها الاصلاح الديني ، وهدفها إرجاع الإسلام إلى عهد البساطة وتحكيم القرآن ، والتشدد كل التشدد في محاربة ماتعتقده من البدع والقضاء على الآفات التي ترتكب باسم الدين .

في سنة ١١١٦هـ (١٧٠٣م) ولد للشيخ عبد الوهاب بن سليمان التميمي قاضي (العيينه) بوادي حنيفه بنجد ولدا أسماه محمداً ، وكان بيت هذا القاضي ملتقى القاصدين من طلاب العلم وبعض علماء الدين يجتمعون فيه للبحث والمجادلة ، ويمضون الوقت في جدال فقهي ، أو نقاش ديني ، وكان الطفل وقد شب وأصبح صبياً ، يحلو له أن يراقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم ، يفضل هذا على الاجتماع بأقرانه من الصبية ، الذين اعتزلهم لكي يستمع إلى ما كان يثيره أبوه من جدال وبحوث . فنشأ حاد الفهم ، وقاد الذهن ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، واسع الثقافة بالنسبة لأترابه ومعاصريه ، حفظ القرآن قبل بلوغه العشر ، ونما جسمه وذهنه نمواً سريعاً ، فزوجه أبوه في سن مبكرة عندما كان في الثالثة عشرة ، وهيأه للعمرة

والحج فأدى المناسك فى مكة ، ثم ذهب لزيارة قبر الرسول فى المدينة حيث أقام شهرين كاملين . وقد رأى الفتى أثناء رحلته بالحجاز من المنكرات والبدع التى ترتكب باسم الدين ما أثار حفيظته ، وشغل ذهنه وتفكيره .

عاد الشاب بعد ذلك إلى « حريملا » حيث كان أبوه قد انتقل قاضياً فيها ، وهناك فى حريملا قرأ الفقه على أبيه على مذهب الإمام ابن حنبل ، ولقنه أبوه شيئاً من العلوم الفقهية والدينية التى يحسنها فكان محمد مبرزاً فى حل ما يعرض فى مجلس أبيه من المشكلات الفقهية ، حتى كان أبوه يقول عنه « قد أفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام »[1] .

رحل الشاب بعد ذلك طلباً للمزيد من العلم فزار الحجاز والاحساء والبصرة ، وهناك فى البصرة أطال الإقامة فقد راق له أن يدرس اللغة والحديث على أحد علمائها الأفذاذ الشيخ محمد المجموعى ، وكانت البصرة مرتعاً خصيباً لغلاة الشيعة ، الذين كانوا أكثر الفرق الإسلامية تعظيماً للأولياء . فهال الشاب ما رأى وما سمع من البدع الكثيرة التى ألصقوها بالدين ، وتوارثها الأبناء عن الآباء . فلم يستطع السكوت ، وبدأ يجهر بالنقد ويحمل على أهل البصرة حملة شديدة أثارتهم عليه ، فأخذوا فى أول الأمر يجادلونه ويناقشونه فينتصر عليهم حتى يسكتهم ، ولكنه كان عنيفاً فى حملاته عليهم ، قاسياً عليهم فى زجره كل من يذكر اسم أحد الأولياء والصالحين محاطاً بهالة من التعظيم والتقديس ، شديد المراس فى مجادلاته معهم ، فأثارهم عليه حتى أخرجوه من ديارهم ، فكر راجعاً إلى حريملا بنجد .

أقام فى حريملا فى كنف أبيه . يدعو إلى التوحيد وينادى بإبطال الدعوة لغير الله ، وأخلص لدعوته كل الإخلاص مكرساً لها قلبه ولسانه وقلمه ، وبدأ

---

(١) حسين بن غنام . كتاب روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات الاسلام ص ٣٠ .

يكتب مؤلفه المشهور (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) وقد بنى العالم الشاب كتابه على حديث صحيح للنبى صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » وإلى قوله فى حديث آخر « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة الرسول لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

استغل الشاب هذين الحديثين ليعلن أن التوسل إلى الله بالنبى شرك ، وأنه لا وساطة لنبى أو مخلوق بين الله وعباده . وكان لهذه الدعوة الجريئة صدى قوى فى إقليم العارض . فى حريملة والعيينة والدرعية والرياض ، وانقسم الناس إزاء الدعوة الجديدة فريقين ، فريق شايع آراءه وآمن بدعوته ، وعاهده على نصرته ، وفريق أنكر عليه دعوته وهو الفريق الأغلب ، اشتد بهم الحنق عليه فقاموا يريدون الفتك به ، ففر هارباً إلى العيينة مسقط رأسه .

هناك فى العيينة تبدأ دعوة الشيخ فى الذيوع والانتشار ، فقد كان نصيرها الأول أمير العيينة (عثمان بن معمر) الذى عاهد الشيخ على أن يكون سيفه المسلول ووضع جنوده رهن إشارته ، فاتفقا على العمل الذى أضرم نيران الثورة فى ربوع نجد . إذ طلب إليه الشيخ أن يهدم القباب المقامة على قبور الصحابة ويقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس ، فامتثل ابن معمر للأمر وخرج فى جمع من أصحابه وأتباعه يتقدمهم الشيخ يحملون المعاول فهدموا القباب والقبور والمساجد المقامة فى الجبيلة على قبور الصحابة وقطعوا الأشجار التى يتبرك بها الناس .

ويحدثنا المؤرخون النجديون الذين عاصروه ، كتلميذه حسين بن

غنام[1] ، أن الخرافات والبدع التى انتشرت فى بلاد العرب فى ذلك الوقت كانت تحتاج إلى مصلح حازم ، وأن الدين الإسلامى كان فى أشد الحاجة إلى حركة إصلاحية تقوم على النصح والسيف معاً ، فقد كان من الصعب اقتلاع ما اعتنقوه وأصبح لاصقاً بالدين كأساس من أسسه ، ويصف ابن غنام بعض هذه العادات فيقول إن المرأة كانت إذا ما عنست تطوف بالذكر من النخل وتلتزمه ، ثم تقول « يا فحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحلول » وأن الناس إذا مرض لهم مريض وعز شفاؤه ، ذبحوا الذبائح وذكروا أسماء الجان والشياطين عليها ، ولم يذكروا اسم الله ، ثم أخذوا أطايب هذه اللحوم وألقوها فى الفلوات زاعمين أن الجن والشياطين يأتون هذه اللحوم فيأكلونها ويتم بذلك رضاهم على المريض فيبرأ . وكانت عندهم شجرة يسمونها شجرة (الذيب) يعتقدون فيها عقائد مضحكة ويفعلون لديها أفعالا منكرة ، فالمرأة إذا ولدت مولوداً ذكراً جاءت تلك الشجرة وعلقت عليها الخرق لتدفع عن ولدها الحسد والموت ، كذلك تفعل الأرملة التى تريد زواجا ، والعاقر التى تريد ولداً ، والعانس التى تريد خطيباً . وقد حمل الشيخ محمد بنفسه على تلك الشجرة المقدسة التى كانت مزاراً للناس ومهبطاً للتمنيات والنذور ، فانهال عليها بمعوله حتى هوت إلى الأرض .

وكانوا فى الجبيلة يؤمون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة دعواتهم فأراد الشيخ التخلص من هذه القبة التى تعلو قبره ، ففاتح فى هذا تلميذه أمير العيينة قائلا « دعنا نهدم هذه القبة التى وضعت على الباطل وضل بها الناس ، فقال دونكها فاهدمها فقال الشيخ « إنى أخاف من أهل الجبيلة أن ينصروها ويوقعو بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معى » فسار معه عثمان بن معمر فى ستمائة جندى من جنوده ، فحاول أهل الجبيلة منعهم

---

(١) روضة الافهام لابن غنام ص ٢٥ .

ولكنهم رأوا أن ابن معمر جاد فى حربهم ، فكفوا عن المقاومة وخلوا بينهم وبينها . فتقدم الجميع نحو القبة ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يبدأ بهدمها حتى عثمان بن معمر نفسه تهيب الموقف ، عندئذ تقدم الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وأعمل فيها معوله فتبعه الناس وتمت تسويتها بالأرض فى وقت قصير ، وبات الناس ينتظرون ما عساه يحدث للشيخ محمد من الشر والبلاء .

أما الحادث الذى أثار القوم ، وأقام المعارضة ضده فهو أمره برجم امرأة زانية ثبت زناها بإقرارها وبشهادة أربعة أعيان ، حيث جيء بها الى الساحة وأمر الشيخ أن تشد عليها ثيابها وترجم ، وقد بدأ برجمها الأمير عثمان بن معمر ثم تبعه الراجون . سرى الخبر كوميض البرق فى البوادى والحضر ، واجتمع أهل الحسا خاصة لأنهم كانوا من أشد العرب استمتاعاً بالإباحية والفجور ومن أكثرهم تهاوناً فى الدين ، فكتب أميرهم سليمان آل محمد رئيس بنى خالد — الذى كان نفوذه يشمل بلاد العارض نفسها — إلى ابن معمر الذى كان عاملا له ، يهدد الشيخ المصلح بالقتل إذا كان لا يرجع عن غيه « فى تخريب قلوب المسلمين وإفساد دينهم » ثم عاد الأمير سليمان فكتب إلى ابن معمر يأمره بقتل محمد بن عبد الوهاب[1] . وأخيراً رأى ابن معمر أن خير طريقة تحفظ عليه منصبه ، وتخلص صاحبه هى أن يرحل الشيخ من العيينة .

رأى الشيخ أن يسير الى الدرعية معقل آل سعود ومقرهم وكان أميرها يومئذ محمد بن سعود ، ونزل على أحد تلاميذه عبد الله بن سويلم العرينى) فما سمع أهل الدرعية بوصوله حتى غص بيت عبد الله بن سويلم بأنصار الشيخ ومريديه ، وعلى رأسهم ثنيان بن سعود أخو أمير الدرعية

---

(١) ابن غنام ص ٢٢ .

محمد بن سعود ، وما لبثا أن ألحا على أخيهم الأمير أن يقابل الشيخ فتردد أولا ، فلم يجدا بداً من أن يعرضا دعوة الشيخ وتعاليمه على (موضى بنت أبي وهطان زوجة أخيهما الأمير ، فقد عهدا فيها الذكاء وأصالة الرأى ، فما سمعت منهما الأسس التي قامت عليها دعوة الشيخ حتى ارتاحت إليها وأقبلت على زوجها الأمير قائلة « إن هذا الرجل قد ساقه الله إليك وهو غنيمة ، فاغتنم ما خصك الله به » وكان لكلمة هذه الزوجة الصالحة أثر بالغ فى نفس ابن سعود فدعا أخاه (مشارى) وأمره أن يدعو الشيخ لمقابلته ، فقال مشارى مستعطفاً أخاه « سر إليه برجلك ، وأظهر تعظيمه وتوقيره ، ليسلم من أذى الناس » فسار ابن سعود الى بيت عبد الله بن سويلم ورحب بالشيخ قائلا « أبشر ببلد خير من بلادك وبالعز والمنعة » فأجابه الشيخ « وأنا أبشرك بالعز والتمكين إذا عاهدتنى على كلمة التوحيد التى دعا إليها الرسل كلهم » وتلى كلمات الترحيب عهد بين الأمير والشيخ تعهد فيه ابن سعود أن ينشر بحد السيف دين التوحيد وأن يجاهد فى سبيله ، بكل ما أوتى من قوة وجاه ، وتعهد الشيخ بأن يبقى فى الدرعية مرشداً ومعلماً ، وهكذا تحالفت القوة الروحية والقوة الزمنية ، واستعد صاحب الشوكة لحماية صاحب الدعوة ، وأباح له أن يجهر بدعوته على أن يضع تحت تصرفه قوته وجاهه وماله وآله .

كان لهذا العهد دوى هائل فى أنحاء الجزيرة العربية ، وتشجع الشيخ فتوسع فى دعوته ، وصرح بكل ما كان يختلج فى صدره ، وما كان يجمجم به لسانه فيبديه أحياناً ويكتمه أحياناً أخرى . وأصبح مطمئناً على دعوته وعلى نفسه بعد أن بايع الأمير محمد بن سعود إماماً يتبعه المسلمون وكانت هذه البيعة فى عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م)[1] .

بدأ الناس يقبلون على الدرعية من كل حدب وصوب ، منهم من يريد

---

(١) ابن بشر . عنوان المجد فى تاريخ نجد الجزء الأول ص ١٥ .

بذلك الفكاهة والتسلية ، ومنهم من يريد أن يسمع السر ليذيعه ، ومنهم الشاك الحائر ، ومنهم من يلتمس الهداية والفائدة ، وشرع الشيخ يعرض مبادئه وتعاليمه على هؤلاء وأولئك فى حجة دامغة ، ولسان فصيح . فاستجاب له أكثر أهل الدرعية وفريق كبير من الزائرين واستقرت فى قلوبهم دعوة التوحيد ، وأشرب حب الشيخ قلوبهم ، فأصبح مسموع الكلمة ، نافذ الرأى ، وأضحت الدرعية مدينة التوحيد تنبعث منها المبادىء الجديدة ، حيث أخذ الشيخ يكتب مؤلفاته القيمة ويراسل الرؤساء والكبراء داعياً إياهم لدين التوحيد . أما مجلسه فى الدرعية ، فكان مهبط الطلاب ومقصد العلماء ، وكان لأولاده أيضاً مجالس وحلقات للدرس لا تقل عن مجلس أبيهم ، وقد رأى ابن بشر بنفسه هذه الحلقات فوصفها فى كتابه قائلا « قد رأيت لهؤلاء الخمسة مجالس ومحافل للتدريس فى بلد الدرعية ، وعندهم الطلبة الكثيرون من سائر نواحى نجد ، ومن أهل صنعاء وزبير وعمان وغيرها من الأقطار [1] .

وكان الشيخ حريصا كل الحرص على أن يبين للناس أنه لم يأت لهم بجديد (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها ولله الحمد إن ربى هدانى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً . وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو إلى الله وحده لاشريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم) [2] .

وكان له ولكل من أبنائه مدرسة قرب بيته يتردد عليها الطلاب صباح مساء يدرسون فيها الحديث والتفسير والفقه والأصول ، وقد سعى الشيخ حتى أجرى الأمير على هؤلاء الطلاب نفقة مستديمة من بيت المال ، تسهيلا لهم وتيسيراً عليهم ، حتى يقبل غيرهم على الدرعية ثم يكونوا فى النهاية رسل المبادىء الجديدة فى ربوعهم وقراهم . وما لبثت هذه المدارس

(١) ابن بشر جـ ١ ص ١٢ .

(٢) مجموعة التوحيد : من الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الشيخ عبد الله الاحسائى طبعة دلهى .

الصغيرة أن أصبحت مقصد الطلاب من سائر أنحاء جزيرة العرب حتى ليحصى ابن بشر عددهم بعشرة آلاف[1] . وكان التعليم بالمجان بل كان للأذكياء جوائز من مال وكساء .

لم تكن مهمة الشيخ فى الدرعية مقصورة على التعليم فقط ، بل كان مستشاراً لمحمد بن سعود ثم لابنه عبد العزيز ، وكان فى الوقت نفسه قاضياً للدرعية . ومديراً لشئونها العلمية والدينية ومستشاراً لبيت المال فى توزيع الأعطية والمرتبات من ضرائب الأخماس والزكاة ، إذ كانت الأموال ترد الى الدرعية فيقوم الشيخ بترتيب الدخل والمنصرف وتوزيع ميزانية الدولة بما يراه موافقا للأحكام الشرعية وإنماء الدولة السعودية الناشئة . وظل قابضاً على زمام الأمور حتى نجح عبد العزيز فى الاستيلاء على الرياض ، وانقادت له نجد كلها ، فاعتزل الشيخ السياسة وعكف على نشر مبادئه فى جميع أنحاء الجزيرة العربية إذ كان جميع الأمراء المجاورين عندما تعاهد مع ابن سعود معادين لدعوته ، وكذلك كان العلماء من أهل الشيعة والسنة ، فقد رموه بالكفر والزندقة ، وعدوه خارجياً رافضياً ، وأوغروا عليه صدور العامة . أما هو فلم يلن ولم يتزعزع أمام هذه العواصف بل بقى صامداً فى وجه أعدائه واثقا بالله وبقوة ابن سعود .

وكان يعلم كنه الدعاية التى يقوم بها خصومه خارج نجد ولا سيما فى الحجاز ، فكتب إلى علماء مكة رسالة طويلة جاء فيها «نحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، أمرنا الناس بإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ... فأشاعوا أنا نسب الصالحين ، وأنا لسنا على جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، وأشاعوا عنا أموراً يستحى العاقل من ذكرها ، وأنا أخبركم بما نحن عليه ليتبين الأمر لكم وتعلموا الحقيقة »[2] .

---

(١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ ١ ص ١٧ .

(٢) من الشيخ محمد بن عبد الوهاب « الى العلماء الاعلام فى بلد الله الحرام » من مجموعة التوحيد طبع دلهى .

وكانت الدرعية خير مركز تنشأ فيه الحركة الوهابية حتى تتسع وتشيع ، وخصوصاً أنها تمتاز على جاراتها بوقوعها فى منخفض قدره خمسة فراسخ من الغرب إلى الشرق يطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض غير طريقين ضيقين لا يسع الغربى منهما مرور أكثر من جمل واحد ، فهى قلعة حصينة بطبيعتها ، وهى حصينة بنهر الباطن الذى يجرى شتاء فيخصب وادى حنيفة وينبت الفاكهة والقمح والشعير والذرة وهى خيرات تساعدها على احتمال حصار طويل[1] .

وأصبحت الدرعية بفضله أكبر مدينة فى بلاد العرب ، يؤمها الطلاب من اليمن وعمان وحضرموت والحجاز والعراق والشام ، وقد رأى ابن بشر الدرعيه فى هذا العهد وقال فى وصفها نظرت إلى موسمها وأنا فى مكان مرتفع ، وهو فى الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربيه التى لآل سعود ، المعروفه بالطريف ، وبين منازلها الشرقيه المعروفة بالبحيرى التى فيها أبناء الشيخ[2] ، ورأيت موسم الرجال فى جانب ، وموسم النساء فى جانب آخر ، وما فيهما من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ، وكثرة مايتعاطون من البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وهو مد البصر لاتسمع فيه إلا كدوى النحل الأصوات والدكاكين إلى جانبيه الشرقى والغربى . وفيها من الثياب والقماش والألبسة والسلاح مالا يوصف) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومبادؤه جديدة على الإسلام فهو يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل ومع ابن تيمية فى رجوعهم جميعاً إلى المصدر الأعلى لتلك المبادىء ، وهو القرآن الكريم ، ويتلاقى الجميع أيضاً فى نظرتهم إلى السنة فابن حنبل لايقبل من الأحاديث إلا ما أجمع عليه الأئمة

---

(١) محمد احمد حسونة ـ اصل الوهابيين وهى محاضرة القاها بقاعة الجمعية الجغرافية فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٢ .

(٢) أبناؤه حسين الذى تولى القضاء بعد أبيه فى الدرعية ، عبد الرحمن تعلم فى الازهر بمصر ودرس به بعد ذلك فى رواق الحنابلة ، عبد الله له مؤلفات كثيرة تولى القضاء بعد أخيه حسين ، على الذى برع فى التفسير والحديث والفقه ، وقد رفض أن يتولى منصبه القضاء ، ابراهيم كان ملما واستاذا لابن بشر .

وهى نفس القاعدة التى وضحها ابن عبد الوهاب فى قوله « الحق والصواب ماجاءت به السنة والكتاب والسنة فى عرف العلماء المتأخرين هى السليمة من الشبهات »[١] أما ابن تيمية فقد قام فى أواخر القرن السابع الهجرى يدعو لمبادىء ابن حنبل ، وينشر مذهبه ، ويبين أن مذاهب الأئمة كلها لاتختلف فى الحق بعضها عن بعض ، وقد ألف الرسائل فى الحديث والعبادات وزيارة القبور ، والواقع أن محمد بن عبد الوهاب ماهو إلا تلميذ لابن حنبل وابن تيمية قرأ لهما كثيراً فتشبع بآرائهما ودعا إليها ، ولكن فى صورة عنيفة ، زاد من عنفها شدة حنقه على البدع والخرافات التى انتشرت فى جزيرة العرب فى عهده . وقيام أمراء آل سعود حاملين السيف للدعوة لمبادئه بالقوة والعنف . أما هو فيعترف بأنه مدين بمعتقداته لابن حنبل أما رأيه فى ابن تيمية فيتلخص فى قوله عنه فى إحدى رسائله لست أعلم أحداً يجارى ابن يتيمه فى علم الحديث والتفسير بعد الإمام أحمد بن حنبل) ولعل مابين ابن تيمية وابن عبد الوهاب من تشابه فيما لقياه من قومهما من اضطهاد وعنت ، قد قرب ابن تيمية إلى نفس ابن عبد الوهاب ، فقد ظهر الأول فى ذلك العصر المضطرب ، عصر الحروب الصليبية فى عنفوانها ، والغارات التترية فى عنفوانها فلقيته المحن منذ طفولته ، وقد كان أبوه من كبار الحنابلة وأئمتهم ، وكذلك كان أبو الزعيم الوهابى ، فشب كل منهما يمثل قوة نزعات الحنابلة فى التشدد فى أمر البدع ، وقد كان ابن تيمية أيضاً يحارب البدع التى غيرت الإسلام فى عقائده وأحكامه عن حقيقته الأولى ، ويحارب أيضاً آثار الفلسفة فى الإسلام[٢] . وكذلك كان الوهابيون يتلقون المؤلفات التى يعتقدون أنها توقع الناس فى الشرك ، فكانوا أعداء علم المنطق وخصوصاً كتبه القديمة الممزوجة بالفلسفة اليونانية[٣] .

---

(١) محمد بن عبد الوهاب كشف الشبهات (نقله ابن غنام فى كتابه الفصل الثانى ص ٣٠) .

(٢) مصطفى عبد الرازق ـ الجانب الفلسفى لابن تيمية (نشرته مجلة الحديث ص ٧٠٨ ـ ٧١٥ عدد ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩) .

(٣) سليمان بن سحمان النجدى ـ الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية ـ الطبعة الأولى ص ٤٥ .

وأخيراً يتلاقيان فيما كان كل منهما يبذله من الجهد فى محاربة زيارة قبر النبى أو قبور الأولياء ، فقد كان ابن تيمية يعتقد أن شد الرحال إلى قبر النبى معصية . وكذلك قال ابن عبد الوهاب لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه[1] ، ولكن الوهابيين كانوا حريصين على ألا يفهم أحد أنهم يقلدون ابن تيمية أو ابن القيم وفى هذا يقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب « إن الإمام بن القيم وشيخه ابن تيمية إماما حق من أهل السنة وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين لهم فى كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم مخالفتنا لهما فى عدة مسائل منها طلاق الثلاث بلفظ واحد فى مجلس ، فإنا نقول به تبعا للأئمة الأربعة ، ونرى الوقف صحيحاً والنذر جائزاً ويجب الوفاء به فى غير المعصية[2] .

ونستطيع بعد ذلك أن نستعرض أهم المبادىء الوهابية على ضوء رسائل ابن عبد الوهاب وكتبه إلى أمراء البلاد ومشايخ القبائل وعلماء الإسلام والمؤلفات التى كتبها أبناؤه وتلاميذه الذين درسوا عليه وفهموا دعوته ، وما كتبه ملوك الدولة السعودية من الرسائل والكتب ، وما ألفه الرحالة الأجانب الذين زاروا جزيرة العرب . إبان اشتداد الدعوة الوهابية .

كان أول مادعا إليه ابن عبد الوهاب منع دعوة الأموات والاستغاثة بهم ، فهو يشدد فى النهى عن دعاء غير الله حتى ليعتبر من يدعو غير الله زائغاً عن الدين ، خارجاً على أصول دعوة القرآن والسنة ، ويعزز حكمه عليهم بالآيات والأحاديث كقوله تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً وقوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) وفى الحديث (وإذا سألت فاسأل الله وعند الوهابيين « إن من حرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد اتخذ إلها آخر

---

(١) عبد الله بن محمد عبد الوهاب ، رسالة كتبها بعد دخول الوهابيين مكة سنة ١٢١٨هـ طبعتها مطبعة المنار سنة ١٣٤٢ هـ .

(٢) سليمان بن سحمان ص ٥٣ .

فلا يجب إذن أن يدعى إلا الله وحده ، فمن دعا غير الله واستغاث بغيره فى كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر للمشرك . فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله والخلق فى جلب الخير أو دفع الشر ، ولا يجعل الله لهم من حقه شيئاً ، لأن حقه تعالى غير جنس حقهم ، فحق النبى وحق الأولياء محبتهم والترضى عنهم والإيمان بكراماتهم وليس دعاؤهم ليجلبوا خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله ، أو ليدفعوا سوءاً لا يقدر على دفعه إلا الله[1] .

فالتوحيد فى رأى ابن عبد الوهاب هو الإخلاص لعبادة الله وحده فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قوم يتعبدون ويتصدقون ويحجون ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله وشفاعتهم عنده ، فبعث الله محمداً يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد بعض حق الله لا يصلح منه شىء لا لنبى مرسل ولا لنبى مقرب[2] .

وهكذا يكفر الوهابيون كل من دعا غير الله أو سأل ميتاً واستغاث به فى قضاء حاجاته أو تفريج كربه ، وكذلك من ذبح القربان لغير الله أو سجد له أو خاف خوف السر له أو اتكل عليه أو عبده ، ولا يكتفى الوهابيون بتكفير هؤلاء فقط بل يأخذون على عاتقهم قتلهم حتى لا تكون فتنة[3] . ولا يفرق الوهابيون بين من يعبد الأصنام ومن يتوسل بقبور الأنبياء والصالحين بل كان ابن عبد الوهاب يتهم أعداءه بأن شركهم أشد من شرك الكفار ، لأن المشركين الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء أوثاناً مع الله إلا فى وقت الرخاء وأما فى وقت الشدة فيخلصون لله وحده

---

(١) عبد العزيز بن سعود . رسالة كتبها بعنوان (من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة فى الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء الشرق والغرب) .

(٢) محمد بن عبد الوهاب . كتاب كشف الشبهات نقله ابن غنام فى كتابه ص ٣٤ .

(٣) سعود بن عبد العزيز ، كتابه الى حاكم الشام يوسف باشا سنة ١٢٢٥ هـ نقلا عن تاريخ جودت الجزء التاسع ص ٣٦٢ — ٣٦٤ ، مطبعة دار الطباعة باستامبول سنة ١٢٩٢ هـ .

كما قال تعالى « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » وقوله « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه » وقوله « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » .

فمن دعا نبياً أو ولياً أوغيرهما وسأله قضاء حاجاته كان كافراً حلال الدم والمال ويستشهد ابن عبد الوهاب على صحة رأيه بأن أحداً من أصحاب النبي لم يفكر فى أن يأتى إلى قبره ليسأله ويستغيث به ، فقد نهاهم النبي عن ذلك فى قوله « لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وأن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » وكان عبد العزيز بن سعود يخشى أن يستغل المعارضون رأى الوهابيين فيرموهم بأنهم ينتقدون زيارة النبي فقال فى إحدى رسائله « إن زيارة قبر النبي مشروعة بشرط عدم فعل محظور عند القبر ، وألا يتخذ القبر مكاناً للصلاة لأن النبي نفسه لعن الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فى قوله اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وعاد فاستشهد بما قاله الإمام مالك (لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو ، بل يسلم ويمضى[1] .

يختلف محمد بن عبد الوهاب مع معارضيه أيضا فى مسألة الشفاعة فعنده أن الإنسان إذا مات موحداً استشفع الله فيه نبيه ، فيجب أن يدعو الإنسان الله أن يشفع فيه النبي . فثار عليه الناس وقالوا هذا منطق مقلوب . فرد عليهم يقول (أنا لا أنكر الرسول ولا أتبرأ منه بل هو الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى « قل لله الشفاعة جميعا » ولا تكون إلا منه بعد إذنه كما قال « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ، فالنبي لا يشفع فى أحد حتى يأذن الله فيه .

---

(١) أحمد بن ناصر عثمان النجدى ، الفواتح العذاب فى الرد على من لم يحكم السنة والكتاب (وهو الذى أرسله عبد العزيز بن سعود الى مكة سنة ١٢١١ هـ بناء على طلبه شريف مكة ليناظر علماء الحرم الشريف !

وقد قال أيضا « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » وهو لا يرضى إلا التوحيد فاذا كانت الشفاعة كلها لله . ولا تكون إلا بعد إذنه، ولا يشفع النبى فى أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن بالشفاعة إلا لأهل التوحيد تبين أن الشفاعة كلها لله .

ويرد الشيخ على من يقول أن الله أعطى الشفاعة لمحمد ونحن نطلبها منه قائلا « أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهانا عن طلبها منه عندما قال تعالى: ولا تدعو مع الله أحدا[1]) . ويشتد الجدل بينه وبين معارضيه فيعترضون عليه بأن الشرك عبادة الاصنام؟ فيرد عليهم قائلا : وما عبادة الأصنام؟ أتظنون بأن عباد الأصنام كانوا يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها . انما كان أولئك يقولون انها تقربنا إلى الله زلفى وتدفع عنا غضب الله ببركتها ، ولا فرق بين مايفعله عباد الأصنام ، وهؤلاء الذين يقفون عند الأحجار والبناء الذى على القبور وغيرها ففعلهم هو عبادة الأصنام

تلك هى وجهة نظر الشيخ محمد عبد الوهاب ، فى تفكير أولئك المتوسلين بقبور الأولياء والصالحين .

فالتوحيد عنده لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شىء من هذا لم يكن الرجل مسلما فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، فان عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه فهو منافق « وهو فى نظره شر من الكافر الخالص[2] .

فالوهابيون يقولون إن الفرق بيننا وبين أعدائنا فى مسألة الشفاعة أنا نقول « اللهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة ، أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين ، أما اعداؤنا فيقولون « يارسول الله أو ياولى الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغثنى او أشفنى او انصرنى على عدوى ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه غير الله ، وذلك شرك أكبر ، قاتل عليه رسول الله .

(١) مجموعة التوحيد ص ٤٦ طبعة دلهى .
(٢) ابن غنام ص ٢٧ .

أما التوسل كأن يقول القائل «اللهم إنى أتوسل اليك بجاه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بحق عبدك فلان ...الخ» ، فهذه بدعة مذمومة ، ويتفق محمد بن عبد الوهاب مع ابن تيمية فى تقسيم التوسل إلى ثلاث درجات :

الأولى — أن يأتى المرء الى قبر نبي أو ولى أو مايعتقد أنه قبر نبي أو رجل صالح ويسأله حاجته فى مالا يقدر عليه إلا الله[1] ، فهذا شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه ، فإن تاب كان بها وإلا قتل .

الثانية — أن يطلب المرء من النبي أو اولى أو الشيخ الصالح أن يدعو له كأن يقول : ادع لى كما كان الصحابة يطلبون من النبي الدعاء ، هذا مشروع فى الحى لا فى الميت من الانبياء والصالحين .

الثالثة — أن يقول المرء : اللهم بجاه فلان عبدك أو ببركة فلان أسألك كذا وكذا ، وهذه أخف الدرجات .

تلك هى درجات التوسل الثلاث ، الأولى منها هى الشرك الصحيح فيحل ابن تيمية وابن عبد الوهاب قتل صاحبه ان لم يتب ، أما الدرجتان الاخريان فلا يجوز قتل من عد توسله منهما .

وعندما قامت الدولة السعودية الأولى تدعو للمبادىء الجديدة ، كان أمراؤها حريصين على أن يبينوا للمسلمين فى مختلف أقطـــار الأرض أسس دعوتهم .

وقد لخص سعود الكبير مبادىء الوهابيين فيما أرسله إلى يوسف باشا حاكم الشام ، قال[2] « يقيننا الذى نحن عليه ، وندعو الناس إليه ، هـــو الإخلاص لعبادة الله وحده ، فلا تذبح القربان إلا لله ، ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه ، وأننا نتبع الرسول صلى

---

(١) ذكر ابن تيمية ان شفاء الامراض والنصر على الاعداء وغفران الذنوب وتعلم القرآن واصلاح القلوب ، كلها من الامور التى لا يجوزان تطلب من غير الله .

(١) تاريخ احمد جودت ، الجزء التاسع ص٢٦٢ — ٢٦٤ ، مطبعة استنبول سنة ١٢٩٢ هـ باللغة التركية .

الله عليه وسلم ، وتوجب طاعته على جميع المكلفين ، ونستن بسنته ، ونهتدى بهداية الله . ولا نعبد إلا الله ولا نتقرب إلا إليه . . . . فمن دعا غير الله واستغاث بغيره فى كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر المشرك .... وأول ما ندعو الناس إليه أن من استغاث بالله وحده وأخلص له العبادة ، وعمل ما فرض عليه فهو أخونا المسلم ، له ما لنا ، وعليه ما علينا ، ومن لم يصنع ذلك بل أقام على شركه كفرناه وقاتلناه كما أمرنا الله بذلك ، وننهى عن المنكر من الزنا والسرقة وشرب الخمر والحشيشة وما يشاكلها ، وأكل أموال الناس بالباطل ونأخذ الحق من القوى للضعيف وننصف المظلوم من الظالم ، وننهى عن سائر المنكرات ونزيل البدع السيئات المحدثات ومن لم يفعل ذلك لم يعصم دمه وماله ، ومن فعل ذلك فهو مسلم لله ، له ما للمسلمين » .

أما البدع السيئات التى يشير إليها سعود الكبير فمنها إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، والأدعية الفاسدة . والأذكار التى لم ترد عن صاحب الشريعة ، ويؤكد الوهابيون أن النبى نفسه نهى عن البناء على القبور بدليل ماروواه مسلم عن أبى الهياج الأسدى ، قال على ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفا إلا سويته .. »

وأنه نهى أيضا عن أن يجصص القبر أو يكتب عليه ، وأنه لعن من أسرج بها المصابيح أو القناديل حيث قال (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وأنه ندد بأولئك الذين يذهبون الى قبور الأنبياء والأولياء فيستغيثون بهم ويسجدون عند قبورهم وينذرون لهم فى قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالوهابيون اذن لا يدعون فى هذا الى مبادىء جديدة على الاسلام ولكنهم يدعون الى الأصلاح والعودة الى القرآن فى نقائه لكنهم يبالغون فى معارضة كل ما يعتقدون أنه

بدعة مكروهه ، كالتزين بالحلى والجواهر ، وشرب الدخان ومايشبهه .

لم تكن الحركة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب ديناً جديداً كما ظن بعض المؤرخين الأوربيين ، ولم تكن مذهباً جديداً فى الإسلام كما ظن الأتراك وشاع بين المسلمين من الحجاج ، ولكن تتلخص تلك الحركة فى أن محمد بن عبد الوهاب كان رجلا من رجال الإصلاح الدينى ، وجه جهوده لإصلاح ما أفسده الجهل فى الجزيرة العربية وتقويم ما أعوج من سلوك العرب فى نجد ونشر المبادىء الإسلامية فى نقائها وبساطتها .

ولكن أغلب الناس أساءوا فهم ابن عبد الوهاب كما يحدث دائماً لكل مصلح دينى أواجتماعى . أساء فهمه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء فإن أغلب أتباعه تغالوا أشد المغالاة فى تكفير المسلمين ففيهم فئة كبيرة من البدو الذين اعتنقوا مبادىء ابن عبد الوهاب ، كانوا لايفهمون الإسلام على حقيقته ، ومن ثم لم يدركوا دعوة الشيخ على حقيقتها واعتقدوا أن الإنحراف القليل عن تعليماته وآرائه ، كفر وزندقة ، وبذلك أصبح أغلب المسلمين ممن يخالفونهم كفاراً يحق قتلهم .

أما أعداؤه فقد ظنوا أنه أتى بمذهب جديد فى الإسلام ، يقلل من واجب التقديس والتبجيل نحو النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أعتقد هؤلاء بدورهم أن الشيخ مبتدع ، وأن أنصاره كفار .

وقد إزداد هذا الاعتقاد رسوخا بسبب الدعاية التى كان ينشرها الشريف غالب أمير مكة بين الحجاج وأمراء الحج ضد تلك الحركة ، وما كان يذيعه الحجاج أنفسهم عند عودتهم إلى وطنهم من إشاعات وأنباء مثيرة بعثت الهلع فى نفوس الراغبين فى الحج .

وقد أعتاد الولاة العثمانيون فى بغداد ودمشق والقاهرة أن يبالغوا فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها الحجاج من الوهابيين ، والأخطار التى تتعرض

لها قوافل الحجاج ، وذلك لكى يبرروا موقفهم إذا فشل جنودهم المرافقون للمحامل فى حماية الحجاج من قطاع الطرق ، بل إن من هؤلاء الولاة من كان يتمنى عدم سفر المحمل الذى كان يكلفهم كثيراً من النفقات[1] لذلك كله أعتقد المسلمون فى أنحاء الشرق أن الحركة الوهابية قد جاءت بتعاليم جديدة تخالف أحكام الإسلام .

إن من يدرس تاريخ نجد بخاصة وتاريخ بلاد العرب بعامة قبل ظهور الحركة الاصلاحية الكبيرة ، ليجد أن حالة هذه البلاد كانت تستدعى قيام نهضة إصلاحية واسعة النطاق ، تجتث جذور الفتن والخرافات التى شاعت فى الجزيرة العربية واذا كان الوهابيون قد حملوا مخالفيهم على قبول آرائهم بالسيف والنار ، وأكرهوهم بالقتال على الدخول تحت رايتهم وطاعتهم ، فما ذلك إلا لأنه لا سبيل إلى إصلاح هؤلاء القوم إلا بالقوة والجبروت ، فقد كان العرب فى ذلك العصر فى حالة من التأخر والجهل والفوضى يصعب معها التفاهم بالحجة والاقناع ، وكانت نجد على وجه الخصوص فى عزلة عن العالم ، والعالم فى عزلة عنها ، فما كانت سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجدبة ، وما كان أهلها سوى أعراب وزراع يجهلون طرق المعيشة الصحيحة كل الجهل ، ولا يعرفون أصول الدين الصحيح ، آمنوا بالخرافات البدع ، وبعدوا بالاسلام عن تعاليمه الأولى ومبادئه السامية . وارتكبوا ما أثرنا اليه مما ثارت له نفس محمد بن عبد الوهاب من تعظيم الاحجار والاشجار والقبور وأصحاب القبور ، فكانت عقلية المسلمين هناك عقلية عجيبة ضيقة ، فقبور الأولياء والصالحين تمتلىء بزائريها ، يذرفون فوق ترابها دموع الندم والاستغفار ، متوسلين بأصحابها ، راجين منهم العفو والغفران والشفاعة ، مريقين دماء الهدايا والقرابين ، مقدمين النذور المختلفة ، وكانت بعض المخلوقات الحافية العارية يتخذها الناس أولياء الله المقربين ، يعلمون الغيب ، ويملكون الحياة والموت ، فلم يكن أمام السعوديين إلا دعوة هؤلاء الى الرجوع إلى

(1) Burckhardts Notes. P. 276.

القرآن الكريم وتنقية الدين من مثل هذه الأدران والخزعبلات ، ولكنهم كانوا يدركون أنهم ان يستطيعوا أن يغيروا ما بهؤلاء القوم بالوعظ واقامة البرهان فحسب ، بل لابد من تحكيم السيف أيضا ان عز الاقناع ، ولم تنفع الحجة . لذلك كانت رسائلهم الى القبائل تسبق جيوشهم تقول « القرآن فى يد والسيف فى الاخرى »[1]

وهكذا أخذت الدعوة تزحف من الدرعية ، نحو بلاد نجد الأخرى ، حتى إذا نجحت فى نجد نجاحا كبيراً ، خرجت من هناك قوية معتدة بنفسها نحو العراق والحجاز ، ثم رنت بعد ذلك نحو التوسع والامتداد فطمعت فى الشام وأغلب الظن أنه لولا أن المصريين والأتراك اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لاعهد لاهل نجد بها ، لكان من المرجو أن توحد هذه الدعوة كلمة العرب فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم فى القرن الأول .

وقد أفادت نجد من هذه الثورة الدينية القوية ، فأصبح لها شأن يذكر ، وتاريخ يدرس ، وهناك ظاهرة يلحظها المؤرخون حتى النجديون منهم ، أن بلاد نجد منذ أن قبلت الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا الى عهد هذه الدعوة لم يظهر فيها عالم واحد من العلماء المنتجين ، فقد كانت طوال هذه القرون تعيش عيشة الأعراب والزراع والرعاة وما كان الخلفاء ولا الأمراء يهبونها شيئا من عنايهم ، وذلك لجدب بلادهم وفقرها الطبيعى ، ولم يظهر من بينهم طوال هذه القرون زعيم يجتمعون حوله فيسمو بهم الى مصاف الشعوب الحية ، فلما قامت الحركة الوهابية أحدثت ثورة عنيفة فى أفكار النجديين ، وبعثت بلاد العرب عامة من مرقدها وأطلقت الأذهان من عقالها . فكثر المؤلفون والمنتجون ، وأصبحت الدرعية كما وصفناها منبع الحركة الاصلاحية الجديدة .

---

(1) Jean Raymond : P. 7.

العرب والبحار

للدكتور سيد اسماعيل الطائف
الأستاذ بقسم التاريخ

نتائج الفتوحات الإسلامية :

امتدت الفتوح العربية الإسلامية منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فى سنة ١١ هـ ٦٣٢ م) حتى أواخر العصر الأموى أى مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضى التى يسيطر عليها العرب تمتد إلى الهند والصين شرقا ، وإلى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات غربا .

ولم يكن فتح العرب فتحا حربيا وسياسياً فقط وإنما كان فتحا لغويا أيضاً ، إذ انتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة بحكم استيطان العرب فيها ، ولا ننسى هنا فضل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٤ — ٧٠٥ م) الذى بدأ بتعريب الإدارة فأمر بجعل اللغة العربية لغة الدواوين المحلية فى كافة البلاد التابعة للعرب ، كما لاننسى أيضاً فضل الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هجرية ٨١٣ ٨٣٣ م الذى نشطت فى عهده حركة الترجمة ونقل العلوم إلى العربية فعرب بذلك الحركة الفكرية والعقلية . كذلك كانت فتوحات العرب فتوحات عنصرية إذ اندمج العرب فى شعوب البلاد المفتوحة ، فتأثر العرب بالعناصر المختلفة (من الأمم والشعوب فى البلاد المفتوحة) كما تأثرت تلك العناصر بالعرب .

ولا ننسى أيضاً الفتح الدينى اذ انتشر الإسلام فى البلاد المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المقام هنا لبحثها .

هل كانت فتوحات العرب فى البداية برية أو بحرية ؟

وكان العرب فى بداية فتوحاتهم لا يرغبون فى مواجهة البحر . حقاً ان أهل بلاد العرب الجنوبية فى ممالك معين وسبأ وحمير بإقليم اليمن استغلوا موقعهم الجغرافى على البحر الأحمر والمحيط الهندى منذ الألف الثانى قبل الميلاد . فلم يكتفوا بالاتجار فى حاصلاتهم الشخصية من اللبان والعطور والطيب والتوابل والبخور، بل كانوا يتجرون أيضاً فى ما يرد إليهم من خليج العجم والهند والصين ، كاللؤلؤ والمنسوجات والسيوف والحرير والعاج والذهب وريش النعام . أى أنهم اشتغلوا بنقل التجارة بين مواطن المدنيات القديمة فى الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام . وكانت سفنهم تمخر عباب البحر الواقع جنوبى شبه جزيرة العرب والذى أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربى .

ولكن نشاط العرب الجنوبيين الذى امتد منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد تقريباً حتى أوائل القرن السادس الميلادى كان قد اعتراه الضعف ، وتبع ذلك الضعف سقوط المدنية العربية الجنوبية ، ونتج ذلك الضعف والسقوط عن عدة عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية كان أهمها نجاح الرومان ثم البيزنطيين فى القضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق ، ثم انتشار اليهودية والمسيحية ، والنزاع بين أصحاب هاتين الديانتين الذى أدى إلى تسرب السيادة الأجنبية فى بلاد العرب الجنوبية على يد الأحباش والفرس، فضلا عن الشيخوخة الطبيعية التى آلت إليها الملكية فى اليمن .

ومهما يكن من أمر فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحريا . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن فى القرآن الكريم مواضع شتى

يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) . أما البحر فقد جاء وصف أحواله فى سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)[1] .

ولم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو فى خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب . وقيل إن أول من ركب البحر للغزو فى الإسلام ، العلاء بن الحضرمى ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ، إذ ندب أهل البحرين — وكان أميراً عليها — إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة . فغرقت سفن المسلمين ، وغضب عمر على العلاء ، وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه .[2]

خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحار :

وتحدثنا الروايات التاريخية المختلفة عن خوف عمر بن الخطاب من البحر وأنه كان لا يحب أن يفصل الماء بينه وبين جنوده . ولا شك أن تلك الروايات لها ما يؤكدها إذ أن العرب اختاروا حواضر البلاد المفتوحة بعيداً عن البحار . وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم أن يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها ، وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين

---

(١) راجع مقال الاستاذ هربرت جانسكى عن « البحر فى تاريخ المسلمين وثقافتهم » وقد نشر فى كتاب . Hans Mzik: Beitrage zur historischen geographie (Leipzig 1929)p. 42.

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢١٢ — ٢١٣ (الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

ماء ؟ قال : نعم يا أمير المومنين إذا جرى النيل . فكتب عمر إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول المـــاء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » . فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط .

وقيل كذلك إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط.[1] .

وقيل كذلك إن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب كتابا فى غزو البحر يرغبه فيه ، ويقول « يا أمير المومنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ولكن عمر بن الخطاب لم يستجب لذلك النداء بل كتب إلى عمرو بن العاص « أن صف لى البحر ثم اكتب إلى بخبره فكتب إليه يا أمير المومنين : إنى رأيت خلقا عظيما يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، وإنما هم كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق »[2] .

ولما جاء الخليفة كتاب عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية بن أبى سفيان « والذى بعث محمداً بالحق لا أحل فيه مسلماً أبداً » وكان مما جاء فى كتاب الخليفة إلى معاوية : « . . . وتا الله لمسلم واحد أحب إلى مما حوته الروم فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك ، وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (نيوهافن ١٩٢٢) ص ٩١ ، المقريزى : الخطط (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ٢٩٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ج ١ ص ٥٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٥١ ـ ٥٢ .

أتقدم إليه فى مثل ذلك ، وقيل إن عمر قال : « لا يسألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبداً ! ! » .

وليس هناك من شك فى أن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣ هـ = ٦٣٤ — ٦٤٤ م كان يمثل سكان مكة و معظم شبه الجزيرة العربية فى تخوفه من ركوب البحر ومن الغزوات البحرية .

لماذا ركب العرب البحار ؟

لكن مالبث العرب أن غيروا سياستهم هذه ، إذ أملت عليهم الحكمة والسياسة ، ارتياد البحر ، والغزو ، والمغامرة فيه ، ذلك أن الأراضى التى بسط العرب سلطانهم عليها ، لم تكن تتلاقى عندها الطرق البرية التى تربط بين آسيا وأفريقية ، وأوربة فحسب ، وإنما كانت تشرف على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والبحر الأحمر والخليج العربى ، والمحيط الهندى . وإلى جانب هذه الطرق البرية والبحرية كانت تنتشر المجارى المائية مثل نهر النيل ، ونهر دجلة والفرات التى كانت تربط بين أجزائه . ولم يكن من المعقول أن يعزل العرب البلاد التى تقع على شواطىء البحار عن منافذها الطبيعية . كذلك بعد أن سيطر العرب على تجارة البحر المتوسط والبحر الأحمر ، لم يكن من الطبيعى أن يهملوا العلاقات الاقتصادية مع بلاد البحر المتوسط وبلاد البحر الأحمر ، أو مع الشرق الأقصى . على أن أهم ما دفع العرب إلى التحول نحو البحر ، هو حاجتهم للدفاع عن الأملاك الجديدة التى كسبوها . حقاً ان العرب نجحوا نجاحاً عظيما فى بسط سلطانهم ، وفى امتلاك البر ، إلا إن البحر كان لا يزال فى قبضة أعدائهم ، لذلك رأى العرب أن لابد لهم من الاتجاه نحو البحر ، وكان هذا طبيعياً كما ذكرنا عندما اتسعت إمبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمماً بحرية ، وعندما اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية .

عثمان بن عفان والبحر :

ولم يترك البيزنطيون للعرب فرصة طويلة للتردد فى اقتحام البحر ، فسرعان ما أغاروا على الاسكندرية من البحر ولما يمض على فتح العرب لها سوى أربعة أعوام . إذ أرسل الامبراطور قنسطانز الثانى فى سنة ٢٥هـ (٦٤٥ م) أسطولا كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر إجلاء تاما . وفعلا تم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية ، وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى أو اوجه البحرى ، وتحرج مركز العرب فى مصر . وكان الوالى إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان . وأرسل أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم ، وفعلا تم إجلاء البيزنطيين ، أى الروم ، عن مصر على يديه[1] » .

ولا شك أن تلك الظروف هى التى جعلت معاوية بن أبى سفيان يفكر فى إنشاء أسطول فى الشام . إذ أدرك معاوية ضعف سلطانه على سواحل الشام أمام قوة أسطول بيزنطه القريب من شواطئها . ورأى معاوية كيف استطاعت — أرواد تلك الجزيرة الصغيرة التى تقع شمال طرابلس الشام — أن تصمد للمقاومة ، وألا تسلم لمعاوية إلا بعد وقت طويل من خضوع بقية الشام . ولذا نرى معاوية — الذى يعتبر بحق أمير البحر الأول فى الاسلام — يتجه إلى تنظيم أسطول بحرى ، ويحاول للمرة الثانية أن

---

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٧٥ — ١٧٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦ م) ص ٢٢١ ، وتاريخ اليعقوبى (طبعة هوتسما ليدن ١٨٨٣) ج٢ ص ١٨٩ ، الكندى . كتاب الولاه وكتاب القضاة ، (طبعة بيروت ١٩٠٨ م) ص ١١ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤ م) ج ٣ ص ٦٢ ، المقريزى : خطط ج ١ ص ١٦٧ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م) ص ١٦ .

ينتزع موافقة الخليفة وهو آنذاك عثمان بن عفان ، للخروج بالعرب للغزو فى البحر المتوسط والسير إلى قبرص ، وأذن له عثمان ، فى تردد ، وبشروط إذ كتب إليه فى ذلك : « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه »[1] .

كذلك شرط الخليفة أن يستصحب معاوية زوجه معه وكتب إليه يقول : « إذا ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا[2] .

وجمع معاوية بن أبى سفيان عددا كبيراً من سفن مدن الشام الساحلية ومن مصر . ويذكر الواقدى أن فرق مصر المحاربة كان عليها عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، فلما التقوا بمعاوية أصبح الجميع تحت قيادته . وكان غزو قبرص فى سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) ويذكر مؤرخو العرب أن الأسطول الذى هاجم قبرص بلغ ٧٠٠ سفينة وأنه استولى على الجزيرة بسهولة ، كما استولى على غنائم كثيرة ، وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٠٠٠ أو ٧٢٠٠ دينار تدفع إلى المسلمين .

وأورد الطبرى شروط الصلح فقال : إن صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة ويؤدون الى الروم مثلها ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك على أن لا يغزوهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ، وعلى أن يبطرق إمام المسلمين عليهم منهم »[3] .

والواقع أن غزوة قبرص التابعة لبيزنطه ، كانت غارة بحرية كما كانت عملا دفاعياً . ولا شك أن اهتمام معاوية بقوة بيزنطه يظهر من الشرط الوارد فى معاهدة قبرص ، وهو تعهد أهل قبرص بإبلاغ العرب عن أية

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م) ص ١٥٩ — ١٦٠

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٥٣ ، وقارن : البلاذرى : فتوح البلدان (طبعة القاهرة) ص ١٥٩ — ١٦٠ .

استعدادات يقوم بها البيزنطيون ضدهم ، وهذا الشرط هو الذى ذكره الطبرى بقوله « وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم » .

والواقع أن العرب بدءوا معاركهم البحرية الأولى منذ خلافة عثمان ابن عفان (٢٤ — ٣٥ هـ = ٦٤٤ — ٦٥٥ م) وهم مترددون من أهوال البحر ومخاطره . وكانت غزوة قبرص سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) فاتحة لسياسة الفتح العربية البحرية . وما لبث أن تمت هذه السياسة البحرية بسبب اشتباك البيزنطيين مع العرب فى الموقعة البحرية الذائعة الصيت التى أسماها العرب معركة ذى الصوارى . ذلك أن البيزنطيين بقيادة امبراطورهم قنسطانز قدموا لغزو الاسكندرية فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) فى عدد ضخم من المراكب وخرج الأسطول المصرى لمقابلتهم بقيادة أمير البحر الثانى فى الإسلام وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح وأرسل معاوية والى الشام حينذاك أسطولا تحت إمرة بسر بن أبى أرطاه ، للاشتراك مع الأسطول المصرى فى صد الروم . وحدث فى هذه الموقعة مايشبه المعجزة إذ انتصر العرب انتصاراً باهراً على البيزنطيين رغم قلة سفنهم ، ورغم حداثتهم فى حرب البحار . والحق أن هذه المعركة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ووصفها المؤرخ اليونانى ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانياً على الروم . وسميت هذه المعركة باسم ذى الصوارى لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها . وتسمى فى الكتب الأوربية واقعة فونيكه Phoenicus .

وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غرب الإسكندرية . ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoenix (١) .

---

(١) راجع عن موقعة ذى الصوارى : خطط المقريزى ج ١ ص ١٦٩ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٦٨ — ٧٠ ،

M. Canard : Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926), Theophanes, pp. 332, 345-346, Constantine Porphyrogenitus, in J.P. Maigne Patrologia Graeca, Vol. CXIII (Paris 1894).

والدكتور زكى محمد حسن ، مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ مايو ١٩٤٤ ، سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ص ٩٤ — ٩٦ .

كان لتوفيق العرب فى قبرص ، ثم لانتصارهم فى دى الصوارى آثار بعيدة المدى ، إذ أيقظت هذه العمليات البحرية روح المخاطرة فى البحر لدى العرب وكذلك جعلتهم يحذرون البيزنطيين ويحتاطون منهم وبدأت بذلك مرحلة من النشاط البحرى للعرب .

من وما الذى ساعد العرب فى سياستهم البحرية ؟

وكان طبيعياً أن يستخدم العرب فى غزواتهم البحرية شعوب البلاد التى فتحوها ، والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم . ففى مصر أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين أيما إفادة . إذ أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم «الصناعة» يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . ونرى المقريزى يعقد فى كتابه الخطط [1] فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما يشير فى مواضع أخرى من هذا الكتاب [2] إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتلهم . وسميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى احيانا «جزيرة مصر» [3] ولكننا نرجح أن الصناعة أنشئت فى مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ . ولا شك أن الذى ساعد العرب على خوض البحار امتلاكهم دور الصناعة والسفن الحربية والتجارية التى كانت لدى مصر والشام حين الفتح . فكانت السفن إما موجودة أو سهلة الإنشاء . كذلك انتفع العرب بخبرة الملاحين

---

(١) خطط المقريزى : ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) الخطط : ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) .
Maspero et Wiet : Matériaux pour servir à la Géographie d'Egypte, p. 68; et G. Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicaaum. Egypte II, pp. 197-199.

والصناع من أهل البلاد . وليس ببعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدءوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٤ — ٣٥ هـ) وكان اشتباك البيزنطيين مع العرب فى البحار من أكبر الدوافع التى جعلت العرب يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم . ويذكر البلاذرى[١] أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الإسلامية ، وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٤ — ٧٠٥م) بعث إلى حسان بن النعمان عامله على أفريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية . وكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يحروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب[٢] .

ولا شك أن اهتمام عبد الملك بن مروان بالقوة البحرية اهتماماً شديداً يرجع إلى ما نالته الدولة العربية على يد بحرية البيزنطيين . إذ ثار البربر فى وجه العرب واستندوا إلى مساعدة البيزنطيين البحرية الذين ظلوا يهددون العرب من البحر إلى أن نجح حسان بن النعمان فى تخريب قرطاجنة وإنشاء قاعدة بحرية أمينة فى تونس[٣] . وقوى مركز العرب فى شمال أفريقية بعد اهتمامهم بالبحر وبناء السفن . والواقع أنه منذ ولاية حسان بن النعمان الغسانى على أفريقية (٧٣ — ٧٩ هـ ٦٩٣ — ٦٩٩ م) أصبح شمال أفريقية مركزاً بحرياً

---

(١) فتوح البلدان : (طبعة ليدن) ص ١٧٧ .

(٢) ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧م) ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) انظر : ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار المغرب ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ (مكتبة صادر بيروت) وحسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٦٠ — ٢٦١ (القاهرة ١٩٤٧)

ثالثاً أضيف إلى المركزين العربيين فى مصر والشام . وحصن العرب قاعدتهم البحرية فى شمال أفريقية باستيلائهم على جزيرة قوصرة التى تقع قرب الشاطىء الأفريقى [١] وبسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطىء الأفريقى وجزيرة صقلية [٢] .

وحين ولى موسى بن نصير أفريقية أشرف على بناء سفن جديدة أرسلها للإغارة على صقلية وسردانية (سردينية) وجزر البليار . ولا شك أن غارات موسى على تلك الجزر فى الوقت الذى كان يعمل فيه لفتح المغرب إلى المحيط الأطلسى ، كان الغرض منها أن يشل موسى بن نصير حركات الأسطول البيزنطى من قواعده فى صقلية وسردينيه وجزر البليار ، حتى لا يقع فيما وقع فيه عقبة بن نافع قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً حين دفع حياته وحياة جيشه ثمناً لأنه لم يكن له أسطول أو قاعدة بحرية . ويتضح من المصادر المختلفة ، ومن الأوراق البرديه التى ترجع إلى العصر الأموى فى مصر ، أن صناعة بناء السفن فى مصر العربية كانت متقدمة إلى حد كبير وأن الصناعة كانت فى جزيرة الروضة [٣] وفى القلزم [٤] أى السويس الحالية وفى الإسكندريه [٥] . وكان ولاة مصر يرسلون الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب [٦] أو أسطول المشرق [٧] وذلك للمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية . ولم تكن السفن التى تصنع فى مصر

---

(١) هى جزيرة صغيرة بالبحر المتوسط تبعد عن شواطىء افريقية بنحو ستين كيلومترا وأراضيها جبلية خصبة السهول وتتبع ايطاليا وتعرف باسم Pantellaria أما اسمها القديم فكان Csoyra ومنه اشتق اسمها لدى العرب (انظر : اسمعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ هامش صفحة ٤٠٦ المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١٢ هـ) .

(٢) انظر : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة احمد محمد عيسى) (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠١ .

(٣) Bell : (Der Islam, Vol. IV) p. 92.

(٤) Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 277.

(٥) Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 280.

(٦) Bell : (Der Islam, Vol. II) p. 279.

(٧) Bell : (Der Islam, Vol. XVII) p. 68.

وغيرها من بلاد الدولة الإسلامية معدة للحرب والجهاد فقط بل كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية ، فضلا عن السفن النيلية والنهرية التى كانت تستخدم كثيراً للنقل والتجارة .

محاولات فتح القسطنطينية زمن معاوية بن أبى سفيان وسليمان بن عبد الملك :

ولم يكن نشاط العرب فى غزو البحار مقصوراً على دفع الغارات البيزنطية البحرية ، أو الهجوم على الجزر التى تتخذها الدولة البيزنطية قواعد للهجوم منها على أملاك الدولة العربية وإنما أراد العرب أن يتموا ما بدأه أبو بكر وعمر ، فحاولوا القضاء على الدولة البيزنطية وغزوها فى عقر دارها براً وبحراً .

وكان من أمر الفتن الداخلية ما كان عقب مقتل عثمان . ورأى معاوية ابن أبى سفيان أن من مصلحته أن يساوم الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ — ٦٦٨ م = ٢١ — ٤٨ هـ) على الصلح ، وأن يؤدى إليه جزية سنوية ، وكان ذلك فى سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ — ٦٥٩ م) وذكر هذه الجزية المؤرخ ثيوفانس وأشار إليها البلاذرى إشارة سطحية . لكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة على المسلمين امتنع عن دفع الجزية للإمبراطور البيزنطى واستأنف الهجوم ضد البيزنطيين براً وبحراً وكاد يصل مرتين إلى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها . وتذكر المراجع المختلفة أن الفضل فى إنقاذ القسطنطينية من أيدى العرب كان للنار الإغريقية . وكانت هذه النار شديدة الاشتعال بحيث تلتهب على سطح الماء [1] .

ولم يتسرب اليأس إلى نفوس العرب بعد هزيمتهم مرتين أمام أسوار

---

(١) أنظر عن النار الاغريقية .
Zenghlis, C. : "Le Feu Greçois" in Byzantion (1932) VII, 265-88.

القسطنطينية . فنرى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك يجهز حملة عظيمة لغزو القسطنطينية ولكنه مات قبل أن يسيرها . فتولى أمر تلك الحملة خليفته سليمان بن عبد الملك . وحوصرت القسطنطينية بقيادة أخ الخليفة مسلمة ابن عبد الملك (٩٨ — ١٠٠ هـ = ٧١٦ - ٧١٧ م) وكان هذا الحصار أشهر حصار لكثرة ما ذكر عنه فى التاريخ . وساعد الأسطول المصرى أسطول الشام فى الحصار كما كان يحدث فى معظم العمليات البحرية ولكن سر النار الإغريقية كان لا يزال مجهولا لدى العرب واستطاع الأسطول البيزنطى أن يتفوق على الأسطول الإسلامى ، وأن يرد العرب عن القسطنطينية .

الدولة العربية والبحر الأحمر والمحيط الهندى :

ولم تتركز مغامرات العرب البحرية فى البحر المتوسط ، وإنما ارتاد العرب كافة البحار التى أصبحت أراضيهم تطل عليها والتى تصلهم بغيرهم من الأمم . ويروى البلاذرى[1] أن عتبة بن غزوان حين فتح الأبلة[2] كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك ويخبره أن الأبلة فرضة البحرين وعمان والهند والصين .

وذكر المسعودى[3] أن خالد بن الوليد حين فتح الحيرة زمن أبى بكر ، خاطب عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى وقال له ماتذكر ؟ ! قال : « أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون » .

---

(١) فتوح البلدان . ص ٢٤٩ (القاهرة ١٣١٩ هـ و ١٩٠١ م)

(٢) الابلة بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة وهى اقدم من البصرة لان البصرة مصرت أيام عمر ابن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩ — ٩٠ الطبعة الاولى طبع مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ) ويقول جلاز : ان ابولوجوس Apologus هى الابلة Ubulum عند العرب وفى النقوش الاكادية . ولم تكن بعيدة عن مدينة المحمرة وهذه تبعد نحو ٧٥ كم. عن شاطىء الخليج الفارسى .

Glaser, E. : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Vol. 2. pp. 188-189. Berlin, 1890.

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢ (طبعة مصر سنة ١٣٤٦ هـ) .

وأشار المؤرخون الصينيون[1] إلى الدين الإسلامى أو الدين الجديد فى «مملكة المدينة» وذكروا مبادىء الإسلام قائلين إنها تختلف عن مبادىء بوذا ، وإن أتباعها لا تماثيل فى معابدهم ولا أصنام ولا صور ، وأضافوا إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين قدموا إلى «كنتون» فى فاتحة أسرة «تانج» التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ - ٩٠٥ م قبل الهجرة بأربع سنوات إلى ٢٩٣ هـ) ، وحصلوا من امبراطور الصين على الإذن بالبقاء فيها . واتخذوا لأنفسهم بيوتاً جميلة تختلف فى طرازها عن البيوت الصينية . وكانوا يطيعون رئيساً ينتخبونه من بينهم[2]. وأكبر الظن أن وصول الإسلام بحراً إلى الصين كان أسبق من وصوله براً ، وذلك على يد تجار ساروا فى الطريق البحرى الذى كانت تتبعه السفن التجارية . كذلك تؤكد المصادر الصينية وصول وفد رسمى من العرب إلى عاصمة الصين فى خلافة عثمان بن عفان فى سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) وذلك بطريق البحر[3] وكان معظم المسلمين فى الصين من التجار الذين نزلوا الثغور . ولا عجب فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب فى يد المسلمين إلى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) . وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج العارسى الذى كانوا يسمونه فى القرن الثالث

---

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ص ٨ ، ٦١ - ٦٢ . و
E. Bretschneider : On the knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs & Arabian Colonies, p. 6 (London, 1871), Th. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 294-295 (Third edition. London, 1935).

(٢) انظر : P. Dabry de Thiersant : Le Mahométisme en Chine. باريس ١٨٧٨) ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٨.

(٣) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٨ - ١٥٩ ، مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الاولى ١٩٥٠) و
Bretschneider : On the knowledge possessed pp. 9 & 46.

واقرأ عن انتشار الاسلام فى الصين مقال الاستاذ هارتمان فى دائرة المعارف الاسلامية عمادة « الصين » الطبعة الفرنسية ج ١ ص ٨٦٦ وما بعدها .

الهجرى (التاسع الميلادى) ، الخليج الصينى[1] ، ويعبرون المحيط الهندى مارين بسرنديب (سيلان) وجزائر البحار الجنوبية إلى أن يصلوا موانى الصين التجارية . وقد قل مجىء الصينيين أنفسهم إلى الخليج الفارسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى وزاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية[2] . ولا ننسى أن الفضل فى قيام وازدهار تجارة بحرية بين الخليج الفارسى والصين فى العصر الإسلامى يرجع إلى قيام امبراطوريتين عظيمتين على طرفى الطريق . فكان العالم الاسلامى زمن الأمويين يمتد من أسبانيا وجنوب فرنسا إلى حدود الصين (٤١ — ١٣٢ هـ ، ٦٦١ — ٧٤٩ م) وظل العالم الإسلامى متحدا قويا حوالى قرن أو يزيد تحت ظل الخلفاء العباسيين فيما عدا أسبانيا وشمال أفريقية (١٣٢ — ٢٥٧ هـ ، ٧٥٠ — ٨٧٠ م) . أما فى الصين فقد ملكت أسرة تانج على امبراطورية متحدة حتى آخر أيام هذه الأسرة . وكان الصينيون يطلقون على العرب كلمة « تاشى » . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن كلمة « تاجر » العربية . ذلك لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارا . وقد تكون كلمة « تاشى » منقولة عن كلمة « تازى » الفارسية التى يطلقها الفرس على العرب[3] أما كلمة تازى الفارسية فهى مأخوذة من كلمة تاجك فى البهلوية[4] .

والواقع أن تولى العباسيين الخلافة كان قوة جديدة دفعت إلى الأمام التجارة البحرية الواردة إلى الخليج الفارسى والصادرة عنه وذلك لانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد فضلا عن اتساع التجارة زمن العباسيين اتساعا كبيرا .

ونحن نعرف أن بغداد نمت نموا عظيما وأصبحت المدينة التجارية الأولى فى الشرق ، وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة بين موانىء الخليج الفارسى إلى الشرق الأقصى .

---

(١) انظر :
Ph. Walter Schulz : Die Persisch-islamische Miniaturmalerei.
ج ١ ص ٤٨ .

(٢) W. Heyd : Histoire du commerce du Levant (Leipzig 1923).
ج ١ ص ٢٩ .

(٣) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦٣ .

(٤) انظر هرتمان Hartmann فى مقال China دائرة المعارف الاسلامية ومما ذكره أن الصيغة الفارسية مأخوذة من Tayyâye « عرب طيء » فى الارامية .

وكانت الأبلة وسيراف [١] أهم موانى السفن البحرية . ولكن السفن النهرية كانت تستطيع نقل السلع إلى بغداد . فكان الحال كما كان يذكر الخليفة أبى جعفر المنصور منشىء بغداد : « هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شىء فيأتينا فيها كل ما فى البحر [٢] .

ومن المسلمين الذين زاروا الصين والهند رحالة عربى اسمه سليمان السيرافى لا نكاد نعرف شيئا عن ترجمة حياته ، ولكن وصف سياحته فى الهند والصين وصل إلينا ، إذ كتبه فى سنة ٢٣٧هـ — ٨٥١ م . ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين وطبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١م على يد المستشرق لانجلس Langlis ، ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥م . كما أتى بها المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتى ترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها ونشرها فى مؤلف من مجلدين [٣] وفى هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر الميلادى). ومن هذه البيانات والأخبار أن مدينة [خانفو] [٤] وهى التى عرفت باسم « كانتون »

---

(١) سيراف : هى مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديما فرضة الهند .. انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٢ (الطبعة الاولى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦ م) . ويقول فران فى بحثه :

Ferrand (G.) : L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes. فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢ .

(أبريل — يونية ١٩٢٤) ص ٢٥٦ — ٢٥٧ انها كانت فى موضع قرية الظاهرة الان .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٩ ص ٢٣٨ .

(٣)

Relation de Voyages et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turks Relatifs à l'Extrême-Orient de VIIIe au XVIII siècles, traduits, revus et annotés par Gabriel Ferrand. (Paris 1913-1914).

(٤) انظر مادة « خانفو » بدائرة المعارف الاسلامية ، الدكتور حزين ،

Huzayyin (S.A.) : Arabia and the Far East (Cairo, 1942) pp. 158-160.

والتى كانت مجتمع التجار ، كان فيها رجل مسلم ، يوليه « صاحب الصين » الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية . . . واذا كان فى العيد صلى بالمصلين وخطب ودعا لسلطان المسلمين[1] ومما ذكره هذا الرحالة «أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف ، فيعبى فى السفن الصينية بسيراف ؛ وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه» ثم وصف بعد ذلك المحطات المختلفة التى تقف عندها السفن فى طريقها إلى الصين .

وتحدث الدكتور حسين فوزى عن هـــذه الرحلة فى كتابه حديث السندباد القديم[2] وقال أنها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن التاسع (الثالث الهجرى) وربما كانت الأثر العربى الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى اليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغـــيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ، وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبه وابن الفقيه والاصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها ، فانهم أيضا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربى الأول بلفظه ومعناه فى بعض الأحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه فى البعض الآخر» .

والواقع أن رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد تمتاز فضلا عن الأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد

---

(١) وفى بعض المصادر الصينية أن هذا النوع من الامتيازات الاجنبية امتد الى الجاليات الاسلامية الاخرى فى الصين ، فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها . راجع

Chau Ju-Kua : Chu-fan-chi : translated from Chinese & annotated by F. Hirth and W.W. Rockhill (Petersburg 1911) pp. 16-17.

(٢) ص ٢١ — ٣٢ القاهرة ١٩٤٣ .

الهجرة، تمتاز بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية ، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ولأهم المنتجات فى الهند وسرنديب وجاوه والصين ، مع قلة الخرافات والأساطير التى تكثر فى أحاديث البحارة [١]

وسليمان السيرافى أول مؤلف غير صينى أشار إلى الشاى . فذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج عن محاجر الملح ، ومن نوع من العشب، يشربه الصينيون فى الماء الساخن ويباع منه الشىء الكثير فى جميع مدنهم ويسمونه « ساخه »[٢] . ومما ذكره أبو زيد حسن ، فى الذيل الذى وضعه لرحلة سليمان ، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدة أقامت بها ، ونقل مافيها من سلع إلى مراكب خاصة تحمله الى مصر ، وتسمى مراكب القلزم ، إذ أن المراكب الأخرى كانت لاتستطيع الملاحة فى شمال البحر الأحمر ، كذلك أتى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندى والهادى ، وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها . وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها [٣] .

ويظهر أن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تماما بين الصين والشرق الأدنى فى عصر المؤرخ الجغرافى المسعودى (القرن ٤ هـ ، ١٠م) فان السفن من الجانبين لم تعد تبحر إلا حتى مدينة تسمى « كله » فى منتصف الطريق بين البلدين . وأشار المسعودى الى ذلك فى حديثه عن رجل من التجار من أهل مدينة سمرقند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق ، فحمل من جهازه وانحدر الى البصره ، وركب البحر حتى أتى

---

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : ص ٢٤ (القاهرة ١٩٤٥ م) .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٥ ٢، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢١١ .

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٢٥ .

الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد « كله »[١] ، وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهى مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم . وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس ، وساحل البحرين ، والأبلة ، والبصرة . فلذلك كانت المراكب تختلف فى المواضع التى ذكرنا الى ما هناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا فى هذا النصف . ثم ركب هذا التاجر من مدينة « كله » فى مراكب الصينيين الى مدينة خانفو[٢] » . كذلك أشار المسعودى إلى بعض أقوام السند يقال لهم « الميد » وتحدث عن قرصنتهم فقال : « ولهم بوارج فى البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها ، كالشوانى فى بحر الروم[٣] » .

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقة السياسية الدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين . وكان من أهم السفارات تلك التى كانت من قبل أبى العباس السفاح رأس الخلافة العباسية ، وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد . ويحل تاريخ

---

(١) لعل كله فى ولاية كيدا Kedah بالملايو الان ، وايد هذا الرأى ناشر كتاب بزرك ص ٢٥٥ — ٢٦٤ : انظر بزرك بن شهريار الناخداه ، الرام هرمزى ، كتاب عجائب الهند بره بحره وجزايره نشر النص ب.ا. فان ديرليت P.A. van der lith وترجمة الى الفرنسية مارسيل دفيك L. Marcel Devic ويرى Ferrand فى بحثه
L'élément persan dans les textes nautiques Arabes.
فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (ابريل — يونية ١٩٢٤ م) ص ٢٥٤ ، وفى دائرة المعارف الاسلامية مادة « كله » انها « كرا Kra » (تايلاند الحالية) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو وفى مادة "China" فى دائرة المعارف الاسلامية ان كله فى مروج الذهب للمسعودى ليست كله بار فى ملقا ولكن ميناء جال Galle فى الطرف الجنوبى لسيلان .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٩ .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف (طبع عبد الله اسماعيل الصاوى بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م) ص ٤٩ .

(الصين) خمس عشرة سفارة من العباسيين فى نصف قرن بين ١٣٢ هـ — ١٨٤ هـ (٧٥٠ م — ٨٠٠ م) ولم تفصل أغراض هذه السفارات فيما عدا أنها جاءت إلى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا . والمعروف أن هذه السفارات لم تكن كلها واردة من مقر الخلافة من دمشق أو بغداد، إذ أن كلمة «تاشى» كانت تطلق على كل «العرب» أو جميع سكان الإمبراطورية الإسلامية.

ولعل معظم هذه السفارات كان لتحسين العلاقات التجارية بين العرب والصين . وكانت السفارات التى جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التى جاءت من قبل الخلفاء[1]

ولاشك أن الطريق البحرى بين الدولة الاسلامية وبين الهند والصين كان مرغوبا فيه لدى التجار أكثر من الطريق البرى، فكان هناك منذ العصور القديمة الطريق البرى الذى يأتى من الصين إلى نهر أكسوس أو جيحون ويلتقى بالطريق البرى الذى يسير فى الجبال من الهند إلى نهر جيحون ، ويتفرع بعد ذلك عند بخارى أو سمرقند فيما وراء نهر جيحون أو فيما وراء النهر ، ويؤدى فرع منه الى شمالى بحر قزوين الذى سماه العرب بحر الخزر، ثم نهر الڤلجا ، ويسير الثانى إلى جنوب بحر قزوين فالبحر الأسود عند طرابيزون والقسطنطينية ، وكان هذا الطريق يعبر الجبال العالية والمسافات الطويلة ، فلم يكن يصلح إلا لنقل السلع الصغيرة الحجم والغالية الثمن . وكان هناك طريق برى آخر يبدأ جنوبى الطريق الأول عند الخليج الفارسى (أو خليج البصرة أو الخليج العربى أو الخليج الصينى) ، أو من إحدى المدن على الدجلة او الفرات ثم تنقل البضائع بطريق الصحراء إلى دمشق ، ومنها إلى موانى الشام على البحر المتوسط ، أو إلى مصر . أما الطريق الرئيسى الثالث جنوب الطريقين الرئيسيين السابقين فكان بحريا فى جزء كبير منه .

---

(١) انظر Gibb : The Arab Conquests of Central Asia, pp. 63-67.
وبدر الدين الصينى وما ذكره من مراجع ص ١٨١ ، ١٨٥ — ١٨٩ .

وكان هذا الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى . وكان من عيوب هذا الطريق المسافة الطويلة التى كان على السفن أن تجتازها فى عرض المحيط الهندى من ساحل الهند إلى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هذا العيب حين كشف الملاحون إمكان الإفادة من الرياح الموسمية . وأفادت مصر كثيراً من موقعها الممتاز بين قارات أفريقية وأوربة وآسية ، وظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر المقدونى ، أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة . وظلت مصر منذ عهد الاسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس .

وكانت السفن التى لا تفرغ السلع فى اليمن بل تتقدم فى البحر الأحمر تلاقى صعوبة كبيرة فى الملاحة فى هذا البحر . وكان علاج هذا أن تتجنب السفن الملاحة فى القسم الشمالى من هذا البحر ، وأن تتجه إلى بعض الموانى المصرية الواقعة فى غربى البحر الأحمر مثل ميناء برنيقه Berenice (رأس بناس الحالية) أو Leucos Limen (القصير الحالية) أو Myos Hormos (أبو شعر الحالية) ، أو عيذاب فى العصر العربى التى اشتهرت شهرة واسعة فى العصر الاسلامى ، ومن هذه الموانى تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل ، وتتخذ طريق النيل حتى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا فى البحر الأحمر إلى القلزم ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة

وأعاد حفرها البطالسة والرومان، وكانت تسهل كثيرا على التجار ويستخدمونها للوصول إلى الاسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم أو السويس .

واهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل وبإقامة الحاميات فيه ، وحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانى على الشاطىء الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسو المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلى غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وإذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر الطرق للوصول إلى موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . واستفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونستطيع أن نقول عن مصر ما قاله وليم الصورى عن الاسكندرية بأنها كانت سوق العالمين .

forum publicum utrique orbi [1]

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص . كذلك كانت سياسة الدولة الساسانية تحول دون توسع تجارة مصر فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعد مازالت تلك الدولة على يد العرب وأصبحت الدولة العربية وحدة واحدة ، عاد لتجارة الشرق أهميتها ، وساعد على نشاطها إعادة حفر القناة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب والتى سميت خليج أمير المؤمنين .

Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Vol. I, p. 378 (Leipzig 1885-1886).

وقد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتميز به مصر فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الأفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجه ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن[1] » .

ولم يكن فتح العرب لمصر سبباً فى قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب إذ يتضح من نصوص جغرافيي العرب كيف كانت مصر طريقا للتجارة بين الشرق والغرب . وكذلك لم تفقد الاسكندرية مكانتها التجارية العالمية التى كانت لها قبل الفتح . فقد زار الاسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين عاما (حوالى سنة ٥٠ — ٥١ هـ أو ٦٧٠ م) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن الاسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لا حصر لها[2] .

ولم يحاول العرب عرقلة التبادل التجارى مع غيرهم من الدول أصدقاء كانوا أو أعداء . ويبين لنا امتداد العلاقات التجارية فى العصور الوسطى حكاية فى باب فضل القناعة من كتاب « كلستان » لسعدى الشاعر الإيرانى تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة . وأجاب التاجر : « أريد أن أحمل الكبريت من ايران إلى الصين فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها . ومن هناك آخذ

---

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ج ١ ص ٢٤١ (طبعة دار الكتب المصرية — الطبعة الثانية ١٩٢٩ م) ، المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٨ (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T.I. pp. 12-13 (Le Caire 1929) ; Heyd : Histoire du commerce du Levant, T.I. p. 41.

الخزف الصينى إلى بلاد الروم ، ثم أحمل الديباج الرومى إلى الهند ، والفولاذ الهندى إلى حلب ، وآخـــذ الزجاج الحلبى إلى اليمن ، والأقمشة اليمنية إلى إيران »[1] .

ويبين عالمية التجارة فى العصور الوسطى ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة[2] عن التجارة فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) إذ تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق برا وبحراً .

لماذا كثرت الرحلة فى الإسلام :

وكانت الرحلة عنصراً هاماً قوياً فى حياة المجتمع العربى الإسلامى فى عصوره الزاهرة . وأصبح المسلمون يرتادون البحر والبر على السواء ، فرحل الناس لزيارة مهبط الوحى ، ولقوا فى سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التى تحملوها راضين مسرورين . ورحل الناس فى طلب العلم من قطر إلى آخر ، إذ كانت مراكز العلم منتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى . واتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعا لم يعرف فى العالم قبل كشف أمريكا ، فانتشرت قوافل التجار المسلمين فى العالم المعروف آنئذ ، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات . وحسبنا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التى عثر عليها فى الروسيا وفنلندة والسويد والنرويج ، بل فى سويسرا وجزيرة ايسلنده والجزائر البريطانية . وترجع قطع العملة المذكورة إلى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الأول وبداية الخامس الهجرى (السابع وبداية الحادى عشر الميلادى) وكانت الأسواق الإسلامية مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٧ م) ص ١٧٨ .

(٢) كتاب المسالك والممالك : ص ١٥٢ — ١٥٤ (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية — ليون ١٨٨٩ م) .

ولاننسى أيضاً رحلة الرسل المترددين بين الملوك والأمراء ، ورحلة المغامرين الذين يجدون فى الرحيل لذة لا يعدلها لذة ، ورحلة الساعين فى سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم . وقد شجع المسلمون على الرحلة خضوع العالم الإسلامى برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الأمر ، فلما ذهبت الوحدة السياسية بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة ، وهاتان الوحدتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ، ورسل السلاطين وحملة البضائع ، وزعماء الصنائع ، فاحتفظوا بالصلة ، بل لعل الرحلة كانت أقوى فى عهد التفرق السياسى منها قبله لاعتياد العالم الإسلامى درجة من المعيشة ونوعا من الحياة ولونا من التفكير تتحتم على أفراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكرى والأدبى[1] . ولاشك أن ازدهار التجارة الإسلامية يرجع إلى اهتمام العرب بالبحار .

العباسيون والبحر المتوسط :

على أنه ينبغى ألا يتطرق إلى الأذهان أن قيام الخلافة العباسية واتخاذها بغداد قاعدة لها ، فضلا عن الحركات الانفصالية فى الدولة العباسية ، قد قلل من اهتمام العرب بالبحر المتوسط وزاد من اهتمامهم بالبحار الشرقية . إذ برهنت الحوادث على أن الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية والتى تطل على البحر المتوسط ورثت اهتمام الخلافة الإسلامية بهذا البحر فضلا عن اهتمام بعض الطوائف والأفراد الذين كانوا يعمـــلون فى ظل إحدى الحكومات المستقلة التى تتبع الخلافة أو المستقلة أو يعملون لحسابهم الخاص.

ونلاحظ أنه لما تم للعرب ملك الأندلس أنشأ أمراؤها دور الصناعة فى طركونة واشبيلية والمرية على غرار دور الصناعة فى مصر والشام وشمال أفريقية ثم أصبح الأندلس قوة بحرية لها حسابها زمن عبد الرحمن الثالث

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٥ ــ ١١ ، نقولا زيادة : رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ص ٦٠ ــ ٦١ (هدية المقتطف السنوية سنة ١٩٤٢ م) .

الناصر) (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ — ٩١٢ — ٩٦١م) إذ سيطر على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبى .

ولم تكن نكبة العرب أمام أسوار القسطنطينية حائلا دون تقدمهم فى البحار والخوض فيه للغزو أو للتجارة أو لتأمين بلادهم ، بل إن نكبتهم هذه فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) جعلتهم يفكرون فى روعة البحر وأهواله . وكان القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) عصر التجارب البحرية والدفاع من ناحية المسلمين ، وظهرت جميع حواضر العالم الإسلامى بعيده عن البحر لتكون فى مأمن من مفاجآته فبقيت عاصمة مصر فى الفسطاط ، وكانت عاصمة الأغالبه فى تونس ، وعاصمة الأدارسة فى فاس ، وعاصمة الأندلس فى قرطبة . ومنذ أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) تبدل الحال وكانت الأساطيل الإسلامية تجوس خلال البحر المتوسط من أقصاه الى أقصاه . فكان هناك أسطول الأغالبة فى شمال أفريقية ، وأساطيل الطولونيين والإخشيديين فى مصر والشام ، ثم أسطول الفاطميين الذين ورثوا أسطول الأغالبة — وكان هناك أسطول الأندلس . وأصبح العرب الذين يطلون على شواطىء البحر المتوسط فى أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر التاسع الميلادى) فى مأمن من أى غزو لأول مرة منذ عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . وكان الذى كشف ضعف بيزنطه البحرى بعد صراعها المرير مع دول البحر المتوسط الإسلامية من أجل الاحتفاظ بالسيادة فى البحار ، جماعة من الأندلسيين كانوا قد خرجوا من وطنهم مطرودين فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨ هـ (٨١٤م) ونزل فريق منهم بالاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥٫٠٠٠ شخص ، فيما عدا النساء والأطفال[1] وأنشأ

---

(١) انظر :
Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyde 1932) T.I. pp. 296-300.

هؤلاء الأندلسيون فى الاسكندرية جمهورية شبه مستقلة مستغلين الفوضى فى مصر حينذاك أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون ، وما تلا قتل الأمين من فوضى عمت أنحاء الدولة الإسلامية . ولما نجح قائد المأمون — عبد الله بن طاهر — فى القضاء على النزعات الاستقلالية التى ظهرت فى مصر حينذاك وفى إعادة مصر إلى حظيرة الخلافة ، سار إلى الاسكندرية فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧م) ليتم نصره على مصر كلها وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة اقريطش (كريت) وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطى وملكوها دون كبير مقاومة من البيزنطيين وكانت كريت قد تعرضت لغزو العرب فى دور الفتوح الأول . لكن فتحها تم على يد هؤلاء الأندلسيين . وكان العرب قد حفروا فى الجزيرة خندقا يتسترون فيه فلما تم احتلالهم للجزيرة قامت هناك مدينة سميت الخندق وهى مدينة قنديا الحالية . ولم يستطع البيزنطيون استرداد الجزيرة إلا فى أواسط القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى[1] وتقهقرت قوة البيزنطيين البحرية أمام أسطول الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ — ٩٠٨ م) منذ القرن الثانى الهجرى (التاسع الميلادى) ، إذ عنى الأغالبة فى شمال أفريقية بأسطولهم واستطاعوا أن يتبوءوا سيادة فى مياه البحر المتوسط واستطاعت سفنهم أن تغير المرة بعد المرة على سواحل إيطاليا وفرنسا وجزر قورسيقا وسردانية وكريت ، فضلا عن نجاحهم فى الاستيلاء على صقلية والقضاء على الحكم البيزنطى فيها كما استولوا أيضاً على مالطة .

فتح مالطة :

أما مالطة فغزاها ابراهيم بن الأغلب صاحب افريقية (تونس الحالية) ومؤسس دولة الأغالبة فى القرن الثانى الهجرى (التاسع الميلادى) ثم تم

(١) انظر : سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٦٧ — ١٧٦ وما ذكرته من مراجع وارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ١٦٩ — ١٧٠ ، نقولا زيادة : صور من التاريخ العربى : ص ٤٤ — ٥٤ (دار المعارف بمصر ١٩٤٦) .

فتحها فى أواسط القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) على يد الأسطول الأغلبى . ومن مالطة كانت تخرج سفن الغزو العربية إلى بروفانس وإيطاليا وما إليهما . وظلت مالطة تابعة للعرب حتى سنة (٤٨٣ هـ = ١٠٩٠م حين انتزعها منهم النورمانيون الذين كانوا قد ظهروا على مسرح السياسة والحرب فى البحر حينذاك .

وفى مالطة امتزج العرب بأهل البلاد ولا تزال آثار العرب فى مالطة واضحة فى الألفاظ العربية الكثيرة الموجودة فى اللغة المالطية . وفى أسماء البلاد فى الجزيرة وفى نقوش كثيرة وفى قطع من السكة العربية . وفى مالطة ظهر عالم إسمه المالطى كان أحد الذين نقل عنهم ياقوت، الحموى ، صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء[1] .

العرب فى صقلية :

واحتفظ التاريخ للأغالبة بفتح صقلية التى كانت تتبع البيزنطيين . وعرف العرب صقلية وخيراتها منذ أغار عليها أحد قواد معاوية سنة ٣٢هـ/٦٥٢م) ثم فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٥م وهى السنة التى هزم فيها المسلمون أسطول بيزنطة عند الاسكندرية فى معركة ذى الصوارى . وفى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بدأت جماعات من غزاة المسلمين تتسلل من شمال أفريقية والأندلس إلى بعض جزر البحر المتوسط وتوقع الرعب فى قلوب سكان صقلية وقورسقه وسردانية . لكن احتلال المسلمين لصقلية لم يتم إلا على يد الأغالبة ، فإن زيادة الله بن الأغلب بعث سنة ٢١٢هـ قائده ووزيره أسد بن الفرات على رأس عمارة بحرية قوامها أربعمائة سفينة وثلاثون ألف مقاتل استطاعت أن تفتح بلرم بعد حصار خمس سنين . وكتب زيادة الله إلى الخليفة العباسى المأمون يبشره بالفتح . ثم تابع الأغالبة حملاتهم

---

(١) انظر : نيقولا زيادة : صور من التاريخ العربى ص ٤٦ و٥٠

حتى وقعت الجزيرة كلها بأيدى العرب . وكان فتح صقلية عبارة عن عمليات حربية متقطعة استمرت نحو خمس وستين سنة .

ولما خلف الفاطميون بنى الأغلب فى شمال أفريقية أعادوا إخضاع صقلية . لكن المنافسات بين العرب فى صقلية والحروب الأهلية فيها ، ثم ظهور النورمنديين ، كل هذا أدى إلى القضاء على سيادة العرب فسقطت الجزيرة فى يد النورمنديين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٦ م) .

ومما يستلفت النظر أن البحرية الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أصبحت تجهز بالنار الإغريقية أو بتركيب نفطى مشابه للنار الإغريقية . فالحراقات التى استخدمها الأغالبة قرب صقلية عام (٢٢٠هـ = ٨٣٥ م) كانت سفنا من قاذفات اللهب ، تقذف مادة سريعة الاشتعال[1] .

حضارة العرب فى صقلية :

وكان لفتح الأغالبة جزيرة صقلية شأن كبير فى قيام الحضارة العربية الإسلامية فيها . وثبتت جذور هذه الحضارة فى عهدهم ثم فى عهد الفاطميين ، وحتى فى عهد النورمنديين بعد أن زال سلطان المسلمين السياسى عنها . والواقع أن حضارة العرب فى صقلية وصلتها بالأوربيين الذين كانوا يتطلعون إلى علوم المسلمين فى ذلك الوقت ، كانت أحد الأسس التى بانتقالها إلى أوربا عملت على بعث الحياة الفكرية أيام النهضة الأوربية .

ومن الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا صقلية وأعجبوا بالعمران والرخاء فيها ابن حوقل إذ زارها فى سنة ٣٦٢ هـ وترك لنا فى كتابه

---

(١) فارن : ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١٤ .

« المسالك والممالك » وصفاً لمدينة بلرم ، سجل فيها إعجابه بعمائرها ولا سيما مسجدها الكبير .

وبقى اسم صقلية متصلا بأعظم علماء الجغرافيا وراسمى الخرائط فى العصور الوسطى وهو الشريف الإدريسى الذى ولد فى سبتة بالمغرب الأقصى سنة ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م ، إذ وقع اختيار روجر الثانى (رجار) النورمندى عليه ليؤلف له كتاباً شاملا فى وصف مملكته فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وفى وصف سائر البلاد المعروفة حينذاك . وأصبح الإدريسى ألمع رجال البلاط النورمندى وصنف رسالته المشهورة (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) المعروفة باسم « كتاب رجار » والتى ترجمت إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر الميلادى .

غزو العرب لإيطاليا ولروما وغيرها :

وفى الفترة التى كان العرب فيها سادة البحر المتوسط ، اتخذوا من قواعدهم البحرية مركزاً للهجوم على شواطىء أوربا ومدنها ، فكثرت إغاراتهم فى بحر أيجه والبحر الأدرياتى وأنشأوا قاعدة قوية للغزو فى ثغر بارى (بارة) فى كلابريا فى أقصى جنوب إيطاليا وهى التى سماها العرب قلورية أو الأرض الكبيرة أو البر الكبير .

غزو العرب لروما مرتين :

ولعل الغارة البحرية التى تستحق الذكر هى غزو العرب لرومة . والواقع أن المغامرين من أمراء البحر العرب كان لهم الفضل الأكبر فى إحراز سيادة العرب فى البحر المتوسط ، وفى القيام بمثل هذه الغارات والغزوات . وكان غزو العرب لروما عن طريق البحر فى سنة (٢٣١ هـ - ٨٤٦ م) إذ سارت حملة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطىء الايطالى وهاجمت ثغوره ونهبت موانيه وحاصرت بعضها عند مصب التيبر . وانقض البحارة العرب

على مدينة القيصرة ، وارتاع البابا سرجيوس الثانى ، واهتز الشعب الرومانى رعباً . ولم ينقذهم فى النهاية سوى الخلاف الذى دب بين البحارة المسلمين أنفسهم فرفعوا الحصار عن المدينة الخالدة وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى (٨٥٠ م) . وعاد العرب مرة ثانية إلى غزو رومة بعد نحو عشرين سنة (٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م) ، وأشرف الأغالبة والصقليون على تجهيزها واتخذت جزيرة سردينية مكاناً للاجتماع وقاعدة للهجوم .

والتقى الأسطول العربى وأسطول المدن الايطالية عند مصب التيبر لكن العواصف حالت دون اشتباك قوى .

ولبث العرب زمناً طويلا يهددون روما حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع لهم أتاوة مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب [1] .

ليون الطرابلسى :

وإذا كنا فى معرض الكلام عن المغامرين العرب فى البحار فجدير بنا أن نشير إلى بحار مسلم اشتهر باسم ليون الطرابلسى . وظهر هذا البحار فى أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) . وتفيض الرواية البيزنطية فى سرد حملاته وغزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية ، وما كانت تحدثه هذه الغزوات فى الدولة وثغورها من الرعب والاضطراب . ولعل أعظم غزوة قام بها ليون الطرابلسى هى غزوته لثغر

---

(١) انظر فى غزوات البحارة المسلمين لروما : تاريخ ابن خلدون ، محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، نقولا زيادة : صور من التاريخ العربى . و
Gibbon : Decline & Fall of the Roman Empire.
Finlay : Byzantine Empire.

سلانيك الذى كان من أعظم ثغور الدولة البيزنطية وأغناها بعد القسطنطينية وذلك فى سنة ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) ولعل ليون الطرابلسى هذا هو الذى يسميه المؤرخ ابن الأثير « غلام زرافة »[١].

والواقع أن احتلال العرب لجزر البحر المتوسط واتخاذها مراكز للغزو يكون فصولا ممتعة فى تاريخ المغامرات البحرية . وكان لأمراء البحر العرب حينذاك شأن كبير فى تقرير السياسة البحرية وتعيين طرق المراكب التجارية .

ونحن لا نشك أيضاً فى أن العرب اتخذوا الأساطيل فى المحيط الأطلسى للدفاع عن ملكهم فى المغرب والأندلس بل اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس .

وطبيعى أن العرب عرفوا شيئاً كثيراً عن سواحل هذا المحيط وعن الجزائر غير البعيدة عنها . ولكن نجد فى بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه . ومن ذلك حديث فتية من مدينة لشبونة قاموا فى المحيط برحلة جريئة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وعادوا منها بعد تجارب قاسية وأهوال شديدة . وعرفت قصتهم فى التاريخ باسم « قصة الفتية المغررين » (أو المغربين ، من الاتجاه إلى المغرب)[٢] .

والواقع أن سيادة المسلمين فى البحار كان لها أهمية عظمى إذ أنها أنعشت

---

(١) راجع : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٦٠٩ (القاهرة ١٣٥٣ هـ) وفيما يتعلق بحملات ليون الطرابلسى راجع : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام لعبد الله عنان ص ٧٧ — ٨٢ .

(٢) انظر قصة الفتية المغربين ومناقشة هذا الموضوع فى : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٤٦ — ٥١ .

التجارة الدولية على طول طرق التجارة الدولية القديمة ، وزاد استقرار المسلمين فى البر ، فى نتائج وخطورة غزواتهم البحرية . وبفضل القوة البحرية انتشر التعامل بالذهب شرقاً وغرباً فى أرجاء العالم الإسلامى فعدل الأندلس عن قاعدة الفضة ابتـــداء من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) . وفى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر أصبحت العراق وإيران وبلاد المحيط الهندى التى بين جزيرة مدغشقر وساحل ملبار تتبع قاعدة الذهب بدلا من قاعدة الفضة[1] .

ويظهر أن الرخاء الوفير الذى نعم به المسلمون دعاهم إلى إهمال الغزو البحرى وأتاح هذا الاهمال لخصومهم أن ينتزعوا منهم السيادة فى البحار شيئاً فشيئاً .

* * *

وبعد فهذا عرض مجمل عن خوض العرب فى البحار وغزواتهم فيه وأهمية البحار لحياتهم الإقتصادية ولتأمين إستقلالهم ، وعن فوائد البحار لتدعيم علاقاتهم بغيرهم من الدول والشعوب . ولعل من أمتع ما كتب فى تخليد تفوق العرب فى البحار ، وسيادة الأساطيل الإسلامية ، ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الرابع والثلاثين تحت عنوان « قيادة الأساطيل » .

ولا يزال تاريخ البحرية العربية يحتاج إلى بحوث طويلة لأن أخبار البحر وركوبه كثيرة فى كتب الأدب والتاريخ وتقويم البلدان ، فضلا عما دونته مصادر البلدان والأمم التى اتصل بها العرب . وهذه تمدنا بالمعلومات الكثيرة فى مختلف النواحى الخاصة بالبحر وركوبه ، فضلا عن وصف

---

(١) انظر : ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٦١ .

وأسماء المراكب والأساطيل البحرية والتجارية فى الأمم الإسلامية المختلفة ، وما عرف عن تقاليد المسلمين فى القتال فى البحر ، واصطحاب نسائهم فى المعارك البحرية فى بعض الأحيان .

ولا يزال المجال واسعاً أمام الباحثين فى هذا الميدان المتشعب الذى يعد بحق من الصفحات المشرفة فى تاريخ العرب .

الحضارات الأفريقية..
وفكرة الانتشار الحضاري وطرقه في أفريقيا

للدكتورة كوثر عبد الرسول
الأستاذة المساعدة للجغرافيا
كلية البنات الإسلامية

من الموضوعات الهامة في دراسات الجغرافيا البشرية والجغرافيا الإجتماعية بالذات هجرات الحضارات وانتشارها ودراسة طرق هذه الهجرات . ذلك أن الهجرة البشرية من مكان إلى مكان — سواء كانت تلك الهجرة تمثل تحرك جماعة من البشر في صورة هجرة جماعية أو فردية ، أو سواء كانت تلك الهجرة تمثل انتقال نماذج من حضارة جماعة إلى جماعة أخرى — أمر معترف به من جميع مصادر البحث في علوم إنسانية عديدة أهمها الجغرافيا والأنثروبولوجيا والاجتماع .

ولا يقتصر دور الهجرة بهذا المفهوم الواسع على أنه أمر معترف به من جانب عدة علوم ، بل إنه بدون الإعتراف به لا يمكن تفسير كثير من التشابه في درجاته المختلفة بين نظم اقتصادية إجتماعية سياسية في عديد من الشعوب ، وتفسير تطور وسائل الإنتاج من الكفاية الذاتية البدائية إلى الزراعة والصناعة الحديثة .

وقد عالج كثير من العلماء — كل في ميدان تخصصه — هجرات الناس والحضارات في العالم القديم والحديث . وفي فترة ما من الزمن اشتد شغف عدد من العلماء بمسألة هجرة الحضارات . وبالغ البعض مبالغة شديدة . ومن

هؤلاء من تعصب لمصر كمركز لانتشار عدد من عناصر الحضارة العليا فى العالم ومن أهمهم اليوت سميث Smith وبرى Perry ومنهم من تعصب لحضارات ما بين النهرين على أنها مركز إشعاع الحضارة العليا فى العالم ، مثل راجلان Ragian وهيليداى Hilliday ومنهم من أخذ عنصرا حضاريا وحاول تطبيقه على العالم بوصفه أنه مصدر الحضارات كلها ، ومن هؤلاء هوكارت Hocart (١) الذى نادى بأن حضارة الملوك هى الأصل الذى استمدت منه حضارات العالم جميع أشكالها — ذلك أن الطبقات المختلفة تحاول دائماً التطلع إلى أعلى وتقليد حضارة أعلى الطبقات ، وهذه هى حضارة الملوك . ولقد بلغ التعصب لمثل هذه النظريات الإنتشارية حدا جعل العلماء التاليين ينفرون تماما من فكرة الإنتشار ويذهبون إلى حد التطرف برفض كل انتشار حضارى وبشرى . وهؤلاء أيضاً مخطئون . فهم قد كادوا أن يجعلوا العـــالم حضارات مختلفة منفصلة تماما عن غيرها فى نشأتها وتطورها . وانتهى هذا التضارب فى الآراء إلى الاعتراف مرة أخرى بالانتشار بين معظم الباحثين باستثناء عدد منهم معظمهم فى إنجلترا ، وذلك بسبب سيادة نظرية الوظيفة فى الدراسة الحضارية — وهذه النظرية وإن كانت قد أدت خدمة جليلة من أجل دراسة ناحية هامة من نواحى الحضارة — وهى التركيب الاجتماعى ودراسات القرابة فى المجتمعات إلا أن هذه النظرية لم تولد انجليزية ، بل نشأت فرنسية على يد أميل دوركايم وطورها بولندى هو برونسلاو مالينوفسكى واحتضنها الانجليز بشىء كثير من التعصب والتطوير .

وسبب هذا الإختلاف المذهبى فى مراحله الزمنية المختلفة إلى عصرنا الحديث يعود إلى عدد من الحقائق التى يتشبث كل منهج بإحداها على أنها

---

(١) يراجع لهؤلاء المؤلفين الكتب التالية :

Smith, G. E., 1929. "The Migrations of Early Cultures" Manchester.

Hocart, A. M., 1927. "Kingship" Oxford. And 1936 "Kings and Councillors". Cairo.

العامل الحاسم فى نشأة وتطور الحضارة . وفوق كل هذا فإن هناك مبدأ معترف به هو مبدأ وجود عناصر حضارية متشابهة تنشأ نشأة منفصلة مستقلة عن بعضها فى أقاليم جغرافية متباعدة . وهناك أيضاً مبدأ آخر يقول إن عددا من العناصر الحضارية تنشأ مرة واحدة فى منطقة واحدة ثم تنتشر من مركز نشأتها إلى مناطق جغرافية متقاربة ومتباعدة على حد سواء . وكلا المبدأين معترف به من جانب العديد من العلماء . ويكون الاتفاق على أشده فى تطبيق المبدأ الثانى على عدد من العناصر الحضارية التى دفعت بالعالم دفعا إلى مراحل التطور الكبرى . مثال ذلك أن الزراعة عرفت أولا فى الشرق الأدنى وانتشرت منه إلى بقية أرجاء العالم . وكذلك الصناعة نشأت فى الإقليم الحضارى الذى كونته دول غرب أوربا فى القرنين الماضيين .

وعلى أية حال فإن الإنتشار الحضارى — بعد الدفعة الاولى الفاشلة — قد أصبح له قواعد ثابتة علمية تجعل الباحث يقف كثيراً عندما يرى عنصرين حضاريين متشابهين . فقبل أن يقول كلمته الأخيرة عليه أن يحلل الموقف تحليلا دقيقاً فلا يأخذ فقط بالتشابه الظاهرى بين العنصرين الحضاريين ، بل عليه أن يدرس تركيب ووظيفة مثل هذا العنصر الحضارى بين مجموع النظام الحضارى الذى يعيش فيه ، وأن يحلل دوره فى عالم الفكر الكوزمولوجى والدينى ، أو فى تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . وفى هذا المجال نذكر الأستاذ كوبرز Koppers حين يقول محللا فكرة الإنتشار :

We speak of such parallels if we meet identical or similar cultural phenomena in different parts of the world. In any given case, the question whether or not we are faced with true relation will depend on the degree of conformity and the number of parallel traits, i.e., on the "criteria of form and of quantity". Whenever the question is to be answered in the affirmative, this will have to be considered as a proof of diffusion". (٢)

(٢) Koppers, W., 1955. "Diffusion : Transmission and Acceptance" Year book of Anthropology. New York.

ولاشك أن التشابه فى الصورة المتكاملة ليس موجودا فى الطبيعة الحضارية بل أنه نظراً لأن هناك حضارات متفاوتة فى الأسس والجذور والتكيف فإن التشابه لا يكون كاملا فى شكله ولا فى وظيفته ولا فى دوره تماما فى تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . إنما يحدث تداخل ويطرأ على العنصر الحضارى كثير من التغيير ويتشكل فى صورة جديدة ، وإن بقيت أصوله غير معروفة وتفسر دائماً فى صورة أسطورية . ومن ثم فإن التوصل إلى دراسة التشابه الحضارى لعدد من العناصر يحتاج إلى وصف دقيق للعناصر الحضارية منفصلة ومتفاعلة ، وتحليل دقيق لوظائف العنصر الحضارى فى حد ذاته وفى تشابكه وترابطه مع غيره من العناصر التى تكون البناء الحضارى . ثم هناك أيضاً ضرورة الالتجاه إلى دراسات أخرى لتأكيد القرار الذى سيتخذه الباحث . ومن أهم هذه الدراسات علم انثروبولوجيا الطبيعية الذى يدرس السلالة والجنس ، ودراسة ماقبل التاريخ وأركيولوجيه ودراسة الوثائق التاريخية إن وجدت والدراسات اللغوية الخ ...

والعادة أن تنتشر العناصر الحضارية من الحضارات العليا إلى الحضارات الأقل تطورا وخاصة فى أفريقيا ولكن هذا لايمنع إطلاقا دخول عناصر حضارية بدائية إلى الحضارات العليا ، وتنتشر الحضارة بطرق مختلفة أهمها هجرة جماعات انسانية من أقليم إلى آخر حاملين معهم عاداتهم وبناءهم الحضارى . مثل هذه الهجرات تنتج لأسباب عديدة أهمها التوسع والغزو أو ازدياد السكان والبحث عن مناطق رزق جديدة ، او الاضطهاد والظلم . وتتخذ الهجرة إما شكل موجه بشرية كبيرة وإما تسرب مستمر لجماعات قليلة العدد على مدى زمنى طويل . والهجرة التى تأخذ شكل موجة كبيرة تؤدى إلى عـــدم تجانس حضارى لفترة طويلة . أما التسرب المستمر لجماعات قليلة العدد فيؤدى إلى انسجام العناصر الحضارية الجديدة والقديمة معا . والهجرة الناجمة عن الغزو تؤدى إلى ثنائية فى الحضارة : فيصبح هنـاك حضارة الطبقة الحاكمة وحضارة مجموع الشعب .

وليست الهجرة البشرية هى العامل الوحيد فى هذا المضمار بل إن هناك النقل الحضارى نتيجة التجاور المكانى، أو العلاقات التجارية أو الاشتراك فى المصالح الاقتصادية التى تستلزمها العلاقات المكانية — سواء كان ذلك الاشتراك سلمياً أم نزاعا حربياً .

وعلى الرغم من التسليم بمبدأ الانتشار الحضارى بالنسبة لعدد معين من عناصر الحضارات إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن معظم الحضارات البشرية البدائية والعالية قد تأثرت ببعض بحيث يندر أن يوجد شكل حضارى لم ينقل عن غيره بعض العناصر . ومع ذلك فإن هناك فى الوقت الراهن درجات من التأثر أيضا كما كان فى الماضى . وسبب ذلك متعدد النواحى ، لكن يكفينا أن نقول هنا أن الموقع الجغرافى والأحوال الجغرافية الطبيعية للأقاليم المختلفة قد أدت إلى تغاير مدى التأثر والتأثير . فمناطق العزلة الجغرافية هى أقل المناطق الحضارية اختلاطاً وأكثرها محافظة ، فى حين أن المناطق التى تقع على الطرق الهامة التى رسمتها الطبيعة ، والتى استغلها الانسان فى تحركاته كجموع مهاجرة ، أو فى اتخاذها كطرق اتصال وتجارة ، قد أصبحت أكثر المناطق الحضارية تعقيداً فى التركيب وأقلها جموداً . وهكذا تتميز مناطق الاختلاط والاحتكاك بمرونة العناصر الحضارية وقابلية المجموع الحضارى لاستيعاب مظاهر حضارية جديدة .

طرق الهجرات فى أفريقيا

وأفريقيا تماثل آسيا فى أنهما القارتان اللتان تتميزان بظهور الفوارق الحضارية ظهوراً واضحا . وربما فاقت أفريقيا آسيا فى هذا المضمار . وسبب ذلك راجع الى الطبيعة الجغرافية للقارة من حيث وجود عدد كبير من مناطق العزلة والانتجاء ، والعوائق الطبيعية ضد الاتصال والاحتكاك بين الشعوب ، بل إن نصف القارة جنوب خط الاستواء

يكاد أن ينفصل تماما عن بقية القارة بواسطة الغابات الاستوائية لولا وجود ممر طبيعى هو هضبة البحيرات التى تخلو من الغابات ، وبالتالى كونت طريقا هاما للهجرات التى عمرت جنوب القارة كما أن الصحراء الكبرى تكاد تفصل الهامش الشمالى للقارة عن بقية القارة لولا وجود طريق النيل وطريق الاطلنطى . وفى الوقت الذى ترتبط فيه آسيا بأفريقا عبر برزخ السويس وتكاد تمس شرق القارة فى منطقة خليج عـــدن ، نجد بقية القارة — بعوائقها العديدة تبتعد عن منطقة الاختلاط الحضارى العالى القديم فى الشرق الأدنى .

هـذه الظروف مجتمعة قـد ساعدت عـلى التباين الكبير فى أفريقيا ، وظهور أنواع ونظم من الاقتصاد والبناء الاجتماعى تتراوح بين البدائية الأولية فى نطاق أقاليم الأقزام والبشمن وبين التقدم الذى توجه تكوين الدولة فى وادى النيل الأدنى .

وعلى الرغم من أن دراسة الطرق الأساسية فى أفريقيا مقدمة لابد منها لدراسة انتقال الجماعات والحضارات ، إلا أن ذلك لم يكن ممكنا فى بدايـة الدراسات الحضارية عن أفريقيا . ذلك أن معرفة الطرق تتطلب دراسات جغرافية طبيعية للقارة من ناحية ، ودراسات للآثار التى خلفتها حضارات ما قبل التاريخ ، ودراسة الوثائق التاريخية والتكوين الجنسى واللغوى فى أفريقيا . وكل هذه الدراسات لم تكد تبدأ إلا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . ولاشك أن كتابة تاريخ أفريقيا لم يكد يبدأ إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ومن ثم فان تقرير الطرق التى سلكتها الجماعات البشرية والحضارات لم يكن ممكنا فى قارة لم يتأخر كشفها الجغرافى فقط ، بل تأخرت فيها الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية إلى فترة حديثة جدا .

وحتى ما تكتبه اليوم عن الطرق الأساسية فى أفريقيا ، مثل طريق النيل أو طريق السفانا ، ليست فى الواقع — وباستثناء طريق النيل — سوى استنتاجات واستقراءات من الخريطة النباتية لأفريقيا ، وتعليلات مستمدة

من واقع الدراسات المرتبطة بالمياه الجوفية فى النطاق الصحراوى فى الوقت الراهن واستنتاج ما كانت عليه فى الماضى ، كذلك توزيعات الغابات الاستوائية فى الوقت الراهن ليست بالصورة التى كانت عليها منذ عشرة آلاف سنة . وما نقوله باستمرار عن اختراق الصحراء لم يتم إلا فى أوائل العهد المسيحى بعد دخول الجمل أفريقيا ليس سوى استنتاج منطقى فقط وهو معرض للتغير إذا ما عرفنا أن هناك فئة من العلماء تقول أن الجمل عرف فى مصر منذ أقدم العصور مثل بترى Petri وشارف Sharff، وكاتون تومسون Caton-Thompson (٣) هذا فضلا عن أن هناك احتمالا فى الماضى لاختراق الصحراء فى مناطق محلية بواسطة الحمير — اذ كانت الآبار أغنى مياها مما هى عليه فى الوقت الراهن (٤).

---

(٣) محمد رياض — كوثر عبد الرسول : الاقتصاد الافريقى : القاهرة ١٩٦٣ .

« على الرغم مما يقال باستمرار عن ان الجمل لم يدخل افريقيا افريقيا الا متأخرا جدا (حوالى ١٠٠ ق.م) الا ان ابحاث الكثير من علماء الدراسات المصرية القديمة مثل فلندرز بترى ، شارف ، كاتون تومسون ، قد فندوا هذه الاقوال وأكدوا ان الجمل كان معروفا فى مصر منذ أقدم العصور وقد سجل وجوده فى كثير من الحالات فى صورة تماثيل صغيرة ولكن لم يسجل على المعابد المصرية . ولسنا ندرى هل كان هناك مانع دينى ضد تسجيل الجمل على المعابد ، ولكن انه كان فى عهد الرعامسة حيوانا شائعا لحمل الاثقال الكبيرة » . ص ١٤٠ .

W. M. F. Petri : "Social Life in Ancient Egypt". P. 139.

A. Scharff : "Das Vorgeschichtliche Graeberfeld von Abusir-el-Meleq". P. 40.

G. Caton-Thompson and Gardner: "The Desert Fayum". P. 88, 119, 128.

(٤) M. Riad : "The divine Kingship of the Shilluk and its Origin." Wien 1959.

"...it is more than certain that the pre-camel migrations took the route of the Nile southwards into the heart of Africa, though Seligman (Egypt and Negro Africa. London 1934. pp. 67-78) may be right in what concerns minor movements of population and trade accross the desert with the help of comparatively more rainfall and higher water sheet of desert wells in the past". P. 254.

فالواقع إذن أن الطرق التى نتكلم عنها ليست سوى صورة منطقية من الاستدلالات الجغرافية . وهى وإن كانت فى حد ذاتها معقولة إلا أنها ليست بالضرورة الطرق التى لابد وأن الهجرات قد عبرتها ، إلا إذا استندنا إلى أدلة دامغة. هذه الأدلة كما قلنا مازالت فى مرحلة التجميع فى صورة الدراسات الحقلية العديدة بين القبائل والدراسات التاريخية التى تتكشف بواسطة الوثائق التى يعثر عليها بين الحين والحين وبواسطة استكمال دراسات ما قبل التاريخ .

وحتى يتم ذلك ، فإن الطرق التى استخلصتها الجغرافيا والتى تأكدت بعض الشىء من جانب العلوم الأخرى ، لا تزال تكون الأساس الذى نبنى عليه احتمالات الهجرات البشرية والحضارية فى أفريقيا. وأهم هذه الطرق هى:

خريطة رقم (١)

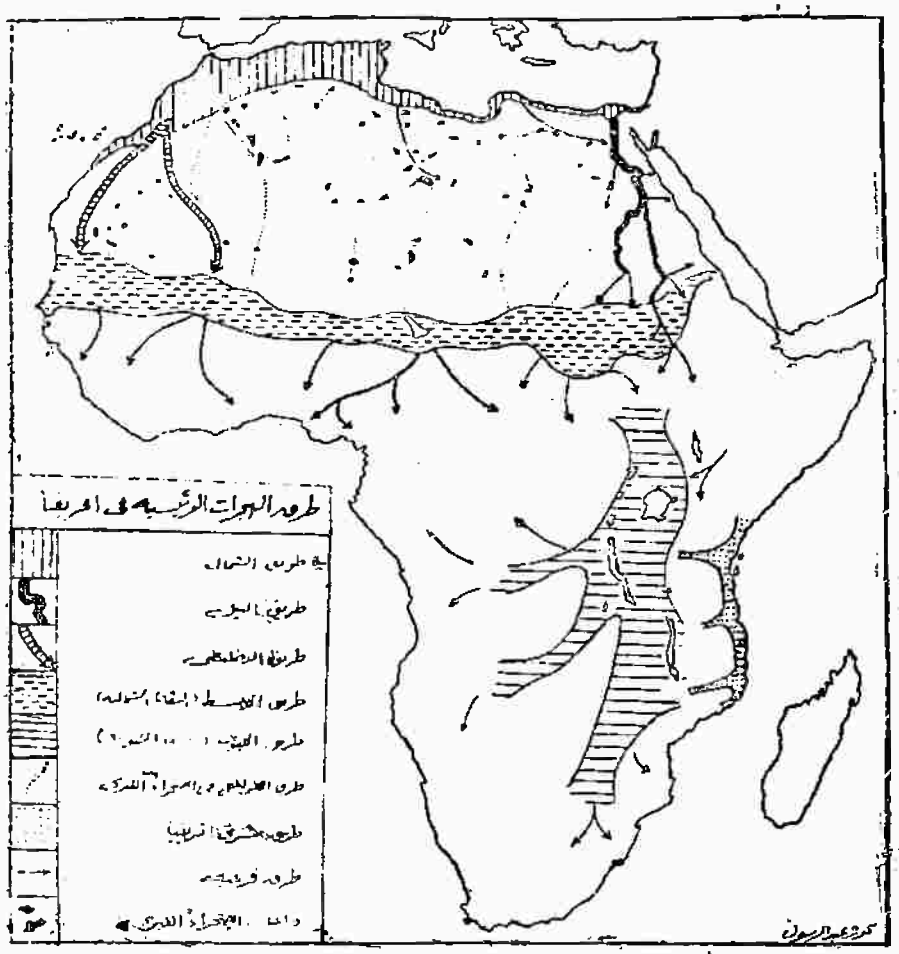

١ — طريق الساحل الجنوبى للبحر المتوسط من سيناء إلى طنجه .

٢ — طريق النيل عبر الصحراء الكبرى من دلتا النيل إلى نطاق السفانا فى أواسط جمهورية السودان .

٣ — طريق الأطلنطى من جنوب المغرب الأقصى حتى وادى السنغال والنيجر الأوسط .

٤ — طريق السفانا الشمالى من سفوح الهضبة الحبشية شرقا إلى سهول سنجامبيا غربا .

٥ — طريق السفانا الجنوبى من وادى النيل الجنوبى عبر هضبة البحيرات إلى جنوب شرق وجنوب غرب القارة .

٦ — طرق عديدة عبر الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب عبر الواحات العديدة .

٧ — طرق نطاق الساحل الشرقى من زنجبار إلى موزمبيق تتوغل فى الداخل إلى شرق الكنغو وإلى روديسيا الجنوبية .

٨ — طرق من منطقة البحيرات العظمى جنوبا بغرب إلى جنوب الكنغو وساحل أنجولا .

هـذا إلى جانب العديد من الطرق الفرعية التى تتوغل بعيداً عن مسارات الطرق الرئيسية وخاصة طريق البنوى وطريق الفولتا فى غرب أفريقيا ، وطريق شارى إلى أطراف الغابات الاستوائية فى شمال الكنغو ، وطرق الأودية الجبلية فى الهضبة الحبشية .

والطريق الأول وهو طريق البحر المتوسط طريق مأمون سهل وقد سارت فيه الهجرات البشرية والحضارية منذ أقدم الوثائق المكتوبة . كما أنه كانت تشترك فيه المواصلات البحرية إلى جانب البرية . وكان بذلك الواجهة الرئيسية للاختلاط الحضارى فى محيط البحر المتوسط . ففيه اشتركت أولا الحضارات المصرية القديمة والبربرية ، ثم الاغريقية والفينيقية

والرومانية والسامية القديمة والاسلامية . كذلك لانستبعد وصول مؤثرات جنوبية إلى هذا الاقليم عبر طرق النيل والأطلنطى . وللطريق تفرعات جنوبية محدودة إلى مجموعة الواحات الشمالية فى الصحراء الكبرى ، نذكر منها طريق وادى ساوورا أو طريق النخيل من جنوب شرق المغرب إلى واحات تيدكلت ، وطريق طرابلس غدامس ـ مرزوق ، وطريق جغبوب ـ سيوه البحرية ـ البهنسا أو الفيوم والطريق عامة محدود فى الشرق بالشريط الساحلى من غرب الدلتا إلى تونس ، وبعد ذلك يتسع ويتشعب بإتساع مناطق الماء والنبات فى أفريقيا الأطلسية .

أما الطريق الثانى فهو محدد واضح ومرتبط ارتباطاً شديداً بالوادى الضيق للنيل بين رأس الدلتا ومنطقة أسوان ـ دراو . وله فى هذه المنطقة فرعين هامين : الأول بين ثنية قنا وساحل البحر الأحمر ، والثانى بين أسيوط والواحات الخارجة والداخلة ، ولسنا نعرف إذا كان إمتداد الطريق من الخارجة إلى كوبى فى شمال دارفور — وهو المعروف باسم درب الأربعين ـ قديم منذ العهود الفرعونية أم نشأ بعد انتشار العرب المهاجرين فى القرن الثالث عشر فى شمال السودان . وربما كان معروفاً فى العهد الفارسى فى مصر إذ نقرأ عن هلاك قمبيز وجنوده فى الصحراء . ولا ندرى هل كان متجهاً إلى واحة آمون (سيوه) أم إلى مملكة نباتا ؟ (٥)

وفيما بين دراو وأسوان يتشعب الطريق الرئيسى للنيل . فهناك شعبة هامة تسير محاذية لثنيات النيل حتى جنوب دنقله عند التقائه بوادى الملك ووادى مقدم ويتجه وادى الملك إلى الجنوب الغربى حتى شمال دارفور ، ويؤدى وادى المقدم إلى شمال كردفان ، وكلا هما ينتهيان بهذا الشكل فى نطاق السفانا — أى الطريق الرابع — أما الشعبة الثانية فغالباً ما تستخدم وادى

(٥) Bovier-Lapierpe & H. Gauthier, & P. Jouguet, 1932. "Précis de l'Histoire d'Egypte". Le Caire. P. 213.
أيضا . Breasted, J. H., 1912. "History of Egypt". London. P. 383.

قبقبة إلى ثنية النيل عند أبو حمد ، أو إلى بربر ومنها إلى البحر الأحمر أو ارتريا أو شمال أثيوبيا أو إلى الجزيرة . وهكذا فشعبة الطريق النيلى من أسوان إلى الدبة شعبة هامة لأنها تنتهى إلى بدايات طريق السفانا العظيم . أما الشعبة الشرقية بين دراو وبربر فتنتهى إلى الجزيرة وشرق السودان وأثيوبيا فقط على الوجه الأغلب . وأخيراً فهناك من منطقة إدفو — أسوان طرق محلية عديدة الى الشرق إلى البحر الأحمر . وربما كانت هناك طرق أخرى غرباً إلى الواحة الخارجة وخاصة من منطقة إدفو .

وطريق النيل على هذا النحو ضيق فيما بين الدلتا وأسوان ، ويتحدد بواسطة وادى النيل لأنه هنا يخترق نطاقا شديد الجفاف من الصحراء الكبرى . واستمراره الجنوبى بين أسوان والدبه استمرار طبيعى لأنه يقطع أيضا الصحراء الجافة . أما طريق دراو — قبقبه — بربر ، فهو وإن كان صعباً من حيث موارد المياه حتى بالنسبة لقوافل الإبل ، إلا أنه كان معروفا منذ عصور سحيقة . فقد استخدم كطريق أساسى للوصول إلى مناجم الذهب والمعدن فى الصحراء الشرقية والصحراء النوبية — ويبدو أن آباره كانت أكثر ماءا مما هى الآن لأن الحمير كانت تمثل حيوان النقل الأساسى فى المنطقة — مالم يكن الجمل قد ظهر ايضاً .

والطريق الثالث هو طريق الأطلنطى ، ولاشك أنه قد ساهم بشدة فى نقل الهجرات والحضارات من شمال غرب أفريقيا إلى غرب أفريقيا — وعلى الرغم من أنه لا توجد مجارى نهرية فيه — مثل طريق النيل — إلا أن موريتانيا مليئة بالآبار الغنية لدرجة أن عددا من قبائل موريتانيا من العرب والبربر ، مثل التارارزا وأولاد دليم والرقيبات يقتنون الأبقار ويرعونها متجولين فى هذه الآفاق الصحراوية . ولاشك أن كثرة الأبقار والخيل تعطى فكرة جيدة عن مدى الأمان الذى يمكن أن تشعر به الهجرات البشرية من وادى دراع الى سنغال — هذا إذا طرحنا من حسابنا عدم الأمان المرتبط بكثرة

العصابات فى الاقليم ، وهى العصابات التى عانت منها فرنسا الشىء الكثير . فهنا لايمكن حصر العصابات فى مناطق الواحات أو موارد الماء القليلة كما فى الصحراء الليبية مثلا ، بل هنا تتعدد وتنتشر موارد المياه وتتوزع بكثرة . ولاشك أن غنى موريتانيا بمصادر الماء قد جعلها محط أطماع القبائل العربية أكثر من منطقة الحجارا — أو تيستى — ومن ثم نلحظ أن العنصر العربى وهو الذى كان يعد فى تلك المناطق إبان الفتوح فى أفريقيا العنصر الأقوى، ومازال له هذه الصفة حتى الآن . قد اختار وتركز فى موريتانيا بدرجة لانظير لها فى الصحراء الكبرى ، فاذا اختار العنصر ذو السيادة الثقافية والسياسية هذه المنطقة ، فلا شك أنه بنى ذلك على مدى ماتعطيه له من أمان اقتصادى وإبقاء على التنظيم القبلى التقليدى .

وينتهى هذا الطريق إلى السنغال وإلى أواسط النيجر . وقد كان طريق النيجر الأوسط من الأهمية بحيث اختاره القائد المغربى دويدار عام ١٥٩٠ طريقا ليسير فيه جيشه الى تمبكتو وجاو ليقضى على مملكة سنغاى[٦] . ويمر هذا الطريق من وادى دراع جنوبا إلى أقليم الحنك والجوف الى تاودينى أروان وأخيراً إلى تمبكتو . وكلا الشعبتين لطريق الاطلنطى تنتهى الى الطرف الغربى لطريق السفانا العظيم ، وبذلك يتماثلان مع طريق النيل .

الطريق الرابع هو طريق السفانا العظيم ، وهو يسير محاذيا للنطاق العشبى بعرض القارة من الحبشة إلى الأطلنطى . ويكاد ينصفه منطقة تشاد . هذا الطريق مازال يستخدمه الحجاج من السنغال الى سواكن وبور سودان ثم عبر البحر الأحمر الى جدة ومكة . ويعد هذا الطريق — حسب الدراسات الحضارية الجنبية الحالية — من الطرق الهامة جداً فى أفريقيا لأنه يتلقى فى طرفيه الشرقى والغربى الهجرات المنتظمة البشرية والحضارية عبر الصحراء الكبرى ، ليلتقى بها فى نطاق عريض ضخم يغطى كل ما فى أفريقيا جنوب الصحراء .

---

(٦) راجع Westermann, D., 1952. "Geschichte Afrikas". Koln, P. 101.

ونظراً لضخامة الطريق وتشعب الطرق الفرعية منه فقد كان به أكثر من مركز ثانوى لانتشار الناس والحضارات . هذه المراكز الثانوية كان من أضخمها وأهمها دارفور ، تشاد ، السنغال ، إلى جانب مراكز أخرى فى شمال كردفان ، وفى واداى ومنطقة الهوسا ، والنيجر الأوسط . وفى كل هذه المراكز نجد اختلاطاً هائلا من السلالات والحضارات ، وأيضاً من الدول السياسية خلال العصور الوسطى . ومن هذه المراكز انتشرت الطرق الفرعية جنوباً . من دارفور جنوباً إلى بحر الغزال ودارفرتيت إلى أطراف الغابات الاستوائية . ومن تشاد مع نهرى شارى واللجونى جنوباً فى باغرمى وبنوى الأعلى وأدماوا . ومن السنغال جنوباً إلى فوتاجالون ومن شمال كردفان إلى النيل الأبيض والجزيرة . ومن الجزيرة مع النيل الأزرق وديسا إلى كافا . ومن النيل الأبيض إلى السوبات وبحر الجبل إلى هضبة البحيرات ومن نطاق الهوسا إلى وسط وجنوب نيجيريا . ومن النيجر الأوسط إلى حوض الفولتا .

وعلى طول هذا الطريق هاجر الداجو وأحلافهم من الشرق إلى دارفور ومنها إلى شمال بحر العرب ودار سيلا . وقبلهم هاجرت العناصر الحضارية التى شكلت النظام الدينى السياسى للنيليين فى جنوب السودان وأوغندا . وبعد الداجو هاجر التنجور بين دارفور وتشاد ثم العرب المسلمين الذين عربوا تماماً كردفان وجنوب دارفور وامتدوا إلى واداى وبرنو . وعلى الطريق أيضاً هاجر الفولانى من فوتاتورو فى السنغال شرقا إلى ماسينا وشمال نيجيريا وهضبة أدماوا فى الكمرون ، وجنوباً إلى فوتاجالون .

وعبر هذا الطريق أيضا هاجرت عناصر حضارية لتعطى للجوكون فى أعالى النيوى واليوربا فى جنوب غرب نيجيريا الأكان فى وسط جمهورية غانا تلك المميزات المقدسة للزعامة السياسية وتلك الاتجاهات الفنية التى تميز صناعات صب النحاس وتشكيل الذهب والعاج فى قبائل البنين واليوربا

والأشانتى ، وتنشر زراعة الدخن وصناعة النسج على الأنوال الضيقة والعريضة التى تميز أفريقيا الغربية[٧] .

أما الطريق الخامس فهو طريق السفانا الجنوبية . ويبدأ من أعالى النيل فى جنوب السودان إلى منطقة البحيرات العظمى متجنبا الحدود الشرقية لغابات الكنغو ومناطق شبه الجفاف حول بحيرة رودولف وشمال كينيا حيث يعيش البوران — أحد الفروع الهامة للجالا الرعاة . وعلى طول هذا الجزء من الطريق تكونت — كما فى رأى معظم الانثروبولوجيين — شعب البانتو الذى عمر أفريقيا جنوب خط الاستواء . وكذلك يتشابه فيه النظام السياسى للحكم سواء كان ذلك عند البانتو فى البحيرات العظمى أو غيرهم من الشعوب مثل تنظيمات التوسى والهيما السياسية حول منطقة كيفو .

وإلى الجنوب من منطقة البحيرات تتشعب الطرق ، منها ما يصل إلى الشاطىء الشرقى لأفريقيا ليجلب عدداً من العناصر الحضارية — وربما المجموعات البشرية — من آسيا . وهو الذى عبرنا عنه بالطريق السابع . وطرق أخرى تتجه غرباً إلى المحيط الأطلنطى بعد أن تتجنب نطاق الغابات الإستوائية . وعلى طول هذا الطريق تكونت الممالك المقدسة التى تتشابه كثيراً مع مثيلاتها فى منطقة البحيرات[٨] . ومن أمثلة الممالك المقدسة هذه مملكة الباكوبا عند التقاء نهر كساى برافده زانكورا . وهذا هو ما أسميناه بالطريق الثامن . وهناك امتداد جنوبى عبر نطاق السفانا إلى روديسيا والترنسفال . ولا شك أن مجموعة البشمن والهوتنتوت قد عبرت من شرق أفريقيا على طول الطريق الخامس هذا حتى وصلت الى أوطانها الحالية تحت التأثير والضغط الناجمين عن توسع البانتو .

---

(٧) راجع فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم رياض ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ .

(٨) راجع رياض ١٩٥٩،
وراجع أيضا J. P. Grazzolara, 1950-51-53. "The Lwoo" Verona.

هذه هى أهم الطرق التى تتمشى مع المنطق الجغرافى وتسندها فى أحيان الدراسات الانثروبولوجية وغيرها من العلوم التى سبق ذكرها . وإذا كنا نذكرها فى الوقت الحاضر ونحن غير متأكدين تماما ، فمن ثم لا نعجب أن الرواد الأول الذين تكلموا عن الحضارات فى أفريقيا قد أخطأوا أو جعلوا موجات الحضارة تسير حيث كاد السير يستحيل .

مراحل دراسة الحضارات الأفريقية

وقد مرت دراسة الحضارة فى أفريقيا بعدد من المراحل بعضها قضى عليه تماما والآخر ما زال مجالا للأخذ والرد . وعلينا أن نلاحظ من البداية أن معظم العلماء الذين عالجوا الموضوع الحضارى فى أفريقيا كانوا من الألمان . ذلك أن معظم الإنجليز حينما ساهموا بالدراسات الانثروبولوجية فى أفريقيا كانت فكرة المنهج الوظيفى قد سيطرت عليهم ، وبالتالى لم يعن انثروبولوجى انجليزى معاصر بدراسة الحضارات الأفريقية ككل ، انما ركزوا جهودهم فى الدراسات التحليلية لعدد من الجماعات الأفريقية وعن طريق منهج محدود يجعل الكثير منهم لا يهتم بالدراسات الحضارية المتكاملة بما فيها أعماقها التاريخية . كذلك انشغل الاثنولوجيين الفرنسيين فى أفريقيا بعدد من الدراسات التى برعوا فيها ، وخاصة الدراسات المرتبطة بالعقيدة والديانة . أما الألمان فقد درسوا موضوع الحضارة المادية بما فيه من نظم اقتصادية ومناهج بناء المساكن وحرف صنع الأدوات والأسلحة والملابس والتخزين وما إلى ذلك إلى جانب الدراسات الحضارية الأخرى كنظم السن والزواج والدين والسياسة الخ . . . ومن ثم اكتملت لدى الألمان صور أوضح عن الحضارات الأفريقية ككل متكامل . ونحن لا نكاد نشك فى أن ذلك الدافع الذى جعل الألمان يقفون هذا الموقف بالنسبة للدراسات الانثربولوجية راجع إلى أن نشأة الانثربولوجيا الأولى قد اشتقت من عدد من الدراسات الجغرافية الألمانية والجغرافيين الألمان الذين تخصصوا

بشدة وعمق فى الجغرافيا الاجتماعية ، نذكر من هؤلاء الأستاذين « راتزل » Ratzel و « هان » Hahn . وإن كان راتزل قد اشتد فى فكرة الحتمية إلا أن هان كان له الفضل فى تحطيم فكرة حتمية تتابع الجمع — الرعى — الزراعة كنظم اقتصاد لمراحل حضارية متتابعة . على أية حال فإن ارتباط الانثربولوجيا الألمانية المبدئى بالجغرافيا قد أعطى ذلك العلم الجديد عند الألمان الدافع للبحث عن صور شاملة للحضارات المختلفة ودراسة توزيعات العناصر الحضارية ومحاولة تقصى أسباب التوزيع . هذا الإتجاه قد دفع بعدد من الأنثربولوجيين الألمان فى البداية إلى فكرة الأقاليم الحضارية والدوائر الحضارية . ثم عدل الكثير من الألمان عن هذه النظرية وإن ظلوا يدرسون أعداداً كبيرة من الظاهرات الحضارية مما لا يدرسها الانثربولوجى الإنجليزى وعدد من العلماء الأمريكيين .

أما المراحل التى مرت بها الدراسات الحضارية فى أفريقيا فهى كما يلى :

١ - المرحلة الآسيوية ، وفيها افترض أن الحضارات الأفريقية قد استمدت من جنوب شرق آسيا وأوشينيا ، فى صورة هجرات واسعة . وأوضح ممثلى هذه النظرية هما ليوفروبنيوس وبرنارت أنكرمان . ولم يعد أحد يؤيد هذه النظرية إلا فيما اختص بمدغشقر .

٢ — المرحلة الحامية . وقد بدأها سليجمان وأكد فيها أن عدداً من العناصر الحضارية فى أفريقيا ترجع إلى العنصر السلالى الحضارى الحامى . وما زال هناك أخذ ورد فيما قاله سليجمان حتى الآن .

٣ — المرحلة السودانية : وهى التى بدأها فيلى شيلده وطورها باومان وأكدا فيها الأصل السودانى لعدد من العناصر الحضارية المنتشرة فى أفريقيا . وهذه الفكرة أيضاً مجال للأخذ والرد بين المؤيدين وغيرهم .

٤ — وفيما بين هذه المراحل كلها كانت هناك نظرية الأصل المصرى القديم لعدد من العناصر المنتشرة فى أفريقيا . هذه النظرية لا تمثل مرحلة قائمة بذاتها ولكنها نظرية شاعت خلال هذه المراحل الثلاثة وأكدها كثير

من الكتاب فى دراساتهم المختلفة — حتى سليجمان وباومان لم يسلما من التأثر بها .

وأياً كانت المرحلة فإن العلماء المختلفين قد اتفقوا على فكرة واحدة : إن حضارات أفريقيا قد تعرضت لتأثير الهجرات البشرية والحضارية ، سواء كان ذلك من الداخل أو من الخارج . وفيما يلى نعرض لهذه المراحل الهامة فى الدراسات الأفريقية .

النظرية الآسيوية

ليوفروبنيوس (٩) Leo Frobenius

كان ليوفروبنيوس أقدم العلماء الذين حاولوا دراسة الحضارات الأفريقية وتقسيمها منهجياً إلى مجموعة من الحضارات ذات الصفات المتشابهة ولم يكن فروبنيوس أقدم الدارسين للحضارات الأفريقية فقط ولكنه كان أكثرهم كتابة عن أفريقيا ودراسة لمشكلاتها من واقع أبحاثه الحقلية العديدة التى بدأها مبكراً فى الكنغو فى الربع الأخير من القرن الماضى وترتب على دراساته العديدة أن غير وبدل فى وجهة نظره عن الحضارات الأفريقية عدة مرات ، مما جعل دراسته تكاد تكون دراسة لتطور المعرفة عن الحضارات الأفريقية . ويمكننا أن نلخص آراءه العديدة على النحو التالى :

فى سنة ١٨٩٧ انتهى فروبنيوس إلى أن أفريقيا قد استمدت حضاراتها من الحضارات التى توجد فى أوشينيا وجنوب آسيا الشرقى ولهذا فإنه يسمى الحضارة الأفريقية باسم الحضارة الأفريقية الغربية لأنها قد هاجرت إلى

---

(٩) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم فروبنيوس أهم مؤلفاته .

غرب أفريقيا تحت تأثير موجات بشرية وحضارية أحدث فى شرق أفريقيا .

ولكنه سنة ١٨٩٨ يعود فينشر بحثاً عن ، أصل الحضارات الأفريقية
"Der Ursprung der Afrikanischen Kulturen"

وفى هذا البحث يرى أن هناك أربع حضارات فى أفريقيا هى :

١ — الحضارة الزنجية . ٢ — الحضارة الزنجية الملايوية .
٣ — الحضارة الآسيوية . ٤ — الحضارة الأفريقية .

وقال إن الحضارة الزنجية الموجودة فى أفريقيا مشتقة أصلا من الحضارة القديمة التى توجد فى غينيا الجديدة وجنوب شرق آسيا وأوشينيا . وقد وفدت إليها عناصر هذه الحضارة قديماً جداً . أما الحضارة الزنجية الملايوية وهى التى يعود فروبنيوس فيطلق عليها اسم الحضارة الأفريقية الغربية فمن المحتمل أن تكون قد نشأت فى جنوب شرق آسيا ثم انتشرت عرضاً إلى أفريقيا ولكن بعد أن ثبتت الحضارة الزنجية أقدامها فى أفريقيا .

وفيما يختص بالحضارة الآسيوية فإن فروبنيوس وإن كان فى أحد المرات قد أدمجها ككل مع حضارات آسيا سواء كانت الحضارة البابلية أو الهندية أو الصينية إلا أنه يعود فيقسم الحضارات الآسيوية إلى قسمين : الحضارة الآسيوية الأصلية والحضارة الهندية — الصينية
"Die Eigentlich Asiatische und Die Indisch-Chinesische".

ويقول إن الحضارة الآسيوية التى توجد فى أفريقيا يقصد بها الحضارة الآسيوية الأصلية التى توجد فى جنوب غرب وغرب آسيا وليست الحضارة الهندية أو الصينية .

أما الحضارة الأخيرة وهى التى أطلق عليها فروبنيوس اسم الحضارة الأفريقية فيقول إنها نشأت فى أفريقيا على أثر الاختلاط والتشابك بين الحضارات الزنجية والزنجية — الملايوية والآسيوية .

ولعل أهم ما يميز آراء فروبنيوس المبكرة هذه أنه ميز بين الحضارتين الزنجية والزنجية — الملايووية على أنهما حضارتا أخشاب فى حين أن الحضارتين الآسيوية والأفريقية حضارتا جلود . وبعبارة أخرى النوعين الأوليين من الحضارات الأفريقية تعيشان فى مناطق الغابات ؛ أو السفانا الشجرية ويتكون اقتصادهما الأساسى من الزراعة ، على حين أن النوعين الآخرين تعيشان فى مناطق الرعى الطبيعية فى أفريقيا سواء كان ذلك شمال شرق القارة أو شمالها أو نطاقات السفانا الرعوية .

وأخيراً فى الفترة ما بين أعوام ١٩٢١ و١٩٢٩ يتابع فروبنيوس أبحاثه ويعدل من آراءه عن الحضارة فى أفريقيـــا ، وتكتمل صورة ذلك فى أطلسه الأفريقى . Atlas Africanus وفى هذا يرى فروبنيوس أن هنـاك حضارتين قديمتين Urkulturen هما الحضارة الأثيوبية والحضارة الحامية. وتفرعت عنهما أربع حضارات فرعية تاريخية هى :

١ - الارترية الشمالية .

٢ — الارترية الجنوبية .

٣ — السرتية (نسبة إلى خليج سرت) .

٤ - الأطلنطية .

وفى هذا التعديل الجديد نجد أن فروبنيوس يدمج ما سبق أن ذكره عام ١٨٩٨ عن الحضارتين الزنجية وغرب افريقيا فى الحضارة الاثيوبية ، ويرى فروبنيوس أن الحضارة الارترية الشمالية تظهر بوضوح فى أثيوبيا وشمال افريقيا أما الحضارة الارترية الجنوبيـة فتتركز فى نطاق السفانا فى جنوب القارة وخاصة فى روديسيا حول حضارة مونوموتابا ومركزها زمبابوى . وعلى الرغم من انفصال موقع الحضارتين جغرافيـــاً ، ووجود فاصل من حضارات أخرى فيما بينهما . مما يجعلنا نتشكك فى آراء

فروبنيوس ، إلا أنه يؤكد أن الحضارتين أصلا حضارة واحدة يسميها الحضارة الإرترية الوسطى قبل أن تتفرع إلى فرعيها الشمالى والجنوبى .

أما الحضارة السرتية فتمثل عند فروبنيوس عناصر من الحضارة القديمة للبحر المتوسط دخلتها واندمجت فيها مؤثرات حضارية من الشرق الأدنى . ثم تسربت هذه الحضارة جنوباً إلى السودان الغربى ، وغرب أفريقيا ، فأصبح أكبر مركز لوجودها هو تلك المنطقة الممتدة من مصب السنغال إلى بحيرة تشاد وجنوباً إلى دوالا وجبل الكمرون .

وأخيراً تنتشر الحضارة الاطلنطية — وهى أيضاً مكونات من عناصر حضارة البحر المتوسط القديمة — فى المنطقة الساحلية بين مصب السنغال ومصب النيجر .

هذه خلاصة لآراء فروبنيوس التى لا يقبلها سوى عدد من تلامذته نذكر منهم وعلى رأسهم الأستاذ A. Jensen[١٠].

برنارت أنكرمان B. Ankermann

ويعد أنكرمان فى البداية مرتبطا ومتأثراً بآراء فروبنيوس ، ولكنه يعتمد إعتماداً كبيراً على دراسات وتحليلات جرابنر F. Graebner لحضارات البحار الجنوبية مما يؤدى به إلى الاعتقاد بوجود ست حضارات أولية فى أفريقيا هى :

---

(١٠) تخصص الاستاذ ينسن فى الدراسات الحضارية الافريقية ونذكر من اهم مؤلفاته ما يلى :

Jensen, A., 1931-32, "Die Staatlich Organisation und historischen Uberlieferungen der Barotse am Oberen Zambesi" Wurttemburg — 1936 "Im Land des Gada" Stuttgart. — 1959 "Altvolker Sud-Athiopiens" Stuttgart.

١ — الحضارة الزنجية التى تتفق مع أقدم حضارات أستراليا .

٢ — الحضارة الغربية لأفريقيا التى تتفق مع الحضارة التى أطلق عليها جرايبنر اسم حضارة ماقبل الملايو وشرق بابوا. ولكنها فى أفريقيا تختلف لوجود عناصر أحدث أخرى يحتمل أن تكون أصلا من أندونسيا .

٣ — حضارة تشابه تلك التى أسماها جرايبنر حضارة بابوا الغربية .

٤ — حضارة السودان الغربى وتتشابه مع حضارات الهند البعيدة (بورما — سيام) ولكن أنكرمان لا يعرف الأصل الذى نشأت عنه تلك الحضارة السودانية .

٥ — الحضارة الحامية أو السامية القديمة فى السودان وشرق وجنوب أفريقيا .

٦ — الحضارة السامية أو العربية وتظهر فى نطاقات الحضارة الحامية وإن كانت أحدث .

ويرى أنكرمان أن الحضارة الزنجية هى بقايا الحضارة الأصلية للسلالات السوداء عامة قبل أن تهاجر شعوبها إلى أفريقيا غربا وجنوب شرق آسيا وأوشينيا شرقا .

أما الحضارة الغربية الأفريقية فلا يعنى أصلا أنها تتوطن فى الأقليم الغربى الجغرافى من أفريقيا بل يسميها كذلك لأنها الانتشار الغربى للحضارة الأفريقية التى تظهر فى جزيرة غينيا الجديدة . ولهذا فإن منطقة دخول هذا النوع الحضارى كان أولا مدغشقر ثم منطقة مصب الزمبيزى . ويقول إن

---

(١١) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم انكرمان اهم ما الفه خاصا بأفريقيا .

الإتصال ظل مستمراً فترة طويلة عبر مدغشقر ثم انقطع إتصال مدغشقر بالساحل الأفريقى المقابل وإن ظل اتصالها فترة أخرى بجزائر الهند الشرقية والملايو . ثم جاءت هجرات الجماعات حاملة الحضارة الجديدة الحامية من مركز ثانوى لها فى منطقة البحيرات العظمى . وأدى ذلك إلى طرد بقايا السكان حاملى الحضارة الأفريقية الغربية إلى نطاق الغابات غرباً حيث انعزلوا تماما فى تلك الأوطان الجديدة . وهنا يعود أنكرمان فيشير إلى أن هذه الحضارة تتوطن الإقليم الجغرافى الغربى من أفريقيا .

ولكى تتفق تلك الآراء فقد كان لابد على أنكرمان أن يؤكد أن منطقة شرق أفريقيا ومنطقة تنجانيقا على وجه الخصوص كانت عبارة عن المركز الخطير الذى تداخلت فيه الحضارات والموجات البشرية سواء تلك القادمة من الشرق عبر المحيط الهندى أو تلك القادمة من الشمال . وهو لهذا يجد بقايا عناصر حضارية تمتد إلى أصل الحضارات الزنجية والغربية الافريقية والحامية إلى جانب خليط من هذه الحضارات مع عناصر حضارية سامية عربية فى منطقة ساحل شرق أفريقيا .

ويؤكد أنكرمان أن أقليم أثيوبيا الجغرافى هو أقل أجزاء أفريقيا أفريقية ومع ذلك فلم ينج من تأثيرات الاختلاط والتشابك نتيجة لوجود جيوب زنجية فيه . أما أقليم السودان الطبيعى فيرى فيه أنكرمان مشكلة المشاكل . فبين أعالى النيل وأعالى النيجر يعتقد أنكرمان بوجود حضارة متواحدة قديمة هى ما يسميها الحضارة السودانية القديمة . وعلى الرغم من تشابهها العام إلا أن توزيعها الجغرافى الشاسع قد أدى إلى وجود إختلافات نتيجة العلاقات المكانية . ومن ثم ظهرت ارتباطات حضارية كبيرة مع مصر وبدرجة أقل وفى تاريخ أحدث مع الهند . ثم خضعت هذه الحضارة بعد ذلك للحضارة الإسلامية وعديد من عناصر الحضارة فى شمال أفريقيا وفى آسيا . وقد وفدت تلك العناصر الحضارية إما عن طريق النوبة

وكردفان ودارفور إلى تشاد وإما عبر دروب الصحراء الكبرى العديدة التى تصل البحر المتوسط بالسودان الغربى .

أما البانتو فيعتبرهم أنكرمان اما أنهم ممثلين للحضارة الغربية الأفريقية أو حضارة الحاميين فى شرق وجنوب أفريقيا . ويقول : إن حضارات البانتو تماثل حضارات زنوج السودان . فقد تأثرت بالاختلاط فيما بينها ، ثم تأثرت بالاختلاط مع عناصر الحضارة الآسيوية لدرجة أنها قد تحولت وتبدلت بإضافة عناصر جديدة لدرجة لا نستطيع معها أن نشاهد لها شبيها فى أفريقيا . هذا الحل الذى يجده أنكرمان لحضارة البانتو يجعل من مشكلة البانتو الحضارية معضلة غير قابلة للحل .

وإلى جانب هذه الآراء يرى أنكرمان أن الأقزام والبشمن سلالة واحدة وأن الهوتنتوت هم سلالة خليطة بين البشمن والحاميين أو الساميين القدماء ، وأن هذا الاختلاط قد حدث فى المنطقة بين نهرى الزمبيزى واللمبوبو أو على الأرجح إلى الشمال قليلا .

وآراء أنكرمان هذه وإن لم يأخذ بها أحد سواه إلا أنها عاشت فى صورة معدلة ومطورة فى آراء تلميذه الأستاذ باومان كما سيجىء ذكره فيما بعد . ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن آراء باومان بالنسبة للحضارات الأفريقية آراء مقبولة ومن ثم فإن بعض الفضل فى نجاح باومان لابد وأن يعود إلى الأستاذ أنكرمان .

فلهلم شميت (١٢) W. Schmidt

لم يتكلم شميت عن أفريقيا نتيجة دراسة حقلية ، ذلك أنه كان من النوع

---

(١٢) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم شميت أهم ما ألفه خاصا بمشكلة الاقزام فى العالم .

من الدارسين الذين يطلق عليهم أساتذة الدراسة النظرية . ومن ثم فإن شميت لم يتخصص فى دراسة الحضارة الافريقية وحدها ، بل كان يعالج الحضارات العالمية ككل . ودوره فى الدراسات الافريقية وإن كان محدوداً بعدد من الموضوعات منها دراساته الكلاسيكية « لأصل فكرة الإله » إلا أن ذلك قد أثر على آرائه الخاصة بالحضارة الأفريقية . وأهم ما قاله شميت فى ذلك نظريته الخاصة بالأقزام . فقد قال إن الأقزام فى أفريقيا (وهو يدرج تحت مصطلح الأقزام كل من أقزام الكنغو وشعب البشمن فى جنوب غرب أفريقيا) يتحدون فى الأصل والنشأة مع أقزام أوشينيا وجنوب شرق آسيا . وهذا القول إن كان ينطبق على أقزام الكنغو وأقزام الشرق إلا أنه لا ينطبق على البشمن إطلاقا . وتطرق شميت من أبحاثه عن الأصوله السلالية للأقزام إلى القول إن حضارة الأقزام فى الكنغو تمثل الصورة الأصلية للحضارات الأولى للإنسان . أما أقزام آسيا فقد تأثروا بعدد من العناصر الحضارية أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلى فى الكنغو إلى أوطانهم الحالية ، وكذلك تأثر البشمن بعناصر غريبة أثناء تحركهم جنوبا .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يقبل آراء شميت فى الوقت الحاضر ، إلا أنه نشر كلامه هذا عام ١٩١٠ ، وبذلك كان أول من بدأ مشكلة الأقزام فى الدراسات الأنثروبولوجية ووجه إليها من العناية ما جعل عدداً من الباحثين أن يتخصصوا فيها نذكر من أهمهم تلميذاه الأستاذ باول شبستا P. Schebesta والأستاذ فان بولك Gaston Van Bulck وعلى هذا فإن شميت ، وإن لم يوفق فى آرائه ، فإنه قد سد النقص الذى تركه كل من فروبنيوس وأنكرمان ، وذلك بتوجيه الأنظار إلى مشكلة الأقزام .

---

(١٣) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم جونستون اهم مؤلفاته .

هارى جونستون (١٣) H. Johnston

على الرغم من أنه من الصعب القول إن جونستون قد تأثر بآراء كل من فروبنيوس وأنكرمان إلا أن ذلك يبدو أقرب إلى الواقع . ذلك أن أبحاث جونستون محدودة بعض الشيء فى مناطق معينة من آفريقيا ، خاصة شرق أفريقيا وأجزاء من غرب أفريقيا . وفى عام ١٩١٣ قال جونستون إن أقزام الكنغو عبارة عن نوع بدائى من الزنوج قصرت قامتهم ، وأنهم ربما كانوا أقدم عناصر الزنوج التى غزت أفريقيا . كذلك يقول أن البشمن نوع آخر من أشباه الزنوج تدهوراً جسمياً وتخصصوا فى صفاتهم الجسدية التى كسبوها . وقد صادفوا أثناء هجرتهم إلى جنوب افريقيا سكانا أقدم منهم فيهم تقارب طفيف بالقوقازيين هم مايسمون ستراندلوبرز Strandloopers

أما الهوتنتوت فهم عنصر فيه شبه طفيف بالحاميين القوقازيين ، وأن هجرتهم جنوبا قد حدثت قبيل هجرة البانتو وتعميرهم جنوب أفريقيا .

أما العناصر الزنجية فيرى جونستون أنها أقدم سكان القارة ، وأنها كانت تحتل الاقليم العريض بين الصومال والسنغال ويحدها شمالا الصحراء الكبرى وجنوبا حافة غابات الكنغو الاستوائية عند نهر الأوبانجى . فى هذه المساحة الشاسعة يرى جونستون أن الزنوج قد انقسموا فى صفاتهم الجسدية إلى قسمين : زنوج النيليين فى الشرق ، وزنوج الغابة فى الغرب . أما زنوج النيليون فقد تخصصوا فى حياة السفانا المكشوفة المستنقعية فى حين أن زنوج الغابة قد تشعبوا وتكون منهم الأقزام والبشمن .

وقد وقع زنوج النيليين تحت تأثير حضارى كبير من جانب الحاميين الذين يجاورونهم ، وإن كان هذا التأثير قد حدث فى مرحلة متقدمة وبالتالى ساهم فى إعطاء النيليين شكلهم الحضارى الراهن .

ويرى جونستون أن منطقة بحر الغزال الحالية وأعالى النيل تم فيها تكون أسلاف البانتو ، ومنها تحركوا جنوباً عبر منطقة البحيرات العظمى

التى أصبحت بعد ذلك مركزاً هاماً لتكون البانتو وانتشارهم فى بقية القارة.

ويرى جونستون أن أفريقيا تعرضت لعدد من الهجرات البشرية والحضارية من جنوب غرب آسيا ، وأن مصر قد استقبلت معظم هذه الهجرات فى عصور ما قبل التاريخ . وتصبح مصر فى رأيه مركزاً هاما تنتشر منه حضارات آسيا إلى السودان وأفريقيا الزنجية . أما الهجرات الفينيقية والرومانية فقد أثرت على شمال أفريقيا ، فى حين أن الهجرات العربية الاسلامية كانت واسعة النطاق فشملت شمال وشرق القارة. وأخيراً فإن التأثير الحضارى والبشرى القادم من الملايو وأندونيسيا قد تحدد بجزيرة مدغشقر دون الساحل المقابل لها . ويستند جونستون فى افتراضه ذلك إلى أن أثر الملايو لم يصل إلى جزائر كومورو أو زنجبار وبالتالى لم يصل إلى ساحل موزمبيق او شرق أفريقيا .

ونظريات جونستون الخاصة بالأقزام والبشمن لم تعد مقبولة ، ولكن آراؤه فى مجموعها تكون بدايات طيبة للصورة العامة التى أخذتها الدراسات الأفريقية فى مجالى السلالة والحضارة بعد ذلك .

النظرية الحامية

سليجمان [١٤] C. Seligman

يعد الأستاذ سليجمان من الباحثين الذين كان لهم دور هام فى الدراسات الحضارية الأفريقية ، بل إنه قد أثر على عدد من الدارسين اللاحقين له نذكر منهم [١٥] T. Irstam ،E. Brauer G. Lidblom [١٦] G. Murray

---

(١٤) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم سليجمان أهم مؤلفاته .

(١٥) من اهم ما كتبه الاستاذ Irstman فى الموضوعات الافريقية الكتاب التالى :

Irstam, T., 1944. "The king of Ganda. A study in the Institution of sacral Kingship in Africa" Stockholm.

(١٦) للاستاذ لندبلوم كتابات عديدة معظمها يتناول دراسة الحضارة المادية الافريقية . ومن أهم مؤلفاته :

Lindblom, G. 1916. "The Akamba" Upsala.

H. Wieschoff . كما أن آراؤه كان لها صدى فى أبحاث فروبنيوس الحديثة وباومان ومعظم الدارسين الأحدث منه لأفريقيا . هذا الأثر الكبير لأبحاث سليجمان ترجع إلى أنه كان أول من درس وحلل الكثير من الأبحاث الحقلية والكتابات التى كتبها من سبقوه عن أفريقيا ، إلى جانب أبحاثه الخاصة فى أفريقيا ، وخاصة منطقة النيليين فى أعالى النيل .

وقد انتهى سليجمان إلى عدد من الآراء الخاصة بنشأة عدد من سلالات أفريقيا ، كان أهمها أن النيليين هم خليط بين الحاميين وزنوج الغابة ، فى حين أن البانتو نتيجة خليط بين زنوج الغابة والحاميين القدماء . ويحدد سليجمان الصفات الأساسية للزنجى ويصف موطنه على أنه يشمل ماسبق أن ذكره جونستون : من السنغال حتى أعالى النيل ومن الصحراء إلى الحافة الشمالية للغابات الاستوائية . ويحدد الحاميين ويقسمهم بين الشرق والشمال ويدرج الاختلاط بينهم وبين الزنوج والبانتو حتى يصل إلى أنصاف الحاميين فى شرق أفريقيا . وأخيراً يصف الهجرات السامية العربية ودورها الحضارى فى شمال وشرق القارة .

وعلى الرغم من الجهد الذى قام به سليجان فى تصنيفاته السلالية فى أفريقيا إلا أنه من التعسف أن نقول إنه قد قسم أفريقيا إلى سلالات معتمداً على الخصائص الجسدية . بل إننا نرى أثر التقسيمات اللغوية والحضارية تلعب دوراً خطيراً فى أبحاث سليجمان بحيث أننا نرى نتائج مختلفة تماماً لأقسام السلالة والجنس فى أفريقيا عند الباحثين الجدد المتخصصين فى علم الأنثروبولوجيا الطبيعية .

إذن دور سليجمان الحقيقى يكمن فى آرائه عن الحضارات الأفريقية . وهو لم يول كل حضارات أفريقيا من الاهتمام مثلما أولى الحضارة الحامية من دراسة وبحث وتقصى وفلسفة . ومن ثم فإنه يمكننا فى إيجاز أن نقول

إنه لا يذكر سليجمان إلا ويذكر معه نظريته عن الحضارة الحامية القديمة على أنها مصدر الالهام والتطور والتشابه فى الحضارات الزنجية والبانتووية فى بقية القارة . هذا الاتجاه إلى تضخيم الأثر الحامى فى أفريقيا من جانب سليجمان ربما كان رد فعل لاتجاه جونستون إلى تضخيم أثر مصر فى الحضارات الافريقية . وقد قال سليجمان فى ذلك :

"...I hold that many common customs are but expressions of the wide diffusion of old Hamitic blood and ideas". (١٧)

وعلى الرغم من رأى سليجمان الخاص بالأثر الحامى السابق للمصريين وتشككه فى الأصل المصرى لكثير من المظاهر إلا أنه كان دائماً يعود فيقول إن هذه العناصر الحضارية قد انتشرت عن طريق مصر مما يعطى صورة مترددة بين الأصل الحامى والأصل المصرى لكثير من هذه العناصر الحضارية ذات الانتشار الواسع فى أفريقية . مثال ذلك أنه يقول : إن تشابه « عصى الرمى » بين قبائل الأنجسنا ودارفنج ومصر واضحة جداً وربما كان الاحتكاك السبب الرئيسى فى نقلها . ولكن انتشار هذا السلاح يجعل من المحتمل الاعتقاد أنه سلاح حامى قديم قد انتشر من مصر إلى أثيوبيا »(١٨) وفى المصدر نفسه يعتقد أن نوعا من أنواع الفخاخ المسمى عجلة الصيد Spiked wheel-trap الموجودة بين العبابدة واللانجو والأتشولى والنوير والناندى والشلوك والتركانا ، وكانت مستعملة فى مصر القديمة ، من تراث الحضارة الحامية . كذلك ذكر عادة ثنى قرون الماشية التى تنتشر بين النوير والدنكا والشلوك ووجدت فى مصر فى الأسرة الخامسة ، هذا بجانب العاطفة الخاصة نحو الماشية والتى تصل إلى درجة التقديس . ومن المظاهر الحضارية التى ذكرها أيضاً وشبهها بالحضارة المصرية ، عبادة الشمس بين قبائل البرون على حدود

---

(١٧) Seligman, C. G., 1934. "Egypt and Negro Africa" London, P. 8.

(١٨) Seligman, C. G., 1932. "Egyptian Influence in Negro Africa" P. 457.

أثيوبيا. وحفلات قتل الملك المقدس وتجديد مدة حكم الملك التى شبهها بحفلات «السد» المصرية. والطهارة الفرعونية المنتشرة بين دنكا الريك . هذا بجانب وجود الهارب الصغير المسمى Kundi بين الزاندى والذى يشبه الى حد كبير مثيله فى مصر القديمة .

هذا التردد فى آراء سليجمان بين الأثر الحامى القديم والأثر المصرى يحاول أن يعلله مرة على أساس النشأة المزدوجة للظاهرة الحضارية المتشابهة — أى إمكان نشوء الظاهرة الحضارية فى مركزين منفصلين ، ثم يعود فيقول إن ذلك التشابه يرجع إلى الأثر الحامى المشترك فى أجزاء كثيرة من أفريقيا .

وفى مرة أخرى يحاول سليجمان تفسير التناقض بين نظريته الحامية وفكرة التشابه العديد مع مصر الفرعونية فيصل إلى حل وسط كما جاء فى قوله[١٩] : إن مصر فيما قبل الأسرات هى أقدم وأحسن مثل للحضارة الحامية القديمة :

"...Hamitic Stock of which the pre-dynastic Egyptians are the oldest and best known representatives".

النظرية السودانية(*)

فيلى شيلده[٢٠] W. Schilde

على الرغم من أن فيلى شيلده لم يعمر طويلا (ولد عام ١٨٩٤ وقتل فى خلال

---

(١٩) Seligman, C. G., 1934. Ibid P. 57.

(٢٠) راجع فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم شيلدة اهم مؤلفاته .

(*) ليس المقصود جمهورية السودان وانما الحضارات التى تنتشر فى اقليم السودان الطبيعى الذى يمتد من حوض السنغال الى الهضبة الحبشية .

الحرب عام ١٩٤٢) إلا أنه ترك عدد من الأبحاث عن أفريقيا كلها كانت تنبيء عن فكر ثاقب ، ودراسات عميقة ، وإن لم يكون فكرة شاملة عن الحضارات الأفريقية ككل . وقد كان موضوعه المحبب دراسة الهجرات الحضارية والبشرية . ومن أهم الأبحاث فى هذا الموضوع مقاله المعنون ، « العلاقات الحضارية فى السودان » سنة ١٩٢٩ .

"Ostwestliche Kulturbeziehungen im Sudan".

وقد استخلص شيلده أن عادة القتل المقدس للملوك والزعماء الدينيين السياسيين التى تظهر فى عدد من الشعوب الأفريقية عادة ترجع إلى الحضارة السودانية ، وليس إلى الحضارة الحامية القديمة كما اقترح سليجمان . ذلك أن هذه العادة تتوزع أكثر بين الجماعات الزنجية التى تعيش على زراعة الفأس وبالتالى فإنها — بناء على نظرية فريزر — ترتبط بخصب الأرض الزراعية ووفاء المحصول . أما بالنسبة للرعاة الذين ينتشرون فى اقليم السودان فإن هذه العادة لا تظهر بينهم . كذلك يقول إن عادة قتل الملوك بين الآسر الحاكمة الحامية الأصل فى اقليم البحيرات العظمى والكنغو ليست حامية ، إنما أخذها الحكام عن الشعب الذين يحكمونه — وهم أصلا الزنوج المزارعين .

وصحيح ما قاله شيلده عن اقتصار توزيع عادة قتل الملوك على المزارعين الوثنيين فى الوقت الحاضر فى اقليم السودان . ولكنه تناسى أوفات عليه أن الرعاة الحاليين فى اقليم السودان إما عرباً مسلمين ، أو زنوج السودان الذين أسلموا وتأثروا بالحضارة والمفاهيم الإسلامية — وكلها تنافى تماماً اعتقادات التجسد الإلهى فى الملك الحاكم — وهو الأساس الذى ينبنى عليه تقليد قتل الملك قتلا مقدسا . وهناك شواهد تاريخية عن قتل الملك ، فى مملكة مروى والنوبة قبل أن تتحول إلى الإسلام . فالراجح إذن أن التفسير على أساس تحليل الوضع الراهن فقط ليس كاملا وقد يؤدى إلى أخطاء كما وقع ذلك لشيلده .

ولكن يبدو أن شيلده يعود ثانية ليقول إن عادة قتل الملوك تنتشر فى

الأماكن الهامشية الانتشار مؤثرات الممالك الشرقية . وهو يحاول فى هذه الجملة أن يفسر ظهور هذه العادة فى أفريقيا ، وجنوب الهند معاً فيعيد أصلها البعيد إلى دول الشرق القديمة فيما بين دجلة والنيل فى عبارة مباشرة خشية الزلل .

وهكذا نرى أن شيلده يرفض النظرية الحامية ، ويحبذ نظرية جديدة عن الأصل السودانى لعادة هامة . ثم يعود فى مواربة ليتكلم عن انتشار حضارى من دول الشرق القديمة الذى تمثله فى أفريقيا مصر الفرعونية أو فيما قبل الأسرات .

هيرمان باومان (٢١) H. Baumann

يعد باومان من العلماء الألمان الذين كان لهم فى الفترة الحديثة دوراً هاماً فى الدراسات الحضارية الأفريقية ، أدت إلى تغيرات جذرية فى دراسة اثنوجرافية وأنثروبولوجية أفريقيا . وأهم ما نشره كان عام ١٩٣٤ . ثم عام ١٩٤٠ . وهو فى عام ١٩٣٤ يقول إن هناك الحضارات السبعة التالية :

١ — الحضارة القزمية .

٢ — حضارة الصيد فى نطاق الأعشاب الفقيرة (السكان الأورو — أفريقيين أو البشمن) .

٣ — الحضارة الزنجية القديمة . ويسميها أحيانا الحضارة الأفريقية القديمة (وهى تشابه حضارة السودان القديمة فى تصنيف أستاذه أنكرمان).

٤ — حضارة غرب أفريقيا وهى مكونة من تداخل عناصر حضارية عديدة .

---

(٢١) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم باومان اهم مؤلفاته.

٥ — حضارة الحاميين الشرقيين ويمثلها الرعاة فى شرق أفريقيا .

٦ — حضارة الحاميين الشماليين وهى خليط بين حضارة البحر المتوسط القديمة وعناصر حضارية من الشرق الأدنى .

٧ — الحضارة السودانية الحديثة وهى تتمثل فى أبرز صورها فى نطاق السفانا الشمالية والجنوبية .

وفى عام ١٩٤٠ أعاد باومان النظر فى آرائه بناء على تكامل معلومات عديدة ودراسات وفيره ولكنه لم يغير من أسماء الحضارات التى ذكرها عام ١٩٣٤ . وتتلخص أهم نتائج أبحاثه العديدة فى النقط التالية .

— هناك تشابه غير عادى واتفاق شبه كامل بين حضارة الأقزام والحضارة الزنجية القديمة .

— يؤكد باومان أن الحضارة الزنجية القديمة هى أقدم حضارات أفريقيا وتكون الأساس الذى أخذت منه حضارة غرب أفريقية والحضارة السودانية الحديثة .

— ويؤكد أن النيليين هم زنوج أفريقيا القدماء ولكنهم اختلطوا بشدة مع الحاميين الأثيوبيين .

— أما الهوتنتوت فهم خليط بين الأورو — أفريقيين (البشمن) والعناصر الحامية الشرقية .

— ويقول إنه من الصعب أن نميز فى أقليم السودان بين عناصر الحضارة السودانية الحديثة وعناصر حضارة البحر المتوسط القديمة ، وتلك العناصر التى تستمد أصولها من الشرق الادنى القديم وأخيرا المفردات والتركيبات الحضارية العربية الإسلامية . فهو يرى عن حق أن كل هذه العناصر

والطبقات الحضارية قد تداخلت معا مكونة حضارة متناسقة ومتفاوتة فى آن واحد .

ـ ويؤكد باومان أخيرا أن هذا الخلط الشديد الذى حدث فى اقليم السودان له نظير أشد تداخلا فى النطاق الساحلى لشرق أفريقيا حيث اختلطت عناصر حضارية أفريقية مع عناصر عربية وفارسية وهندية وعناصر أخرى مشتقة من الملايو وأندونسيا .

وهكذا نرى أن باومان ـ على الرغم من تأثره بأنكرمان وفروبنيوس وبعض الشىء بسليجمان ، إلا أنه وفق فعلا إلى حل عدد من المشكلات الهامة فى الدراسات الأفريقية . وقد أفادت هذه الحلول كثيرا مما يثبت صحتها حتى الآن .

وعلى الرغم من أن باومان يجمع العديد من العناصر الحضارية فى النطاق الزنجى والسودانى من أفريقيا ويشبهها بما كان فى الحضارة المصرية القديمة الا أنه يعود فى النهاية فيرجع عدد منها الى الحضارة السودانية كما ذكر شيلده . ومن أهم الأمثلة على ذلك أنه يرفض نظرية سليجمان عن الأصل الحامى لفكره القتل المقدس للملك ويربطها فقط بالحضارة السودانية ولكن باومان ينسى أنه قد وصف الحضارة السودانية بأنها اشتراك معقد لعدد من الحضارات منها ماهو مرتبط بالشرق الأدنى ومنها ماهو مرتبط بحضارة البحر المتوسط . فموقف باومان فى ذلك موقف يشابه موقف سليجمان حينما يتردد كثيراً بين الأصول المصرية لعدد من الظاهرات الحضارية والأصول التى يفترضها . الفارق الوحيد أن سليجمان يعود الى النظرية الحامية وباومان وشيلده يعودان الى النظرية السودانية .

النظرية المصرية

سبق أن أشرنا الى أن معظم الكتاب الذين حاولوا تفسير التشابه

الحضارى لعدد من العناصر فى أفريقية فى صورة نظرية أو أخرى لم يستطيعوا أن ينكروا فى كتاباتهم العديدة وجود التشابه الكبير بين هذه العناصر الحضارية والحضارة المصرية القديمة . ونستعرض فيما يلى آراء عدد من الباحثين بناء على مشاهداتهم لهذه العناصر التى لاحظوا أوجه الشبه بينها وبين الحضارة المصرية القديمة .

ميك (٢٢) C. K. Meek

لاحظ التشابه فى نواحى الحضارة الاجتماعية والمعادية والمعتقدات بين زنوج نيجيريا ومصر القديمة . فذكر أن ديانة قبيلة جيبو Jibu — وهى إحدى قبائل الجوكون ذات الحكم الملكى المقدس تدور حول عبادة الشمس ، فلديهم الإله الأعلى Shido وهو وإله الشمس انيونو Anyunu شىء واحد ، وتعمل له المراسيم الدينية خصوصا مراسيم الشمس التى تقام سنويا قبل بذر التقاوى للزراعة . وتقام الحفلات عند شروق الشمس وغروبها حيث يقوم الكاهن ومساعدوه بتقديم القرابين للاله فى هيكله .

كذلك يقول ميك إن مام Mam أحد آلهة الجوكون هو تحريف للاله Maat المصرى ، ويرتبط هذا الإله بالخليقة وهو حاكم الأموات فى العالم السفلى . ثم يعمم ميك فيقول إن عبادة الشمس منتشرة فى جهات كثيرة فى غرب أفريقية حيث يسمى إله الشمس Shui وهو شبيه بالاله المصرى القديم شو Sw .

ويذكر ميك أنه يوجد أيضا تقليد « فك قماش الفم » الذى يوازى تقليد « فتح الفم » عند المصريين opening of the mouth

---

(٢٢) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم ميك

تالبوت [٢٣] P. A. Talbot

درس تالبوت قبائل جنوب نيجيريا مثل الأيبو والأيبيبيو واليوربا وغيرها ولاحظ الكثير من المفردات الحضارية التى شبهها بالحضارة المصرية القديمة ونذكر منها مايلى .

(١) عمل المقابر ذات الأنفاق والسراديب والتى تستعمل حاليا لدفن الزعماء وعليه القوم .

(٢) قتل زوجات وخدم وحيوانات الزعيم الميت ودفنها معه ومع ممتلكاته الخاصة .

(٣) تجفيف جسد الميت بالدخان كما فى الايبو كطريقة لتحنيطه .

(٤) لف الجسد فى نسيج من لحاء الشجر مما يعطى فكرة المومياء .

(٥) وضع الجثمان على ظهره وذراعيه فوق صدره وأحيانا توضع فى يده عصا

(٦) يرسل الايبيبيو مائدة قرابين يوميا إلى المقبرة حتى نهاية مراسيم الدفن .

(٧) يقيم الايبيبيو كوخا صغيرا يسميه تالبوت بيت الكا Ka house ويوضع فيه تمثال يمثل الميت جالسا فوق مقعده كما فى الحياة الدنيوية وبملابسه الكاملة وفوق رأسه قبعة رمز السلطة وتوضع أمامه مائدة القرابين .

باومان H. Baumann

أما الأستاذ باومان Baumann فقد ذكر عدد من العناصر الحضارية

---

(٢٣) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم تالبوت

الشبيه بالحضارة المصرية السائدة فى أفريقيا الزنجية نذكر منها مايلى :

١ — مجمع الاله والتفكير الكوزمولوجى عند اليوربا يشابه كثيرا مصر الفرعونية .

٢ — تعتقد جماعات Mungo-Kundu فى شمال الكنغو بوجود قوى غير ماديه تسمى Elima يمتلكها كبار السن فى العشيرة ويمكن لغيرهم أن يمتلكوها اذا اجتهدوا وترتبط هذه القوى بكل الذكاء ونواحى النجاح والقوة . هذه القوى تتشابه كثيرا مع فكرة « الكا » عند الفراعنة وتساوى الطاقةالتى تهبط من الأسلاف الى الأحفاد والأبناء . وتختلف الفكرة الراهنة عند المونجو عما كانت عليه عند المصريين فى أن القوى غيرالمادية قاصرة على كبار السن بينما لكل شخص فى مصر « كا » خاصة به .

٣ — يستخدم المونجو — كوندو التوابيت فى الدفن ، كما يصنعون تماثيل من الصلصال لتوضع مع الأموات فى القبور — مما يعيد إلى الأذهان بعض عقائد الدفن عند المصريين القدماء .

٤ — عند الماليكه فى النيجر الأعلى مايسمى بالروح الثانية ، وهى تصحب الشخص منذ مولده حتى وفاته ثم تنتقل بعد ذلك إلى تمثال المتوفى . وتتحلل الروح الثانية من الشخص أثناء النوم أو الوفاة . وهذه الروح تساوى الطاقة الحية أو طاقة الحياة . وإذا صادفت الروح حادثاً سيئاً صادف الجسم شيئا سيئا هو الآخر . ومثل ذلك نجده أيضاً بين سكان الفولتا العليا . فهناك روح تحرس الشخص طوال حياته تسمى Nyama عند قبيلة Bobo، وتسمى Sera Segera عند قبيلة Nankanse .

٥ — تنتشر فى مناطق الفولتا العليا أيضاً وفى مناطق ساحل الأطلنطى من غرب أفريقيا عبادة الثعبان ، ويرتبط ذلك بالخصوبة ، وإن كان الثعبان يمثل الشيطان ويشابه ذلك العداء فى مصر بين الإله رع والثعبان .

٦ ـ عند المازاى فى شرق أفريقيا إله أسود طيب وإله أحمر شرير يتقابلان خلال العواصف الرعدية . وفى مصر الفرعونية إله الشر «ست» يرمز إليه باللون الأحمر كما أن اللون الأسود يغلب على الحيوانات المقدسة.

تاوزنج [٢٤] G. Thausing .

ذكرت الأستاذة جرترود تاوزنج أنه فى نطاق الحضارات السودانية الجديدة فى وسط وغرب أقليم السودان الطبيعى مركبات حضارية مرتبطة وتتشابه مع الحضارات العليا ، تماما كما هو الحال فى حضارات شرق أفريقيا عند الكافا فى الحبشة وبانتو البحيرات فى أوغندا التى توصف دائماً بأنها مستودعات للحضارة المصرية القديمة .

فى حضارات السودان الجديدة نجد دائماً حاكم مقدس ، وزواج الملك بشقيقته ، والدور الهام للملكة الأم ، والقتل المقدس للملك ، والنار المقدسة التى ترتبط بحياة الملك بل تمثلها . والمحرمات العديدة على الملك ، والفوضى التى تدب بعد وفاة الملك أو ما يسمى مرحلة الانتقال بين وفاة الملك والفترة التى تنقضى حتى يتم لخليفته ارتقاء العرش .

وكلها أشياء نلاحظها بطرق مختلفة فى مصر الفرعونية : ألوهية الفرعون ، زواج الشقيقات فى البيت المالك ، مركز الملكة الأم .

أما حفلة الحب سد hb-sd التى سجلت على المعابد المصرية فقد قيل إنها أصلا كانت تعنى قتل الملك قتلا مقدساً ثم تحولت بعد ذلك إلى أن أصبحت تجديداً لحكم الملك كلما انقضى عليه فى الحكم عدد معين من السنين .

---

(٢٤) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم تاوزنج «

كذلك النار المقدسة تمثل حياة الفرعون ولو أن Pr-Nsr « بيت اللهب » فى عقائد الدلتا كانت ترتبط بالحية القديمة أو الآلهة التى تنفث اللهب . كذلك نعرف فى مصر القديمة وصف الملك بأنه النار Der Konig, das Feuer zu seinerzeit ولهذا نجد فى كتابات الاهرامات أن الملك هو اللهيب الأحمر ، وأنه جاء من جزيرة النار ليحل العدالة محل الظلم . كذلك عند وفاة الملك كان يقال : أنظر إلى اللهب قد صعد إلى السماء ... ، والنار المقدسة التى لا تنطفىء إلا عند وفاة الملك ظاهرة شائعة بين عدد كبير من القبائل الأفريقية .

وعلى الرغم من أن الأستاذه تاوزنج توافق الأستاذ باومان على فكرة الأصل الحامى للتشابه بين مصر وبقية أفريقية ، إلا أنها تعود فتؤكد أنه لم يحدث أبداً فى أفريقيا مثيلا لمصر غير مصر واحدة .

بيبر [٢٥] F. Bieber

يقول إن الملك فى كافا Kaffa يسمى Heqo وهو يساوى عند المصريين اصطلاح hk بمعنى الملايين اللانهائية من طبقات الجو . ولكن الأستاذة تاوزنج تقول إن هكو عند كافا يساوى hkz عند الفراعنة وهى تساوى حاكم .

أما الأستاذ جيفريز [٢٦] M. D. W. Jeffreys فقد بنى حكمه على التشابه بين مصر الفرعونية والجماعات شبه البانتووية والزنجية من دراسته لنظام الحكم الثنائى أو الحكم المزدوج فى قبائل اليوربا والايبو .

---

(٢٥) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم بيبر

(٢٦) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم جيفرز

روسكو [٢٧] J. Roscoe

كتب روسكو عن قبائل أوغندا وذكر الكثير من المظاهر الحضارية التشبيه بالحضارة المصرية فقد لاحظ النظام الملكى المقدس بما فيه من قتل أخوة الملك الحاكم عند ما يتولى العرش وقتل أية واحدة من بناته إذا تزوجت أو أنجبت طفلا . كذلك المركز الممتاز للملكة الوالدة والملكة الأخت ، فلكل منهما بلاطها الخاص ووزراؤها وموظفو البلاط مماثلين زملائهم الذين فى خدمة الملك سواء فى اللقب أو فى اختصاص العمل . كذلك المراسيم والطقوس الكثيرة الخاصة بالملك فى حفلات الدفن حيث تحفظ الجثة ويقدم الرعايا الملابس المصنوعة من لحاء الشجر قرابين للملك الميت ، ويقتل أربع من زوجاته وخدمه الخصوصيين ومئات من العبيد الأسرى . ويذكر روسكو أن الملك الحاكم يقوم بزيارة قبر والده ويقدم القرابين البشرية لروح أبيه وذلك مرة خلال حكمه .

ومما ذكره روسكو أن كل ملك يحتفظ بالنسر كطوطم له بجانب طوطم العشيرة . وذلك على الرغم من عدم وجود عشيرة النسر . كما لاحظ تقليد « رمى الأمم » Shooting the nations التى يقوم بها ملك الباجندا فى حفلات تتويجه حيث يقذف السهام على الأمم المجاورة .

لينتون [٢٨] R. Linton

ذكر رالف لينتون أن الحضارات الأفريقية الزنجية فيها عناصر حضارية من مصر وساحل البحر المتوسط ، مستنداً إلى العلاقات التجارية المصرية القديمة مع القبائل الزنجية فى أعالى النيل منذ ٢٥٠٠ ق . م على الأقل ، كما

---

(٢٧) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم روسكو
(٢٨) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم لينتون

أشار إلى فتح المصريين لبلاد النوبة واحتلالها فى عهد الأسرة الثامنة عشر ١٥٧٠ — ١٢٠٠ ق . م واتخاذ النوبيون عبادة آمون رع المصرى والحضارة المصرية عموماً . ثم هروب كهنة طيبة إلى نباتا عندما استقر الليبيون فى مصر ، وزيادة نشر الحضارة المصرية هناك .

وبناء على هذا فإن لينتون يعتقد أن العناصر الحضارية دخلت أفريقيا الزنجية عن طريق السودان النيلى . ثم هو يذكر الكثير من هذه العناصر مثل انتشار فكرة ألوهية الملك الذى يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، وعادة زواج الملك بأخته وهى العادة التى كانت منتشرة فى كثير من ممالك وسط أفريقية وتدل دلالة قوية على الصلة بمصر ، وطبقاً لهذا النظام كانت على الملكة واجبات ولها امتيازات ومركز وثروة تشبه ما كان للملك ، وهذه العادة متبعة فى قبائل الباهيما فى أوغندا .

كذلك يشير إلى أن الديانة فى قبيلتى اليوربا والأشانتى بما فيهما من نظام كهنوتى متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة تشبه ما كان فى ديانة مصر . كذلك فإن الأشانتى يعتقدون فى وجود قرين روحانى يزور القبر بعد الموت ويقدمون له القرابين كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة الـ « كا » ويقول لينتون إنه مما يزيدنا إيماناً بوجود هذه الصلة القديمة أن الأشانتى يطلقون على هذا القرين اسم « كرا » .

ولكن الأستاذ لينتون بعد أن ذكر الكثير من العناصر المتشابهة بين مصر وأفريقية الزنجية نجده متأثراً إلى حد كبير بالأستاذ سليجمان عن الأصل الحامى لهذه المظاهر حيث يقول . . هذه الأشياء التى ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التى توحى بأثر مصر نراها موزعة توزيعاً غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها فى كل من مصر وأفريقية الزنجية كان نتيجة لتطور

مستقل فى كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة.

هيرشبرج [٢٩] W. Hirschberg

حدد فالتر هيرشبرج أهم العناصر الحضارية المصرية القديمة الموجودة فى الممالك الزنجية فيما يلى:

١ — إطالة الجمجمة إلى الخلف — هذا التشويه يوجد أقدم نموذج له فى تمثال أخناتون الذى يعود الى ١٣٧٠ ق . م — هذه الظاهرة توجد بين الطبقات الحاكمة فى كثير من القبائل الافريقية فى الجزء الغربى من وسط أفريقيا مثل أنجولا وتظهر بوضوح بين قبائل المانجبتو. وتحدث هذه الإطالة بواسطة ربط الرأس بلفائف من الأقمشة فى سن الرضاعة وبهذا لا يصبح للرأس اتجاه للأمتداد إلا إلى الخلف وأعلا . كذلك تحدث الاطالة فى نيجيريا والكمرون بواسطة تدليك الرأس لكى تنمو فى الاتجاه المطلوب . وهذه الحالات من تعديل النمو الطبيعى الرأس يعتبر مبدأ جمالى يسير وفقه الطبقة الحاكمة وقد يقلدها فى ذلك طبقات الشعب .

٢ — عمل المومياء وتحدث غالباً بالنسبة للزعماء والملوك فقط . فقد وجد فى الحضارات العليا فى مصر وشمال أفريقيا عديد من أنواع التحنيط وعمل المومياء وفكرة لف الجثمان فى كثير من الأقمشة أو غيرها من المواد كى تقلل إلى الحد الأدنى احتكاك الجسد بالارض . ونلاحظ أن هذه الظاهرة قد تطورت بشكل واضح فى مناطق معينة مثل ساحل لوانجو شمال مصب الكنغو وعند جماعات بابيندە Babwende شمال نهر الكنغو قرب برازفيل . وقد شاهد أحد الكتاب سنة ١٩٢٧ عمل المومياء عند البابيندە ، بعد أن جفف الجسد تماماً لف فى كميات هائلة من النسيج والحصير والقش ثم يخاط عليه

---

(٢٩) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم هيرشبرج

جلد أربع أو خمس ثيران بحيث تحولت المومياء الى كتلة هائلة فى صورة إنسان يبلغ حوالى خمسة أمثال الانسان العادى فى سمكه وثلاثة أمثاله فى طوله . وفى القرن ١٧ و ١٨ كان سكان ساحل لوانجو يلفون جسد الحاكم فى كميات هائلة من المواد فى شكل شرنقة الفراش . كذلك يحتمل أن يكون ملوك مملكة الكنغو القديمة استعملوا طريقة لف جثمان الميت بكميات كبيرة من المواد . والغالب بين الحكام وملوك القبائل الأفريقية أن الجثمان يلف دائماً بجلود الماشية .

٣ — عمل التماثيل التى تشابه الميت كما فى المقابر الفرعونية حيث توجد التماثيل بجوار المومياء . فملوك مملكة الكنغو القديمة كانوا يصنعون تمثالا أثناء عملية تجفيف جسد الملك بواسطة الدخان التى كانت تستغرق وقتاً طويلا .

ويذكر هيرشبرج بيت الـ « كا » الذى كتب عنه تالبوت حيث يوضع فيه تمثال من الطين الجيد يشبه الزعيم المتوفى ويضعون فوق التمثال ملابس الزعيم كما يضعون على رأسه القبعة ويجلس هذا التمثال على كرسى وفى كل صباح تقدم له التضحيات . وهناك اعتقاد بأن الروح ترتبط بالتمثال ولذلك يتكلم الناس مع التمثال كما يتكلمون مع الشخص الحى .

٤ — التشابه بين الفن الافريقى الحديث والفن المصرى القديم ، ومن أوضح الأمثلة منطقة لوالابا — كساى فى الكنغو حيث توجد التماثيل دائماً وبها الذقن المستعار وهى ظاهرة تمثل التماثيل المصرية القديمة . كذلك تمثال الملك Kata-mpula ملك باكوبا Bakuba على نهر كساى (وكان يحكم فى نهاية القرن ١٨ وأوائل ١٩) — حيث يبدو فيه بوضوح طابع التماثيل المصرية القديمة الهدوء والحكمة . ويدخل فى هذا الموضوع أيضا مسألة الذقن الملفوفة فى جديله على أنها مظهر من مظاهر الرئاسة فى أفريقيا الزنجية . مثال ذلك ما يفعله ملوك البانيورو حينما يضعون ذقنا مستعارة من شعر أبيض من القردة ، وكذلك جماعات الباكراجوى فى غرب أوغندا حيث يلبس الزعيم ذقن مستعارة تربط إلى الرأس بواسطة عقد من الخرز .

ثم يقول هيرشبرج إن هذه المظاهر الفرعونية دخلت أفريقية الزنجية لا من أرض مصر نفسها إنما من الإقليم النوبى فى بناتا ومروى[٣٠] .

"Das grosse Tor, durch das der pharaonische Gedanke in Negerafrikas Einzug hielt, bildete nicht Altägypten selbst, sondern das obere Nilgebiet, Napata und Meroe. Das mag im ersten Augenblick ein wenig uberrasschen".

وقد نشأت مملكة مروى حوالى الألف ق. م. وملوكها أصلا من كهنة آمون الذين هربوا من طيبة . وظلت مروى تحت الحكم المصرى قرابة ألف سنة ثم تحولت إلى المسيحية تدريجياً بعد أن دمرتها قوات ملك أكسوم المسيحى فى القرن الرابع الميلادى وبعد قرنين أى فى أواسط القرن السابع أصبحت مسيحية وبذلك انتهى عهد الوثنية ونفوذ الكهنة وقد اضطر هؤلاء للهجرة أو ربما طردوا وسلكوا طرقا إلى شمال كردفان ودارفور.

ويؤكد ذلك بقوله إننا نجد كثيراً من مميزات وعناصر الحضارة الملكية فى مراحل مختلفة تمتد فى توزيع جغرافى من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب فى مناطق منعزلة مما يدل على اتجاه الهجرات ولهذا نجد كثيراً من التماسك الحضارى بين مصر القديمة ومروى من ناحية وتلك الدول والأقاليم التى توجد على طريق الهجرات من ناحية أخرى . ونجد أن هذا النفوذ المصرى المروى القديم يصل إلى ممالك الهيما فى هضبة البحيرات وزيمبابوى فى روديسيا وقبائل بارو تسى Barotsi وممالك الكوباوا اللوباوا اللوندا والكنغو البلجيكى جنوبا . وإلى الغرب نجد هذه العناصر الحضارية تمتد من دارفور إلى السودان الأوسط فى ممالكه القديمة التى ازدهرت فى العصور الوسطى والهوسا وقبائل ثنية النيجر والسودان الغربى وممالك ساحل غانة . وهذه الدول كلها كانت ترتبط فيما بينها ومن أهم وسائل هذا الارتباط التبادل التجارى . وأن هذه الممالك والقبائل تجمع فيما بينها نموذج حضارى

Hirshberg, 1959. "Altägyplische Kultureinfluss in Neger-Africa". P. 50.

خاص مميز من أهم عناصره الملك الكاهن أو الملك المقدس أو القتل المقدس للملك ثم المركز الهام للملكة الأم فى إدارة شئون المملكة إلى جوار ابنها وبعض مظاهر النظام الأبوى فى الوراثة ، ونظام زواج الملك بشقيقته . كذلك بعض مظاهر فى الملبس والزينة خاصة بالأسرة الحاكمة مثل الذقن المستعارة والطرق المختلفة لتجفيف جسد الملك أو الزعيم ولفه بكثير من المواد محاولة منهم فى عمل مومياء له . والمركز الممتاز الذى يصل إلى حد التقديس الماشية ، وطريقة عمل مدافن للملوك... إلى آخر ذلك من العناصر.

الخريطة رقم (٢) .

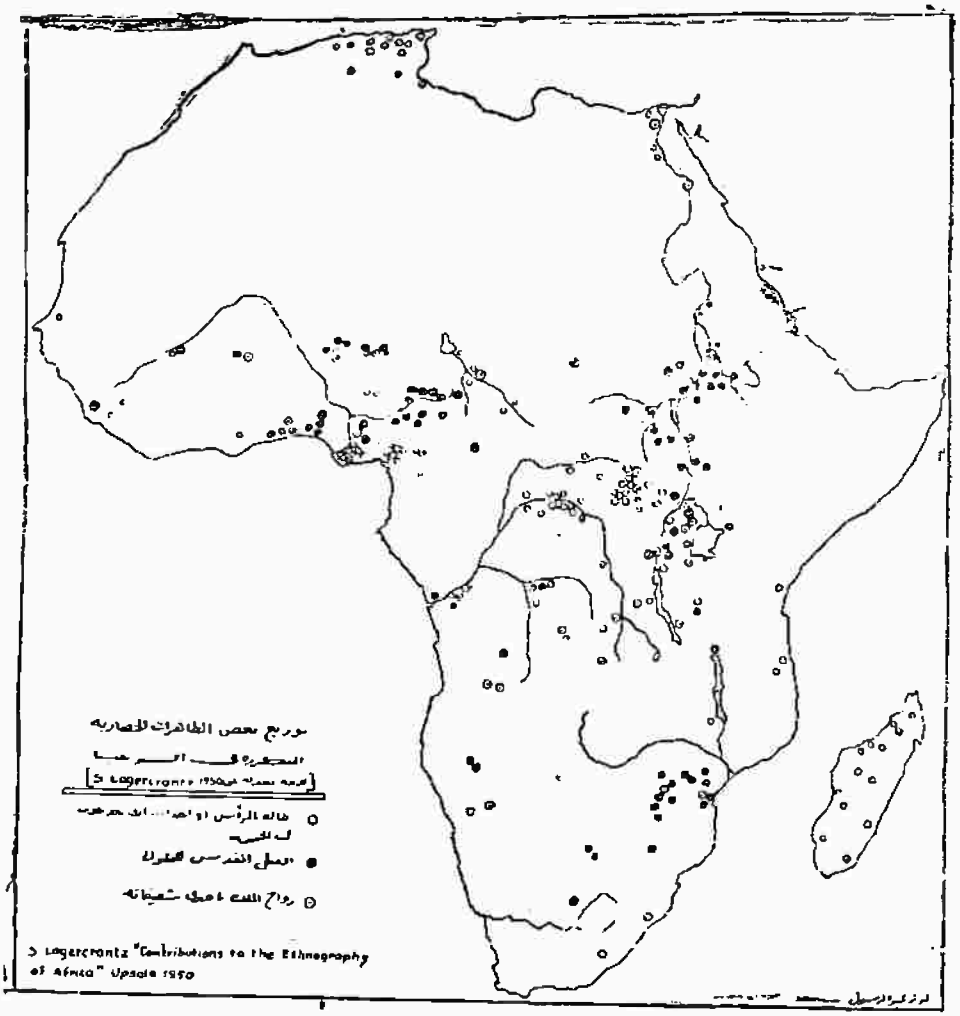

ثم يحاول عير شبرج أن يبين إذا كانت هذه العلاقات بين مصر وأفريقية الزنجية قديمة جداً إلى ماقبل التاريخ أو أنها حديثة تعود إلى الهجرات ، فيقول إننا نجد اشتراكا فى الجنس والعادات واللغات وبالتالى قرابة قديمة جداً تربط بين مصر وأفريقية الزنجية ، ويوجد من بين الكتابات الحديثة كتابين يؤيدان هذه العلاقات الحضارية منذ ماقبل التاريخ والمؤلفان هما H. G. Mukarovsky ، E. Zyhlarz وهما من علماء اللغة ومن أهم ماذكراه وبحثوا فيه الترابط مابين كلمة شمس Na — Nge وكلمة ماشية Nag — ge فى لغة الفولانى فى السودان الغربى — وقد أوضحا أن الجذر Nag يرجع إلى طبقة لغوية قديمة ترتبط باللغة المصرية القديمة . وإلى جانب هذه الاكتشافات اللغوية نجد أيضاً تشابها فى حضارات ماقبل التاريخ فمثلا الطبقة الثانية القديمة من رسومات الصخر فى صحراء مصر العليا نجد ماشية شمس حيث القرون فى شكل قرص أو بين قرونها قرص - ويماثل هذا الكشوف التى قام بها ليوفروبنيوس فى الصحراء حيث وجد كثير من الرسوم على الصخر ومن بينها ماشية قرونها على شكل قرص أو فيما بين قرونها حلقة .

ويمكننا أن نربط بين ماشية الشمس هذه أو ماشية السماء وبين مثيلاتها فى مصر ، ويؤكد هذا ما استخلصه العالمان اللغويان الذى سبق ذكرهما عن الارتباط الجذرى وارتباط المعنى والمدلول بين الماشية والشمس فى لغة الفولانى . ويمكنا أن نتذكر فى هذا المجال الآلهة هاتور Hator التى تصور فى شكل بقرة تحمل فيما بين قرناها قرص الشمس ، أو نتذكر صورة عجل أبيس المقدس الذى كان يظهر فى العصور الأخيرة من تاريخ مصر مرتبطاً بقرص الشمس دائماً . وعلى هذا الأساس يمكنا أن نقول إن هناك احتمال ارتباط قديم يعود إلى عصور ماقبل التاريخ بين مصر وبقية أفريقيا .

والواقع أنه من الصعب الاجابة على التشابه الحضارى بين مصر وأفريقية الزنجية إجابة صحيحة تماما ، فربما كانت العلاقات القديمة جداً فيما قبل التاريخ هى السبب وربما كانت هذه العلاقات أحدث من ذلك تعود الى الهجرات التاريخية .

وفى كتاب ميروفتس[٣١] عن قبائل الأكان Akan أن هذه القبيلة أو على الأقل فى تاريخها وهو تاريخ حكامها مايشير الى أنها أتت من جهة الشمال وخاصة من منطقة واحة بلما على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى .

وفى أبحاث محمد رياض[٣٢] عن الشلك والجوكون والنظام الملكى المقدس دراسة تحليلية لهجرة هذه المظاهر الحضارية من مصر إلى مروى ومنها إلى دارفور ثم الى السودان الغربى ، وكذلك من دارفور إلى أعالى النيل وهضبة البحيرات .

---

(٣١) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم ميروفيتس
(٣٢) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم رياض

ختـــام

بعد عرض هذه الآراء العديدة التى ترمى كلها إلى ظهور وتوزيع عدد من الظاهرات الحضارية المترابطة فى نواح مختلفة من أفريقيا ربما أمكننا أن نختتم هذا المقال برأى قد يكون بعيدا عن أن يحسم الموضوع ، ولكنه من قبيل الإدلاء بدلونا فى هذا الموضوع .

فخلاصة القول انه من الملاحظ أن كل الكتاب قد أجمعوا على وجود التشابه فى عدد من العناصر الحضارية ، وإن اختلفوا فى تفسير أصلها ، ولكن الكثير من الكتاب الذين ذكرناهم يميلون إلى تأييد التشابه الكثير بين مصر الفرعونية ومروى وبين بقية أفريقيا مما يجعل لهذه النظرية الكثير من الثقل . وعلى أية حال فإن الدراسات التفصيلية الدقيقة لعدد من الظاهرات الحضارية من الناحيتين الوظيفية والتاريخية يجب أن تتم قبل أن يحسم هذا الجدل الكبير . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الدراسات الأركيولوجية والدراسات الفنية قد تصبح عاملا حاسما فى الموضوع ، لأنها سوف تلقى الكثير من الضوء على العلاقات المكانية فى الماضى وربما ساعدتنا على دراسة موضوع الهجرة البشرية والحضارية فى أفريقيا . ومن الأمثلة التى أسوقها على تدعيم هذا الرأى الدراسة التى قامت بها السيدة الدكتورة أنا ماريا هيفل A. Hefel عن الآثار المصرية وآثار شمال أفريقيا والبحر المتوسط الغربى فى تشكيل فنون صب النحاس وطرقه فى تلك المنتجات الفنية الرائعة التى نشاهدها فى ساحل غانة بين اليوربا والبنين والاشانتى . وملخص بحثها[٣٣] أن النحاس — صهره وطرقه — كان معروفا فى غرب أفريقيا قبل وصول البرتغاليين ، ففى كتابات ابن بطوطة والبكرى وصفا شيقا

(٣٣) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم هيفل

لمعامل صهر النحاس فى كيلى Killi فى دلتا النيجر الداخلية وفى لوبى Lobi فى الفولتا العليا . وهذه المصاهر يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر وربما أقدم من ذلك . والراجح أن مصنع كيلى يعود إلى القرن التاسع أو العاشر .

كذلك تبرهن هيفل بطريقة أخرى غير الكتابات التاريخية على قدم صناعات النحاس فى غرب أفريقيا فتقول إنه لا يمكن أن يكون الأوربيون قد أثروا على طريقة عمل النحاس فى قوالبه المعروفة لأن مثل هذه القوالب الفنية لا يمكن أن تكون قد ظهرت مرة واحدة فجأة أثر وصول الأوربيين . ذلك أن الاتجاهات الفنية تستغرق وقتا طويلا قبل تكاملها واستقرارها فى صورة فن جديد .

وتوضح هيفل إرتباطات متعمقة فى القدم لفنون النحاس فى غرب أفريقيا عن طريق الدراسة التفصيلية للمنتجات الأفريقية فى بنين والفولتا . ونتيجة لهذه الدراسات خرجت إلى نتائج هامة ملخصها أن فن بنين الأول وهو الذى يطلق عليه فن (يوربا — جيبا — بنين) يرتبط ارتباطاً وثيقا فى تفصيلاته ودقائق صنعه بمثيله من الفنون المصرية الفرعونية فى أواخر الدولة الحديثة وأوائل العصور اللاحقة له — أى قبل العصر البطلمى فى مصر — وهذا يعنى أنه كان هناك اتصال بطريقة ما خلال الألف الأولى قبل الميلاد بين حوض النيل وبين جنوب نيجيريا . وتستمر التأثيرات المصرية حتى العهد القبطى التى تظهر آثارها واضحة جلية فى منتجات الفترة الفنية الثانية لبنين ، وهى التى تسمى « فن بنين » فقد لاحظت هيفل من الدراسة المقارنة كيف تتشابه اتجاهات القوالب والرسومات بين الفن القبطى الذى بلغ أوجه فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين وبين فن بنين ، وتقترح هيفل أن يكون الاتصال بين النيل وغرب أفريقيا قد تم عن طريق حفرة النحاس فى جنوب دارفور إلى تشاد إلى النيجر الأدنى . وتقول أيضا بإنه ربما كان هناك اتصال من مصر القبطية عن طريق آخر هو ليبيا —

مرزوق — كانو — نيجيريا . أما الفنون التشكيلية للنحاس فى ألاكان — أشانتى فتربطها هيفل بشمال غرب أفريقيا وحوض البحر المتوسط الغربى . وهذا النوع من الفنون يختلف عن فن البنين فى مرحلتيه ويتشابه مع مؤثرات من ايبريا وإيطاليا وشمال أفريقيا عبر دروب الصحراء الكبرى إلى تمبكتو وحوض الفولتا الأوسط .

هكذا توضح لنا هذه الدراسة أهمية الأبحاث المستمرة فى جوانب عديدة من الحضارات الأفريقية الترابط والتأثير الذى يشير كله إلى ضرورة البحث عن أصول عدد كبير من المفردات الحضارية فى مصر وشمال أفريقيا.

قائمة بأهم الكتب للمؤلفين

أوردنا ذكرهم

1 — **Ankermann, B.,** 1905. "Kulturkreise und Kulturschichten in Afrika" in Zeitschrift fur Ethnologie. Berlin.

2 — **Baumann, H.,** 1936. "Schöpfung und Urzeit des Menschen im Mythus der afrikanischeen Volker" Berlin.

3 — **Baumann, H.,** 1940. "Volkerkunde von Afrika" Essen.

4 — **Baumann, H.,** 1944. "Zur Morphologie des afrikanischen Ackergerätes" in Wiener Beitrage zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.

5 — **Bieber, F.,** 1920-1923. "Kaffa". Munster.

6 — **Frobenius, L.,** 1898. "Der Ursprung der afrikanischen Kulturen" Berlin.

7 — **Frobenius, L.,** 1910. "Kulturtypen aus dem Westsudan" Gotha.

8 — **Frobenius, L.,** 1912-1913. "Und Afrika Sprach" Berlin.

9 — **Frobenius, L.,** 1921. "Atlas Afrikanus" München.

10 — **Frobenius, L.,** 1921. "Spielmannsgeschichten der Sahel" Jena.

11 — **Frobenius, L., 1924.** "Volkserzalungen und Volksdichtung aus dem Zentralsudan" Jena.

12 — **Frobenius, L.,** 1924. "Volksdichtungen aus Oberguinea" Jena.

13 — **Frobenius, L.,** 1925. "Dichten und Denken in Sudan" Jena.

14 — **Frobenius, L.,** 1926. "Die atlantische Götterlehre" Jena.

15 — **Frobenius, L.,** 1931. "Erythraea, Länder und Zeiten des heiligen Königsmordes" Berlin.

16 — **Frobenius, L.,** 1933. "Kulturgeschichte Afrikas" Wien.

17 — **Hefel, A.,** 1943. "Der afrikanische Gelbguss und seine Beziehungen zu den Mittlemeerländer" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.

18 — **Hirschberg, W.,** 1929. "Die Plejaden in Afrika" in Zeitschrift fur Ethnologie, Berlin.

19 — **Hirschberg, W.,** 1934. "Wanderungen und Herkunft nilotischer Völker" in Forschung und Fortschrit.

20 — **Hirschberg, W.,** 1935. "Die Zeitrechnung der Masai und verwandeter Völker" in Zeitschrift fur Ethnologie, Berlin.
21 — **Hirschberg, W.,** 1943. "Asiatissche Kultureinflüsse an der Ostkuste Afrikas" in Kolonial Rundschau.
22 — **Hirschberg, W.,** 1954. "Die Völker Afrikas" in "Die Neue Grosse Völkerkunde" Frankfurt.
23 — **Hirschberg, W.,** 1959. "Altagyptischer Kultureinfluss in Negerafrika" in Die Umschau in Wissenschaft und Technik, Frankfurt.
24 — **Jeffreys, M. D. W.,** 1946. "Dual Organisation in Afrika" in African Studies, Johannesberg.
25 — **Jeffreys, M. D. W.,** 1951. "The Origin of the Benin Bronzes" in African Studies, Johannesberg.
26 — **Johnston, H.,** 1902. "The Uganda Protectorate" London.
27 — **Johnston, H.,** 1906. "Liberia" London.
28 — **Linton, R.,** 1955. "The Tree of Culture" New York.
29 — **Meek, C. K.,** 1925. "The Northern Tribes of Nigeria" London.
30 — **Meek, C. K.,** 1931. "Tribal Studies in Northern Nigeria" London.
31 — **Meek, C. K.,** 1931. "A Sudanese Kingdom" London.
32 — **Meyerowitz, L. R.,** 1958. "The Akan of Ghana. Their ancient beliefs" London.
33 — **Riad, M.,** 1959. "The Divine Kingship of the Shilluk and its Origin" in Archiv fur Völkerkunde, Wien.
34 — **Riad, M.,** 1960. "The Jukun : an example of African migrations in the sixteenth century" in Bul. de l'Institute Française d'Afrique Noire, Dakar.
35 — **Roscoe, J.,** 1907. "The Bahima" in the Journal of the Royal Anthropological Institute.
36 — **Roscoe, J.,** 1911. "The Baganda" London.
37 — **Roscoe, J.,** 1915. "The Northern Bantu" London.
38 — **Roscoe, J.,** 1925. "The Banyankole" Cambridge.
39 — **Roscoe, J.,** 1923. "The Bakitara or Banyoro" Cambridge.
40 — **Roscoe, J.,** 1924. "The Bagesu and other tribes of the Uganda Protectorate" Cambridge.
41 — **Schilde, W.,** 1926. "Beiträge zur Hamitenfrage" in Tagungsbericht der Anthropologischen Gesellschaft, Augusburg.
42 — **Schilde, W.,** 1929. "Die afrikanischen Hoheitszeichen" in Zeitschrif fur Ethnologie, Berlin.

43 — **Schilde, W.,** 1929. "Die Ostwestliche Kulturbezichungen in Sudan" Im Memoriam Karl Weule" Leipzig.
44 — **Schilde, W.,** 1939. "Die Völker, Sprachen und Rassen am oberen Nil" in Otto Reche Festschrift.
45 — **Schilde, W.,** 1943. "Kulturen mit europäischen Einschlag in Afrika" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik, Wien.
46 — **Schmidt, W.,** 1910. "Die Stellung der Pygmäenvölker in der Entwicklungsgeschichte des Menschen" Stuttgart.
47 — **Seligman, C. G.,** 1913. "Some aspects of the Hamitic Problem" in the Journal of the Royal Anthropological Institute, London.
48 — **Seligman, C. G.,** 1932. "Egyptian Influence in Negro Africa" in "Studies Presented to Griffith", London.
49 — **Seligman, C. G.,** 1932. "Pagan Tribes of the Nilotic Sudan" London.
50 — **Seligman, C. G.,** 1934. "Egypt and Negro Africa" (Frazer Lecture) London.
51 — **Seligman, C. G.,** 1939. "Races of Africa" London.
52 — **Talbot, P. A.,** 1926. "The Peoples of Southern Nigeria" London.
53 — **Talbot, P. A.,** 1930. "Tribes of the Niger Delta" London.
54 — **Thausing, G.,** 1943. "Altagyptisches religiose Gedankengut im heutigen Afrika" in Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik. Wien.

المجوسية والمجوس..

للدكتور على حسنى الخربوطلى
المدرس بقسم التاريخ

أسس الديانة المجوسية :

اشتهر الفرس — والجنس الآرى عامة — بأنهم ميالون إلى عبادة المظاهر الطبيعية ، فالسماء الصافية ، والضوء ، والنار ، والهواء ، والماء ينزل من السماء ، جذبت أنظارهم ، وجعلتهم يعبدونها ، على أنها كائنات إلهية ، وسمّوا الشمس « عين الله » والضوء « ابن الله » ، كما أن الظلمة والجدب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة[1] .

عبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة ، وخاصة الشمس التى تبدو لهم ظاهرة فى السماء ، وأسبغوا عليها صفات الألوهية ، واعتبروها أعظم الموجودات ، وأنها خير محض . ووقف الفرس أمام آلهة الخير يستمدون منهم المعونة ، يتوجهون إليها بالصلاة ويقدمون لها الضحايا . ورأوا أن آلهة الخير فى نزاع دائم مع آلهة الشر ، وأعمال الإنسان ، من صلاة ونحوها ، تعين آلهة الخير فى منازلتها آلهة الشر ، واتخذوا النار رمزاً للضوء ، وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير

(1) احمد امين : فجر الاسلام ص ٩٩ .

يشعلونها فى معابدهم ، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها ، وكانت هذه النار منبعا لخيال شعرى خصب .

عرف الشهرستانى[1] المجوس فقال : « المجوس وأصحاب الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية ، يقال لهم الدين الاكبر والملة العظمى ، إذ كانت دعوة الأنبياء بعد ابراهيم الخليل عليه السلام فى العموم كالدعوة الخليلية ولم يثبت لها من القوة والشوكة والملك والسيف مثل الملة الحنيفية إذ كانت ملوك العجم كلها على ملة ابراهيم ، وجميع من كان فى زمانه كل واحد منهم من الرعايا فى البلاد على أديان ملوكهم ، وكان لملوكهم مرجع هو موبذ موبذان أعلم العلماء وأقدم الحكماء يصدرون عن أمره ولا يرجعون إلا إلى رأيه ، ويعظمونه تعظيم السلاطين لخلفاء الوقت . وكانت دعوة بنى اسرائيل أكثرها فى بلاد الشام وما وراءها من المغرب ، وقل ما سرى من ذلك إلى بلاد العجم » .

الزرادشتية :

ظهر زرادشت — نبى الفرس — فدعا إلى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد إصلاحها . وزرادشت من قبيلة ميديا فى شمال غربى فارس ، وظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق . م . بعد أن عاش ٧٧ سنة ، وكان موطنه أذربيجان ، ولكن أول نجاحه كان فى بلخ ، على أثر اعتناق الملك « بشتاسب » لدينه ، ثم انتشر دينه من بلخ إلى جميع أرجاء فارس .

وجوهر مبادىء زرادشت ، أن فى العالم حوادث كثيرة متنوعة : فمنها الخير ومنها الشر ، وهذه الحوادث لا توجد نفسها ، بل لا بد لها من أصل

---

[1] الملل والنحل ج ١ ص ٤٨ .

تستند عليه . ويرى زرادشت استحالة نسبة الخير والشر إلى أصل واحد . ولهذا كان من الضرورى عنده لتفسير مايجرى فى العالم الإيمان بوجود قوتين متضادتين مختلفتين جوهرا وفعلا . فواحدة طاهرة مقدسة ، تفيض عنها الحياة والعناصر الطيبة وكل مافى الوجود من نور، والأخرى خبيثة دنسة ، تصدر عنها الآفات والأمراض، والهلاك والتدمير ، وكل ما ينزل بالإنسان من شر وبلاء . فالأولى تسمى (أهريمان) ومعناه إله الشر أو الشيطان . وقد ورد فى كتبهم المقدسة : أن (مزدا) قال لأهريمان) ما معناه «ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ولا حياتنا ، أنا وأنت ، متفقة فى شىء ، ولذا فنحن أضداد » .

وبين هذين الإلهين — مزدا وأهريمان — عداء دائم وحرب مستمرة . فهما يتنازعان الانسان ويحاول كل واحد منهما أن يكون له الغلبة دون صاحبه . ولكن فى النهاية يكون النصر لأهورا مزدا ، إله الخير والنور والقوة والحياة عندهم ، ويحمى جميع مافى العالم من شرور وفتن . جاء فى كتاب (الملل والنحل)[1] . « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير ونعيم خالص ، فلما وجد أهريمان حدثت الشرور والآفات والفتن » . وللفرق المختلفة آراء متباينة فى وجود (أهريمان وسببه وأصله وقدمه وحدوثه . وكان الفرس يعتقدون أن لكل واحدة من هاتين القوتين — مزدا وأهريمان — جنودا وأنصارا ، يأتمرون بأمرها وينفذون إرادتها فى الوجود .

تحدث (ماسبيرو) فى كتابه (تاريخ المشرق) عن مذهب الزرادشتية فقال : يرون أن مزدا قد خلق الأشياء بكلمة ، واتخذ لنفسه ستة أرواح

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ ص ٤٩ .

أو آلهة من طبقات عليا يعينونه على حفظ نظام العالم وتدبير شئونه — وهم المعروفون بأميشاسبنتاس — وهؤلاء الآلهة اتخذوا لهم جنودا من الأرواح يحكمون عليهم . وهم منتشرون فى الكون للمحافظة على بقاء أهله ودوران دولابه فجعل أهريمان — عكس ذلك — إله ظلمات وشرور ، وعارض الآلهة الست بستة أرواح شريرة تعادلها فى القوة والشوكة . وهؤلاء جعلوا لهم أعوانا من الأبالسة، وهم لا ينفكون عن محاصرة الكون، ومنع انتظام حركاته ، ولا يزال مستمراً بين هذه الأرواح المتكافئة فى العزيمة والبطش إلى انقضاء الزمن . ولا ينتهى كفاحها إلا بانقراض العالم ، إذ يتم النصر لأهورا مزدا .

لزرادشت كتاب مقدس يسمى (أفستا Avesta) وعليه شرح يسمى (زندافست) قال المسعودى[1] : « واسم هذا الكتاب (ألايستا) وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل (الايستاق) وعدد سوره إحدى وعشرون سورة تقع كل سورة فى مائتى ورقة . . . وأنه كتب باللغة الفارسية الأولى وأن أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وإنما نقل لهم إلى هذه الفارسية شيء من السور فى أيديهم يقرءونها فى صلواتهم ، فى بعضها الخبر عن مبتدأ العالم ومنتهاه ، وفى بعضها مواعظ » .

وتحدث الشهرستانى[2] عن هذا الكتاب المقدس فقال : وله كتاب قد صنفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو (زندوستا) يقسم العالم قسمين مينه) و(كيتى) يعنى الروحانى والجسمانى ، والروح والشخص . وكما قسم الخلق إلى عالمين يقول إن ما فى العالم ينقسم قسمين (بخشش) و (كنش) يريد به التقدير والفعل وكل واحد مقدر على الثانى . ثم يتكلم فى موارد التكليف

---

(١) مروج الذهب .
(٢) الملل والنحل

وحركات الانسان فيقسمها ثلاثة أقسام : (منش) و (كونس) و (كنش) يعنى بذلك الاعتقاد والقول والعمل . وبالثلاث يتم التكليف ، فإذا قصر الانسان فيها خرج عن الدين والطاعة ، وإذا جرى فى هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر » .

كان الفرس يدينون بالبعث والنشور ، ويؤمنون بالحياة الآخرة ، ويعتقدون ان روح الميت الصالح إذا فارقت الجسد استقبلها الديان فى صورة فتاة حسناء تحف بها الأزهار ذات الرائحة الطيبة. وعندهم أن السراط فوق جهنم ، وأن الأشرار يقعون فى نار جهنم ، ويعنى أهريمان وجنده وجميع من فى الوجود من الأحياء ، ويبقى مزدا وسائر قوى الخير . ويرون أن نهاية العالم تتحقق عند اصطدام الأرض بكوكب نارى ، وعندئذ يجمع مزدا الخلائق ويعدهم بحياة جديدة .

من أبرز مبادىء زرادشت أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية ، فحبب إلى الناس أن يزرعوا ويعتنوا بماشيتهم، وأن يجدوا ويعملوا، حتى أنه حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل . ويرى أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهره لا تنجس ، فقدس النار واتخذها رمزا ، وحرم تنجيس الماء الجارى ، وحرم دفن الموتى فى الأرض .

وإلى جانب هذه التعاليم الدينية نرى للديانة الزرادشتية أبحاثا فيما وراء المادة ، ولكن لم يكن بحثهم فيها شاملا — كالذى كان عند اليونان — بل كان بحثاً جزئياً متفرقا ، كذلك نرى لهم فى هذا خاصية تشبه التى كانت للعرب بعد الإسلام ، وهى امتزاج أبحاثهم — فيما وراء المادة — بالدين والتوفيق بينهما ، ولم يبحثوا فيها بحثاً مستقلا كما فعل اليونان مثلا[1] .

فمن أبحاثهم الفلسفية بحثهم فى النفس، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٠٣ .

الإنسان قد خلقها الله بعد أن لم تكن ، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة إذا حاربت الشرور فى العالم الأرضى ، وقد منحها الله حرية الإرادة فهى تستطيع أن تختار الخير أو الشر . وللنفس الإنسانية قوى مختلفة : (١) الضمير أو الوجدان (٢) القوة الحيوية (٣) القوة العقلية (٤) القوة الروحية (٥) القوة الواقعية . وهذا النوع من الفلسفة يجعل الحياة ميدان جد وعمل .

تساءل العلماء والفلاسفة : هل دين زرادشت ثنوى يرى أن العالم يحكمه الهان : إله الخير وإله الشر ، وأن لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أم هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد وأن الخير والشر مظهران لإله واحد . يرى كثيرون أنه ثنوى ، وقد ذهب إلى هذا الرأى بعض كتاب الفرنج ، ومنهم من كتب فى دائرة المعارف البريطانية مادة زرادشت ، ومنهم من يرى أنه موحد مثل الشهرستانى[1] والقلقشندى[2] ويذكر الأستاذ هوج Haug) أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنويا .

سادت الديانة الزرادشتية فى بلاد فارس وماجاورها حتى انتصر الاسكندر المقدونى على الفرس سنة ٣٣١ ق . م فانحط شأنها . ثم نهضت فى عصر الأسرة الساسانية التى ابتدأ حكمها فى البلاد سنة ٢٢٦ م وبقيت الزرادشتيه دين الفرس حتى كان الفتح الإسلامى ، ففر بعض أتباعها إلى الهند حيث لا تزال طائفة (الفريسيين) منهم قائمة حتى الآن . وبقيت فئة فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار فى المعابد فى كل ولاية فارسية تقريباً من بعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون للهجرة .

---

(١) الملل والنحل .
(٢) صبح الاعشى .

المانوية :

من أشهر المذاهب المانوية نسبة (مانى) مؤسس المذهب ، وهو رجل فارسى ولد سنة ٢١٥ او ٢١٦ م[1] . وكان لهذا المذهب أتباع كثيرون فى آسيا وأوربا ، يتمسكون بمبادئه على الرغم من الاضطهادات ، إلى أواخر القرن ١٣ م (٧ هـ) .

التعاليم المانوية مزيج من الفلسفة الفارسية القديمة والمبادىء المسيحية ، وقد وصفها (براون)[2] بأنها زردشتية منصرة أكثر منهـــا نصرانية مزردشة . يرى مانى أن العالم نشأ عن أصلين : النور والظلام . فنشأ عن النور كل خير ، وعن الظلام كل شر فى العالم . وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما . وما يصدر عن الإنسان من خير فمصدره اله الخير ، وما يصدر من شر فمصدره إله الشر .

هذه التعاليم تشابه إلى حد كبير تعاليم زرادشت ، ولكنهما يختلفان فى أمر جوهرى . ذلك أن زرادشت كثير الأمل فى المستقبل ، فهو يتوقع أن يتغلب الخير على الشر وإن طال الأمر . ومن هنا أخـــذ (برجسون) الفيلسوف الإسرائيلى فى العصور الأخيرة فلسفته ، ويتابعه فيها الفيلسوف الألمانى (نيتشه) الذى ألف كتاب (زوراواستر) الذى أعجب به (هتلر) واتخذه مثالا لفلسفة ، حيث قال نيتشه بارادة القوة ، وأراد نيتشه معنويتها ، فعكسها هتلر إلى الفكرة المادية . وكان مستمد الاثنين — نيتشه وهتلر — فى الحقيقة فلسفة (شوبنهاور) بمذهبه فى الإرادة .

كان زرادشت متفائلا ، أما مانى فكان متشائما يائسا يرى أن هذا

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية .

(٢) Lit. Hist. of Persia.

الامتزاج لامخلص منه إلا بالموت. يرى زرادشت أن يعيش الإنسان حياة طبيعية ، فيتزوج وينسل ، ويعنى بزرعه ونسله وما شيته ويقوى بدنه ولا يصوم وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر . أما مانى فإنه ينزع منزعا آخر هو أشبه ما يكون بالرهبنة . وقد كان مانى — كما يقولون — راهبا بحرّان ، فرأى أن امتزاج النور بالظلمة فى هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا إلى الزهد ، وشرع الصيام سبعة أيام أبدا فى كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ، ويستقبل الشمس قائما ، ثم يقوم ويسجد وهكذا اثنتى عشرة سجدة ، ويقول فى كل سجدة منها دعاء ، ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام ، وأقر بنبوة عيسى وزرادشت ، وقال إن (مانى) النبى الذى بشر به عيسى .

يرى مانى أن وجود الإنسان جناية جناها أهله ويجب انقراضه ، ويشابه أبو العلاء المعرى تشابها كبيراً ، وفلسفة مانى فلسفة تشاؤمية تتفق مع فلسفة (شوبنهاور) فى العصور الحديثة . وأمر مانى أتباعه بعدة أوامر أو ذكرها الشهرستانى [1] : « وقد فرض مانى على أصحابه العشر فى الأموال والصلوات الأربع فى اليوم والليلة ، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان . وأن يأتى على ذى روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله » .

اعتنق هرمز ملك الفرس مذهب مانى وأيده ، ودخل فى دينه كثير من الناس ، فلما مات هرمز وخلفه بهرام الأول لم يرتح الى تعاليمه وقتله وشرد أصحابه ، ولكن لم تمت تعاليمه ، وكان لدينه أئمة يتعاقبون ، وكان مركز الإمام أولا فى بابل ، ثم تحول الى سمرقند .

---

(١) الملل والنحل .

المزدكية .

ظهر فى القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٨٧ م) رجل فارسى من أهل نيسابور دعا الناس الى مذهب ثنوى (ثنائى) جديد ، فكان يقول بالنور والظلمة . ولكنه تميز بدعوته الى الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية فكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأنه ليس هناك مبرر للتفرقة بين شخص وآخر ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء . كان مزدك ينهى الناس عن البغض والحسد والقتال ، وجعل علاج هذه الأمور أن يبيح النساء والأموال ، بل جعلها شركة شائعة بين الناس جميعا يشتركون فى الماء والنار والكلأ والهواء [1] .

تحدث الطبرى [2] عن المزدكية فقال : « قال مزدك وأصحابه إن الله جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ، ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى من غيره ، فافترض السفلة ذلك واغتنموه وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا (قباذ) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .. وكان مما أمر به الناس وزينه لهم وحثهم عليه ، التآسى فى أموالهم وأهليهم » .

قارن الشهرستانى [3] بين المزدكية والمانوية فقال : « إن قول المزدكية

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ .
(٢) تاريخ الطبرى حـ ٢ ص ٨٨ ومابعدها .
(٣) الملل والنحل حـ ١ .

كقول كثير من المانوية فى الكونين والأصلين ، الا أن مزدك كان يقول، إن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى ، وأن المزاج كان على الإتفاق. والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار ... ومذهبه فى الأصول والأركان أنها ثلاثة :الماء والنار والأرض. ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر ، فما كان من صفو فهامدبر الخير ، وما كان من كدرها فهو مدبر الشر .. » .

اعتنق المزدكية آلاف من الناس إرضاء لشهواتهم ، ولكن قباذ نكل بمزدك وأتباعه ، فدبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣ م . كاد يستأصلهم بها .

الديصانية :

أتباع ديصان ، ويقولون بأن للعالم أصلين : النور والظلام . فالنور يفعل الخير قصدا واختيارا والظلام يفعل الشر طبعا واضطرارا . والخير مصدره النور والشر مصدره الظلام . والنور حى عالم قادر حساس ومنه يكون الحركة والحياة . والظلام ميت جاهل عاجز وجماد لا فعل ولا تمييز .

فرق مجوسية أخرى :

ترى فرقة المرقونية أن للعالم ثلاث أصول ، النور والظلمة والثالث هو المعدل الجامع ويعرفه الشهرستانى[1] بانه « سبب المزاج، فان المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع » . ويحرم المرقونية النكاح وذبح الحيوان. أما فرقة الكينوثية فترى أن الأصول ثلاثة : النار والأرض والماء . فالنار مصدر الخير باعتبارها مضيئة ، والماء مصدر الشر لأنه يطفىء النار، والأرض

---

(١) الملل والنحل حـ ١.

وسط بين بين الإثنين . أما فرقة الصيامية فهم من أمسكوا عن طيبات الحياة وتفرغوا لعبادة النيران ، وأمسكوا عن النكاح والذبائح . . أما فرقة التناسخية فقالوا بتناسخ الأرواح فى الأجساد، وما يترتب على ذلك من راحة الروح أو تعبها، فيثاب المحسن بالراحة، ويعاقب المذنب بانتقاله إلى جسد آخر يلقى فيها التعب ، فكأن هذه الأبدان هى الجنة والنار .

موقف الأكاسرة الساسانيين من المجوسية :

يظن البعض أن الساسانيين لكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم أو الترك قوم لاهمّ لهم إلا الحرب مثل الأشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب . لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفورى الحظ من الخبرة العملية يشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكى فى فارس وجعله عقيدة تملك على الشعب الإيرانى لبه وقلبه على السواء ، فألقوا فى نفسه أنه سلالة الملوك الكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون فى الأرض بتفويض من إله النور[1] .

كان الفرس ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة . وهو معنى يشبه ما عرف فى أوروبا بنظرية الحق الالهى[2] وسادت فيها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

---

(١) العبادى : صور من التاريخ الاسلامى ص ٨٩ .

(٢) Divine Right.

ويذكر (براون[1]) : « لم تعتنق نظرية الحق الالهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية » . وقد كان الأكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى[2] .

من الأسس التى عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسى القديم هو الزرادشتية التى ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية لهذه الديانة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الفارسية ، فأنشأوا فى كل مدينة ، بل فى كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذى هو رمز الخير وطاردة الظلمة التى هى رمز الشر . وقد أدتهم تلك العناية بالدين الزرادشتى إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموبذين على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر مانى ، ودعا إلى مذهبه ، وهو مذهب سلبى يرى الخير فى الزهد وعدم الإنتاج والإمتناع عن الزواج والنسل ، فإن بهرام الأول (٢٧٣ – ٢٧٦م) تجرد لمحاربته فقتل مانى ونكل بأصحابه شر تنكيل وقد قابل رجال الدين الزرادشتى هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسى بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم .

ومن المبادىء المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الفارسى القديم القائم على الأسرة والملكية . فلما ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة

---

(١) Hist. of Persia

(٢) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١١١ .

نحلته ، فقضى على مزدك وأتباعه كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه[١] .

إن انتصار الدولة الفارسية للزرادشتين والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى التى كان يعتنقها فى فارس جماعات كبيرة .

يرى (أرنولد)[٢] أن مما أثار غضب الأهالى الفرس وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوى على الكراهية والبغضاء ، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التى غدت دين الدولة الرسمى ، والتى كانت من قبل بغيضة عند الأهالى ، ويفسحون المجال لكهنتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى الدولة ، وصاروا على جانب عظيم من القوة فى مجالس الملك وادعوا أن لهم نصيبا كبيرا فى ادارة الشؤن المدنية ، واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد كل الديانات المخالفة لهم . فإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدى المذاهب الفارسية القديمة ، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة وأحزاب مختلفة . تأثرت بتأملات الأوربيين والبوذيين والمانوية . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين الذى تغلغل فى بلاد الفرس ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان ذلك علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهالى الفرس مما أصبحوا فيه .

لماذا اضطهد الساسانيون المانوية ؟ دعا بهرام إلى قتل مانى وأصحابه

---

(١) رانولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٦ .

(٢) المبادى ص ٩١ .

الناحية العملية ، فقد كان زرادشت يدعو إلى العمال ، وكان فى تعاليمه مؤيدا للقومية والنزعة الحربية ، مما يتفق وميول فارس إذ ذاك ، وعلى العكس من ذلك تعاليم مانى ، فهى أميل إلى الزهد والرغبة عن ملاذ الحيـــاة واستعجال الفناء ، وهى — ولاشك — فى منتهى الخطورة لمملكة حربية كفارس .

المجوس فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادى حتى كانت الأسرة الساسانية قد سقطت ، ودخلت فى حوزة المسلمين تلك الإمبراطورية الفـارسية الشاسعة ، التى ناهضت روما وبيزنطة أربعة قرون . ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية . لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسى الذى كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية فى أواخر أيامها استبدادا يتميز بكثير من ضروب الفوضى والظلم .

رأينا كيف غضب الفرس لمناصرة الحكام الساسانيين لديانة زرادشت وافساح المجال لكهنتها حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى الدولة ، ثم اضطهدوا كل الديانات الأخرى . ولذا نرى الفرس بعد انتصار المسلمون يتنفسوا الصعداء : فأقبلوا يرحبون بالعرب ، حبا فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة فى اعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتين وصابئة أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا للمسلمين الجزية . ولقد قيل إن الرسول أوصى بالزرادشتين خيرا وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كفاء حمايتهم . ويرى أرنولد أن هذا الحديث قد ذاع فى القرن الثانى للهجرة حين تلمس المسلمون حديثا نبويا يبيح

التسامح الدينى فى معاملة أهل الديانات المختلفة الأخرى التى وجدها العرب فى البلاد التى فتحوها ، سواء أدخل معتنقوا هذه الديانات فى عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا .

لم يكتف العرب الفاتحون بإسقاط الدولة الساسانية ، بل أزالوا نظام الطبقات والدين اللذين كانا مسيطرين فى ايران قبل الإسلام ، فلم يبق من المعتنقين للزرادشتية القديمة إلا قليل من الأتباع يسمون « كبر » أو « پارث » وعددهم قليل . على أن الأسلام لم يكن خاليا من تأثير فيهم أيضا ، فإن وحدة الإله التى جاء بها الإسلام انتصرت على العقائد الزرادشتية القديمة . وزالت عادة زواج الأب من البنت والأم من الإبن والأخ من الأخت التى تبعها الزرادشتية ولو أن الايرانيين وبالأخص الـ « كبر » لم يحجموا مدى القرون الوسطى عن ادعاء « عدم وجود الزواج من الأقارب فى العقائد المجوسية » فى فارس مخالفين بذلك الحقيقة الواقعة .

وصفت كثير من الأمور التى ترجع إلى تاريخ فارس قبل الإسلام فى صور جميلة كهذه ولكنها بعيدة عن الحقيقة وقد كانت عظمة قصور الساسانيين وشوكة دولتهم ، وعقل الملوك والوزراء وتدبيرهم ، وحضارة البلاد ، موضع إعجاب الفرس المسلمين وغبطتهم دائما . ولقد انفقوا أنواعا من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأى شكل [1]

ضاع استقلال فارس بالفتح العربى الاسلامى ، وأصبحت ولاية عربية اسلامية ووقع كثير من الفرس فى أيدى العرب أسرى واسترق بعضهم ووزع على العرب ، ودخل كثير من الفرس فى الاسلام ، وتعلم كثير منهم اللغة العربية ، حتى كان منهم فى الجيل الثانى من يتكلم العربية كأحد

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٥ .

أبنائها ،ولكن برغم هذا كله لم يمحوا فى جملتهم كالعرب فى عقيدتهم ، ولا كالعرب فى مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم ، ولا كالعرب فى عقليتهم بل اعتنقوا الاسلام فصبغوه بصبغتهم الفارسية، ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده، ففهموا الاسلام بالقدر الذى يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه ، وكذلك تعلم الكثير منهم العربية ولكن لم يترك خياله الفارسى.ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمة.

كان من أثر ذلك طبيعيا أن تدخل تعاليم فى الاسلام جديدة، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها فى الاسلام التشيع والتصوف، وكان من أثر ذلك أيضا أن يغمر الأدب العربى بالحكم والقصص الفارسية [1]

لم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم بل اتخذها الزرادشتيون أيضا، فنشأت لغة فارسية حديثة ومحتوية على كثير من الكلمات العربية . أما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد كثر الغلط فى فهمها ، لأنها فهمت بصعوبة كثيرة وبدراسات العلماء الأوروبيين [2]

كانت لغة الفرس فى عهد الدولة الساسانية هى اللغة الفهلوية ، و «زند» الذى هو شرح للأفستا مكتوب بهذه اللغة ، وكان لهذا الكتاب الدينى أثر فى حفظها . ولكن لم يصل إلى عصرنا هذا كثير من ثروة الفرس الأدبية الفهلوية التى كانت منتشرة فى الدولة الساسانية وصدر الإسلام والسبب فى ذلك أن دين الاسلام ظفر بدين زرادشت وحل محله ، كما حلت اللغة العربية والحروف العربية محل اللغة الفهلوية والحروف الفهلوية ، فذهاب الحكومة الفارسية ودينها ، وحكمها بالعرب ، وتحولها من مملكة إلى ولايات إسلامية ، ودخول كثير من الفرس فى الاسلام ، واضطراهم إلى تعرف

---

(١) احمد أمين : فجر الاسلام ص ٩٨ .

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٩٩ .

اللغة العربية ، الدين أو الدنيا أولها معا ، وازدراء المسلمين لبيوت النيران التى هى شعائر الثنوية ، كل هذا عرض الديانة الفارسية واللغة الفهلوية للاضمحلال ثم الفناء[1] .

رحب سكان المدن ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة بالدين الاسلامى ، واعتنقه عدد عظيم منهم فى حماسة كبيرة وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان ينظر اليهم أمام القانون باحتقار وازدراء ، ولما فى اعتناقهم الاسلام أيضا من تركهم فى الحـــال أحراراً ومساواتهم فى المذهب الدينى .

لم يكن إرتداد الفرس الزرادشتيين عن ديانة زرادشت بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور هذه الديانة ، حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلا ميسورا لتدينهم بالإسلام . ويرى أرنولد[2] أن تشابه الإسلام والزرادشية فى بعض الوجوه قد مهد الطريق أمام الزرادشتيين لاعتناق الاسلام . فالفارسى يستطيع فى رأى أرنولد — أن يجد فى القرآن كثيرا من التعاليم الأساسية فى ديانته القديمة وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا . وبعبارة أخرى فإنه يعادل بدل إسم (أهورمزدا) و (أهرمان) فى ديانته القديمة إسم الله وابليس فى القرآن ، كما يجد أيضاً أن الله خلق العالم فى ستة أيام ، ويقرأ عن الملائكة والشياطين ، كما يقرأ قصة براءة الانسان القديم ، وبعث الجسد بعد الموت ، والاعتقاد بوجود الجنة والنار . بل هناك تشابه فى تفصيلات العبادة اليومية ، فأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتناقهم الاسلام أن

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١١٣ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٧ .

يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد ، الصلاة خمس مرات فى اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الدينى القديم المسمى (أفستا) . وكانت هذه القبائل التى تقيم شمال فارس ، والتى قاومت النظام الكنسى لدين الدولة الرسمى فى عناد مستمر بحجة أن كل شخص كان قسيسا فى بيته ، وأنه لم يكن به من حاجة لأى واعظ آخر ، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح، ولأنه عرف أن الانسان يجب أن يحب الخير لجاره، وأن يكبح جماح شهواته ويسعى فى صبر وأناة إلى حياة أفضل ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة الى كثير من الاقناع لهم على قبول الإسلام[1] .

والى جانب هذا العامل الدينى الذى أدى الى سرعة انتشار الاسلام بين الفرس والمجوس ، كان ثمة عامل آخر ، هو الشعور السياسى والوطنى للشعب الفارسى. فقد تأثروا بزواج الحسين بن على من (شاهبانو) احدى بنات يزوجرد وآخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس فى أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية. وهذا الشعور الوطنى يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى ابن أبى طالب من جهة ، كما يفسر لنا ظهوره فى فارس حزبا منفصلا من جهة أخرى .

يؤكد أرنولد[2] أن القوة والعنف لم تكن السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس إلى الاسلام، بدليل هذه المعاملة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم . ولا يزال إلى الآن فى بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار . ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرا من الاضطهادات، كان أسلافهم فى القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية. وبالنظر إلى الحقائق التاريخية السابق ذكرها يكون من المستحيل

---

(١) يشارك ارنولد فى هذا الرأى ايضا كل من دوزى ودى جوبينو .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٨ .

قطعاً أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الاسلام . من المحتمل أن يكون عدد أهالى فارس الذين اعتنقوا هذا الدين فى السنين الأولى من الحكم العربى كبيرا جداً للأسباب المختلفة التى ذكرناها . بل إن فى بقاء مذهبهم القديم وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيا فى خلال القرون المتتابعة مما يقوى فى نفوسنا ماذهبنا اليه من احتمال تدينهم الاسلام بمحض اختيارهم وفى جو من الهدوء والسلام .

أما عن معاملة المسلمين للمجوس من الناحية المالية ، فقد اختلف المؤرخون فى اعتبار المجوس من أهل الكتاب . فالماوردى[١] يذكر أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والانجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم وإن حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصابئة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقدهم » ويؤكد البلاذرى[٢] أن المجوس من أهل الكتاب ، فيروى أن عمر بن الخطاب جلس إلى بعض صحابة الرسول فقال : ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) أما الشهرستانى[٣] فذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية[٤] فذكر أبى عبيد[٥] « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر ، يدعوهم إلى الاسلام ،

---

(١) الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .
(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .
(٣) الملل النحل حـ ١ ص ٤٨ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤ .
(٥) الاموال ص ٢١ .

فمن أسلم قبل منه ومن لا ضربت عليه الجزية ، على أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة . كما صالح الرسول أهل البحرين ومعظمهم من المجوس، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجمع الجزية منهم[١] .

روى أبو يوسف : « عن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس . قال على كرم الله وجهه : وأنا أعلم الناس بهم ، كانوا أهل كتاب يقرأونه ، وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم » .

كان أخذ الجزية من المجوس واعتبارهم من أهل الكتاب سببا لاثارة كثير من الجدل والنقاش، فروى أبو يوسف[٢] « أن فروة بن نوفل الأشجعى قال : إن هذا لأمر عظيم ، يؤخذ من المجوس بالجزية وليسوا بأهل كتاب ؟ قال : فقام إليه المستورد بن الأحنف فقال : طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتب وإلا قتلتك والله . وقال : قد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجوس أهل هجر الجزية ، قال: فارتفعنا الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا عن المجوس : إن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه ، وأن ملكا لهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون اليه ، فلما أفاق من سكره قالت له أخته إنك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان وفلان ينظرون اليك . فقال : ما علمت بذلك . فقالت : فانك مقتول ولا نجاة لك إلا ان تطيعنى ، قال : فإنى أطيعك ، قالت : فاجعل هذا دينا وقل هذا دين آدم ، وقل حواء من آدم ، وادع

---

(١) الاموال ص ٢٣ .
(٢) الخراج ص ١٢٩ .

الناس اليه واعرضهم على السيف فمن تابعك فدعه ومن أبى فأقتله ففعل ، فلم يتابعه أحد فقتلهم يومئذ حتى الليل. فقالت له : إنى أرى الناس قد اجترؤا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم نارا ثم اعرضهم عليها ، ففعل، فهاب الناس النار فتابعوه .قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخراج لأجل كتابهم وحرم مناكحتهم وذبائحهم لشركهم » .

وكان هناك من المسلمين من يرى أن المجوس ليسوا من أهل الذمة فلا يجوز أخذ الجزية منهم . فروى أبو عبيد[1] أن أبا موسى الأشعرى قال : لولا أنى رأيت أصحابى يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها . وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى الحسن يسأله : ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على نكاح الأمهات والبنات ؟ وذكر أشياء من أمرهم قد سماها . فكتب إليه الحسن : أما بعد ، فإنما أنت متبع ولست بمبتدع . وكتب عمرو ابن الحرث إلى ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس : وكيف يثبت عليهم الجزية ؟ وكيف تركوا مشركى العرب ؟ فكتب ربيعه : قد كان لك فى أمر من قد مضى مايغنيك عن المسئله عن مثل هذا .

ظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة ، وقد حفظ أبو يوسف[2] لنا خبر أخذ عدى بن أرطأة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز فى العراق الجزية من المجوس .

يرى كل من المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ، والمرحوم الأستاذ أحمد أمين أن أباذر الغفارى كان متأثراً فى بعض مبادئه ببعض آراء مزدك. فيقول الأستاذ العبادى[3] : وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت

---

(١) الاموال ص ٣٦ .
(٢) الخراج ص ١٣١ .
(٣) صور من التاريخ الاسلامى ص ١١٤ .

بسبب قوى إلى حركة مزدك الشيوعى الذى ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى أنو شروان ، والذى كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنو شروان وحزمه » .

أما الأستاذ أحمد أمين[1] فيقول « تلمح شبه بين رأى أبى ذر الغفارى وبين رأى مزدك فى الناحية المالية » . ويؤيد رأيه برواية للطبرى[2] جاء فيها عن أبى ذر أنه « قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون به والناس » . ويتهم الطبرى أبا ذر بأنه تلقى تعاليمه عن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وكان يهوديا من صنعاء تظاهر بالإسلام فى عهد عثمان بن عفان . وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم ، وبث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة ، ونشر مبادئه فى الحجاز والبصرة والكوفه والشام ومصر . ويعلق الأستاذ أحمد أمين على آراء أبى ذر ، فيقول : فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن ، واعتنقها أبو ذر حسن النية فى اعتقادها وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح إليها نفسه ، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا ، وكان من الشخصيات المحبوبة التى أثرت فى الصوفية »

تميز العصر العباسى بشيوع لفظ « الزندقة » وارتباطه بالمجوسية فى معظم الأحيان ، وإن كان هذا اللفظ قد شاع فى أواخر العصر الأموى إلا أن ذلك كان على نطاق محدود . فى العصر الأموى ، اتهم عبد الصمد

---

(١) فجر الاسلام ص ١١٠ .
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٦٦ .

ابن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة فى العصر الأموى، وأتهم الوليد بن يزيد كذلك ، كما كان الجعد بن درهم الذى ينسب اليه مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فيقال مروان الجعدى زنديقا . وقد ذكر ابن النديم (١) « أن الجعد كان مؤدبا لمروان ولولده، وأنه أدخله فى الزندقة وكان خالد بن عبدالله القسرى ، على الرغم من اتهامه بالزندقة شديدا على الزنادقة ، حتى أنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى فى عهد هشام ابن عبد الملك الأموى .

ويرجع السبب فى عدم انتشار الزندقة فى العصر الأموى ، أن الدولة الأموية كانت دولة عربية دما ولحما ، فالخليفة عربى يختار ولاته من العرب، ويحرص على صبغ الدولة فى شتى النواحى بالصبغة العربية . بينما الموالى فى منزلة أدنى بكثير من العرب . ليس لهم من أمر الدولة شىء . والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً ولا تميل اليها ، فهم مطمئنون إلى ملكهم وإلى دينهم. فلما قامت الدولة العباسية انتعش الموالى وخاصة الفرس ، وأصبح أكثر السلطان فى أيديهم ، وغلبوا على العرب ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعها لما اعتنقوا الاسلام ، وكانوا لا يجرءون فى الحكم الأموى أن يرفعوا أصواتهم، فكان همهم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين ، والزندقة إنما هى فى الدين لا فى السياسة ، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا بدأت تلعب فى رؤسهم الديانات القديمة والجديدة فكانت الزندقة .

تميز العصر العربى الأموى بتعصب العرب على الموالى والفرس . ومن أسباب تعصب العرب غيرتهم على الإسلام واللغة العربية . أما غيرتهم على الإسلام : فقد شعر العرب فى قرارة نفوسهم أن بعض الموالى لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية . فيذكر

(١) الفهرست ص ٢٧٢ .

كريمر [١] أن بعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة ، وقبلوا الإسلام ظاهرياً فقط . ويقول ديمومبين [٢] إن الملاك من الموالى إعتنقوا الإسلام ليخضعوا للنظام الإسلامى ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم .

المجوس فى العصر العباسى :

كانت هناك دوافع سياسية لثورات الموالى الفرس على الحكم الأموى العربى . فقد ظهر بين الموالى الفرس نزعة قومية تدفعهم إلى إحياء المجد الفارسى القديم ، وفى ذلك يقول ابن حزم [٣] : « إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، ورأموا كيد الإسلام بالمحاربة » .

ظهرت حركات الزندقة فى العصر العباسى الأول بصورة خطيرة ، تهدد كيان الدولة العباسية والمجتمع الإسلامى ، فتعاليم الزنادقة تبعد تماماً عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانهيار .

اختلف معنى الزندقة على مر العصور ، فقد كان العرب يطلقون لفظ

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٧٤ .
(٢) النظم الاسلامية ص ٧٤ .
(٣) الفصل فى الملل حـ ٢ ص ١١٥ .

زنديق على من ينفى وجود الله سبحانه وتعالى أو ينكر حكمته ، أو يقول إن له شريكا . وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس فى عاداتهم وحضارتهم ويسرف فى العبث والمجون . ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له ، ويتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة إلهين أثنين ، واتباع تعاليم مانى ، ثم توسعوا فى العصر العباسى فى إطلاق لفظ الزندقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية أو يتظاهر بالظرف[1] ويرى الأستاذ أحمد أمين[2] أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ، وإنما كانت تطلق على معان أربعة (١) التهتك والاستهتار والفجور مع تبجح فى القول ، يصل أحياناً إلى ما يمس الدين ، ولكن قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون . (٢ إتباع دين المجوس ، وخاصة دين مانى ، مع التظاهر بالإسلام ، كالذى أتهم به بشار وحماد وابن المقفع ٣) إتباع دين المجوس وخاصة مانى ، من غير التظاهر بالإسلام كالذى يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة . (٤) ملحدون لا دين لهم ، كالذى يحكيه المعرى . ولكن يبدو أن الكلمة — أكثرها كانت — تطلق على من اعتنق المانوية باطناً والإسلام ظاهراً ، ثم توسعوا فى معناها فأطلقوها على الاباحى ، والملحد الذى لا دين له .

كانت الكوفة — التى ظهر منها الدعاة العباسيون — فى مستهل القرن الثانى للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامى . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من ديانات شتى ، على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ١٠٥

(٢) ضحى الاسلام حـ ١ ص ١٦١ .

Parsees والمانوية والصابئة وغيرها) . وذلك للتوفيق بينه وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الإسلامى بين الناس بحماس وحمية رغم هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ويدافعون عنه بإخلاص وغيرة . يدل على ذلك ما كان الحكم بالإعدام على كثير من الغلاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب إلى عصر المنصور العباسى[1] .

ارتبطت الزندقة بالمجوسية عامة والمانوية خاصة . فالجاحظ الذى عاش عصر المأمون تحدث عن كتب الزندقة فوصفها وصفاً دقيقاً ، يشابه تماماً ما نعلمه عن كتب المانوية . ثم جاء الأصفهانى بعده (+ ٣٤٨ هـ) فتحدث عن الزنادقة فى كتابه الأغانى[2] فقال إنهم « كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى » . كما أن ابن النديم فى كتابه (الفهرست) يذكر أن كلمة الزنادقة كانت تطلق على أصحاب مانى ومعتنق مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد .

أما من الناحية اللغوية ، فيذكر الجوهرى فى الصباح : الزنديق من الثنوية وهو معرب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق ، والاسم الزندقة » . وجاء فى لسان العرب . « الزنديق القائل ببقاء الدهر ، فارسى معرب (زَنْدَكَر) أى يقول ببقاء الدهر . ويرى البعض أن كلمة زنديق فى الأصل معناها بالفارسية الذى يتبع زند ، ثم أطلق على المانوية ، لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ، ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل .

كانت الدوافع الى الزندقة فى العصر العباسى مختلفة منوعة ، فقوم دعاهم إليها دين ألفوه قديماً وهو دين المجوسية . وكان لهم فيه آباء عديدون

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٦ . (٢) الاغانى حـ ٣ ص ٧٣ و٨٦ .

وكانت لهم عادات وتقاليد أخذها الخلف عن السلف ، ولكنهم أسلموا ليصلوا إلى المناصب الكبرى دون أن يدخل الإيمان قلوبهم ، واتخذوا الإسلام ثياباً ظاهرياً يخلعوها إذا خلوا الى أهليهم ، وهم إذا أمكنتهم الفرصة كادوا للإسلام والعرب ، ودعوا للشعوبية والمجوسية[1] .

من الأسباب التى أدت الى انتشار الزندقة ، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية ، أتباع زرادشت أحد أبناء الفرس ، وأن ذلك كان سبباً فى تأثير الزندقة فى أهل هذه النحل ، كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام ، فإن المانوى كالمسلم له عدد من الصلوات فى اليوم والليلة (أربع أو سبع) ، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين .

وأشهر أنواع الزنادقة فى العصر العباسى من كانوا يتظاهرون بالإسلام بينما هم لا يزالون على الدين الفارسى وهو المجوسية ، وخاصة مذهب مانى. ذلك أنه كان فى ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالإسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورأت أن لاسبيل لنيل الجاه والسلطان والمال إلا بالإسلام فاعتنقته ظاهراً وظلت تخلص لدينها القديم . وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ، إذ رأوا أنهم لا يستطيعون إفساد العقيدة الإسلامية إلا بالإنتساب اليها أولا حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفثون تعاليمهم على أشكال مختلفة ، طوراً فى العلم والدين ، وطوراً فى الأدب ، وطوراً فى وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يعثر على بعضهم فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحياناً يعملون أفراداً ، وأحياناً يعملون جماعات .

من هؤلاء الزنادقة : عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى وضع ألف

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ١٦٢ .

حديث نبوى مكذوب واعترف بجريمته فقتله المنصور . وحماد الراوية الذى أفسد الأدب واللغة . وصالح بن عبد القدوس الذى دس معانى الزندقة فى الأشعار . ويونس بن أبى فروة الذى ألف كتابا فى مثالب العرب والإسلام ليتقرب به إلى ملك الروم . وكان هؤلاء وأمثالهم يتزندقون تزندقا علميا ، فهم يدينون بمانى أومزدك ، ويؤمنون بالنور والظلمة ، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم ، ثم يتظاهرون بالإسلام تقية ، أو توسلا إلى إضلال الناس[1] .

تفشت الزندقة فى عهد الخليفة العباسى المهدى ، فأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة» وأمره بالقضاء عليهم ومحو تعاليمهم ، وألف المهدى هيئة علمية لمناظرة الزنادقة ووضع الكتب للرد عليهم . وأوصى المهدى ابنه موسى الهادى بتتبع الزنادقة والقضاء عليهم ، وهذه الوصية تبين حقيقة الزنادقة ومبادئهم ، وهى : « يابنى ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها مرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وشحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لاشريك له . فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين »[2]

لم تقتصر الزندقة على الفرس ، بل اعتنقها بعض العرب ، ومنهم صالح

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ١٥٧ .
(٢) الطبرى حـ ١٠ ص ٤٢ .

ابن عبد القدوس ، ومطيع بن أياس الشاعر الذى عاش فى عصر المنصور والمهدى . على أن الناس فى العصر العباسى أفرطوا فى الرمى بالزندقة . وكانت الخصومة السياسية والدينية والأدبية سبباً فى الرمى بالزندقة .

من أشهر حركات الزنادقة المرتبطة بالمجوسية فى العصر العباسى: الراوندية والمقنعية ، والخرمية . أما الراوندية فقد ظهروا فى عهد أبى جعفر المنصور ونادى زعيمهم الأبلق أن الروح التى كانت فى عيسى صارت فى على بن أبى طالب ثم الأئمة إلى ابراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبى وأنهم آلهة ، واستحلوا الحرمات . وفى عهد أبى جعفر المنصور أعلنوا أنهم يعبدونه . وقاوم المنصور الراوندية وسجن عدداً منهم ، فتجمع باقى الراوندية واقتحموا السجن وأطلقوا سراح زملائهم ، وخرج المنصور بنفسه لقتالهم وكاد يقتل[١]

كان المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين للدولة العباسية ، لأنهم من أتباع عدوه اللدود أبى مسلم الخراسانى الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروى ، كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ، فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاماً ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقنع الخراسانى وبابك الخرمى وغيرهما[٢] .

المقنعية : فى عصر الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ظهر فى خراسان رجل قبيح الخلقة كان يضع على وجهه قناعا من ذهب ، ولذا كان يسمى المقنع ، ادعى الألوهية ، وزعم أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم إلى صورة ابراهيم ، ثم إلى صورة الأنبياء على التوالى

---

(١) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٧ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ٩٤ .

ثم إلى صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم إلى صورته هو ، وزعم أنه يتنقل في الصور ، لأن عباده لا يستطيعون رؤيته على طبيعته وإلا احترقوا بنوره . وأسقط المقنع الصلاة والزكاة والصوم والحج وأباح للناس الأموال والنساء ، وأمر رعاياه باعتناق التعاليم المزدكية ، وأمرهم بعبادته والسجود له .

إستطاع المقنع أن يجمع حوله بعض السذج من أهالي بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين ، واعتصم بقلعة منيعة ، فبعث الخليفة المهدي بجيش كثيف حاصر القلعة بما فيها من متاع ودواب ، ثم أذاب النحاس والسكر في تنور ، وجمع نساءه وأولاده ، وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء . وقال لهم إني صاعد إلى السماء فمن أراد يصحبني فليشرب من هذا الشراب . وسقاهم شراباً مسموما شرب هو منه ، فماتوا جميعاً ، وألقى نساءه وأولاده في النار ، ثم ألقى بنفسه فيها سنة ١٦٩ هـ .

من حركات الزندقة المتصلة بالمجوسية حركة الخرمية البابكية نسبة إلى بابك الذي أدعى الألوهية في عهد الخليفة العباسي المأمون . وكانت طائفة الخرمية قد أسسها مزدك في عهد قباذ أبي كسرى الأول المعروف بأنوشروان ، ولذا كانت تسمى الخرمية المزدكية تمييزا لها عن الخرمية البابكية .

يرى البعض أن اسم الخرمية نسبة إلى : خرما) امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد مقتل زوجها . أما (فان فلوتن)[1] فيرى أن هناك صلة بين إسم الخرمية الذي قد يكون مشتقا من (خرم) وهو اسم لمدينة ببلاد ميديا ، أو كلمة (خرم) ومعناها (لذيذ) . فإذا ما تكلمنا عن (خرم دينيا) تحدثنا عمن لا يعرفون ديناً غير اللذة . وقد

---

(١) السيادة العربية ص ٩٩ .

جعلت هذه الطوائف للنساء مكانة أرقى من مكانتهن فى البلاد الشرقية وأباحت لهن الظهور فى المجتمعات الدينية بقصد الإستمتاع بظهورهن فى تلك الإجتماعات .

من مبادىء الخرمية البابكية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس ، وكأنهم بهذه المبادىء يحاربون الإسلام والعروبة . فيذكر المؤرخ المقدسى[1] : (فإن الخرمية احتالوا فى إزالة الملك إلى العجم ، فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ودعوا إليها فى السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد » . كما يقول المقدسى عنهم أيضاً :[2] « هم فرق وأصناف غير أنهم يجمعهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحى لا ينقطع أبداً ، وكل ذى دين مصيب ما لم ير كيد نحلتهم وخسف مذهبهم ويعظمون أمر أبى مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبى مسلم . ولهم أئمة يرجعون إليهم فى الأحكام ورسل يدورون بينهم يسمونهم (فريشتكان) ، ولا يتبركون بشىء مثل تبركهم بالخمور والاشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء . وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع » .

وتحدث نظام الملك فى كتابه (سياسة نامه) عن تعاليم الخرمية فقال: رفض الخرمية جميع الفروض الدينية كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخر والمحرمات وشيوعية النساء ، وهى مبادىء مزدك . وعملوا جهدهم للقضاء على الإسلام قضاء تاماً . كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد اتخذوا من

---

(١) البدء والتاريخ حـ ٥ ص ١٢٤ .
(٢) المراجع السابق حـ ٤ ص ٣٠ ـ ٣١ .

أسمائهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم ، لنشر دعوتهم التى ترمى إلى هدم الإسلام .

كان بابك تابعاً لجاويدان أحد زعماء الخرمية ، فلما مات جاويدان ، عينت زوجته بابك فى منصب زوجها وزعمت أن روح جاويدان حلت فى جسد بابك ، وأمرت الخرمية بطاعته ، ومالبثت أن تزوجت منه . وتمكن بابك فى عهد الخليفة المأمون أن يسيطر على أذربيجان ومعظم بلاد إيران وتحالف مع ملك أرمينية وامبراطور الدولة البيزنطية ، وأنضم اليه قطاع الطرق والجند المرتزقة وأتباع النحل الزائفة ، وبلغ عدد فرسانه عشرين ألف فارس عدا المشاة ، وكان يضطهد مخالفيه بقسوة ، وبلغ عدد من قتلهم . فى رأى المقدسى ، مليون نسمة ، وهزم عدة جيوش للخليفة .

هرب بابك الى سهل بأرمينية وتتبعه سهل بن سنباط حتى تمكن من اعتقاله وسلمه للأفشين قائد الخليفة المعتصم الذى أسرع يبشر الخليفة بالنبأ ، فدقت طبول الفرح ، وضج الناس بالتكبير ، وبعثت الكتب الى الانصار تنبئهم بهذا الفتح والنصر . ووصل الافشين بأسيره الى سر من رأى سنة ٢٢٣ هـ ، وسجد المعتصم عند رؤية بابك شكراً لله ، وانتهى أمر بابك بتعذيبه بتقطيع أطرافه ثم قتله وصلبه [١] .

لعل أخطر ثورات الزنادقة فى العصر العباسى ، ثورة الافشين فى عصر الخليفة المعتصم ، وقد قام بثورته بالتحالف مع المازيار رئيس فرقة المحمرة . وهى فرقة من فرق الخرمية أتباع بابك الخرمى .

كان مبدأ ظهور المازيار فى عصر المأمون ، فقد ولاه بعض أطراف طبرستان وسماه محمداً . ولكنه فى عهد الخليفة المعتصم اتصل ببابك الخرمى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

وعرض عليه مساعدته فى ثورته ضد الخليفة العباسى . ثم طلب المازيار البيعة من الناس ، فلم يقبلوا على بيعته ، فأكرههم على البيعة ، وأخذ منهم الرهائن ، وحرض عمال الأراضى الزراعية على أصحابها والقيام بالسلب والنهب[1] .

انتهز المازيار فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمى ، فاتصل به وبالأفشين سراً ، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت فى الواقع ثورة دينية سياسية معاً ، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهى فى نفس الوقت حركة شعوبية ، تعمل على حط شأن العرب وازالة دينهم ودولتهم[2] .

نجح المازيار فى إشعال نيران الثورة فى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية . وكرس المعتصم جهوده للقضاء على هذه الفتنة الجامحة ، وتمكن بعد جهد من القبض على المازيار وصلبه فى مدينة سر من رأى بجوار جثة بابك . وذكر المسعودى[3] أن المازيار بعد أن قبض عليه « أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » .

أما الأفشين فوطنه الأصلى بلاد أشروسنه أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر وكان هو وأبوه فى خدمة المعتصم ، وقاد الأفشين فرقة من الجيش الذى غزا عمورية ، وابلى بلاء حسناً فقربه الخليفة إليه ، وعهد إليه بحرب بابك الخرمى .

كان الأفشين كما كان بابك والمازيار من قبله — يسعى إلى الاستقلال ببلاده ، والخروج على الإسلام والدولة العباسية معاً ، كما كان يعتقد أنه

---

(١) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٤٩ . (٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٥٤ .

لا سبيل إلى نصرة المجوسيـــة إلا على أيديهم . ويقول (براون) إن الأفشين لم يكن فى ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين الذين جمعاه فى نهايته المحزنة » .

أبدى الأفشين تعصبه لوطنه ، وكراهيته للعروبة والإسلام . أما تعصبه لوطنه ، فقد كان يرسل كل ما يصله وهو يحارب بابك ، من مال أو هدايا إلى بلاده [١] . أما كراهيته للعرب والإسلام . فقد عبر عنها فى قوله : « إنى قد دخلت لهولاء القوم (العرب) فى كل شىء أكرهه ، حتى أكلت منهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير أنى إلى هذه الغاية » يعنى لم يطل ولم يختتن » . وكان الأفشين يقول عن العرب : « العربى بمنزلة الكلب ، أطرح له كسرة ثم أضرب رأسه بالدبوس » [٢] . وقد وجدوا فى داره أصناماً كان يعبدها ، كما وجدوا كتب الزنادقة ، وكان يأكل الحيوانات المخنوقة زاعماً أن لحمها أرطب من المذبوح ، وكان لا يذبح على طريقة المسلمين ، فيأتى فى كل يوم أربعاء بشاه فيقطعها بسيفه من وسطها إلى نصفين ، وكان يكتب رسائله إلى قومه ويبدأها بعبارة : « من إله الآلهة إلى عبده فلان » ، كما ترك الأفشين الاختتان .

عقد الخليفة المعتصم محاكمة للأفشين ، وتولى الخليفة بنفسه رئاسة المحكمة ، وانضم إليه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، والقاضى بن أبى دؤاد ، وحضرها كثير من كبـــار شخصيات الدولة العباسية . ووجهت المحكمة اتهاماتها للأفشين ، وهى تدور حول النقاط السابق لنا تعدادها ، ومنحته المحكمة فرصة الدفاع عن نفسه بعد توجيه كل إتهام على حدة . وقد انتهت المحاكمة بالحكم على الأفشين بالسجن ، فظل به فترة ومات فى سجنه ، وقيل مات مسموماً ، ثم أخرجت جثته ،

---

(١) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٦٣ . (٢) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٦٦ .

فصلبت ، وأحرقت مع الأصنام التى وجـــدت فى داره ، وذلك فى عام ٢٢٦ هـ[١] .

علق وليام ميور [٢] على محاكمة الأفشين فقال : « إن المحاكمة تبين بجلاء كيف تمسك أهالى ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثنى ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصنهم فى بلادهم المنيعة ، وقربهم من الأتراك الوثنيين . وقد خلص (ميور) من ذلك برأى هو أن إسلام بعض أهالى فارس إنما كان إسلاماً ظاهريا ، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ، ويعودوا الى دينهم القديم . ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التى أشعل نيرانها سنباذ المجوسى ، وأنصار أبى مسلم الخراسانى وبابك الخرمى.

يذكر (بارتولد [٣] أن الطاهريين (٢٠٥ — ٢٦٠ هـ = ٨٢١ — ٨٧٣ م كانوا أول أسرة إسلامية من أصل فارسى ، لم يكونوا ينظرون الى الأدب الفارسى نظرة طيبة ، ويرون العناية به مخالفة للدين . ولكن ازدياد نشاط المانوية لا فى خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب ، بل فى البلاد الأخرى أيضاً (كانت السلطة العسكرية فى بغداد بيد أحد الطاهريين بعد انتقال الخلفاء الى سامرا) أدى الى ازدهار الحضارة عامة وازدهار الحضارة الإيرانية خاصة . وفى أيامهم انتقلت عاصمة خراسان من مرو الى نيسابور التى صارت فى مدة وجيزة إحدى مراكز الحضارة . وكانت مدينة بيهق — اسمها الحالى سبزوار — أهم مراكز الدعاية الشيعية ، وقد أنجبت كثيراً من العلماء والكتاب منذ القرن ٣ هـ .

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ ، ابن الاثير : الكامل حـ ٦ ص ١٩٠ .

(٢) The Caliphate, p. 518.

(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٠

فى أواخر القرن الثالث الهجرى (نهاية ٨ م) أسلم سامان أمير بلخ وكان زردشتيا وأسس مملكة إسلامية هى الدولة السامانية ، وفى سنة ٨٧٣م دخل جمع كبير من أهل الديلم الزردشتيين فى الإسلام على يد ناصر الحق أبى محمد ، وفى سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن على — من الأسرة العلوية التى كانت تحكم الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين أهل الديلم وطبرستان الى الإسلام، فاستجاب معظمهم ، وكان بعضهم وثنيين والبعض الآخر زرادشتيين ، وفى سنة ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ م اعتنق الشاعر المشهور مهيار الديلمى الاسلام على يد الشريف الرضى ، وكان من عبدة النار . وقبله وفى أوائل القرن الثانى للهجرة (أوائل ٨ م) خرج من الزرادشتيين الى الإسلام عبد الله ابن المقفع ، وقد بقى بعض الزرادشتيين فى فارس الى اليوم ، وقد قدر بعضهم عبدة النار فيها من عهد قريب بنحو ٨٥٠٠ نسمة .

عمل الملوك السامانيون على انتعاش الأدب الإيرانى (٢٦٢ — ٣٦٨ هـ = ٨٧٥ — ٩٩٦ م) خاصة وقد انتقل الحكم فى خراسان وفى تركستان من حكم الطاهريين الى السامانيين . وقد جذبت عاصمتهم بخارى كثيراً من الشعراء والعلماء ، فصارت الدولة السامانية من أعظم الدول نظاماً فى القرن الرابع الهجرى . نشأ السامانيون فى بلخ وكانوا إيرانيين . وكانت اللغة الفارسية هى اللغة الرسمية فى أيام معظم هؤلاء الحكام ، ولكنهم اهتموا أيضاً باللغة العربية . وفى عهدهم ترجم تفسير الطبرى الى الفارسية ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية ، وادعى علماء الدين بأن الأنبياء الأوائل حتى اسماعيل جد العرب كانوا يتكلمون الفارسية . وكان شعراء إيران المنشدين فى قصور الملوك السامانيين يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام . فالشاعر الرودكى السمرقندى كان يقول : « لا معنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية . ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان ، فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك » .

وكان ينادى ببعض التعاليم المجوسية ، فيزعم أن السماء والارض هما أبو الإنسان وأمه . أما الشاعر الاقيق الذى حاول نظم الأساطير الإيرانية فقد صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتيـة قائلا : أنه يفضل الخمر وشفتى حبيبته ودين زرادشت على كل شيء آخر . أما أبو الريحان البيرونى (٣٦٣ - ٤٤٠ هـ) المعاصر لابن سينا ، فقد أظهر تعصبة للفرس أثناء حديثـه عن الحضارات السابقة للاسلام وهدم العرب لهـا ، وأبدى محبتة للمانوية[١] .

تحدث (أرنولد)[٢] عن تحول المجوس الى الاسلام فقال : على الرغم من قلة المعلومات التى وصلت الينا عن تحول المجوس إلى الاسلام ، فيبدو أن انتحالهم لهذا الدين كان بمحض ارادتهم ، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسى . حتى إذا جاء الغزو المغولى بدأ فى تاريخهم عصر أكثر إظلاما من العصر الذى سبقه ويبدو أن ألوان البؤس التى لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت فى نفوسهم روح التعصب الدينى وعرضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التى تنطوى على القسوة .

عومل المجوس فى القرن الرابع الهجرى كأهل ذمة ، فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة وعند الحكومة . ويقارن (آدم متز)[٣] . بين هذه الطوائف الثلاث فيقول : أما اليهود فأنهم استطاعوا أن يستنقذوا مركزهم السياسى من خلال الاتحاد المفكك الذى كان للامبراطورية البابلية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلبات . أما

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٩

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٤٠ .

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ص ٦٠ — ٦١ .

المجوس فهم بقية لعدو باسل مستقل لم يتم التغلب عليه فى مواطنه البعيدة المنال . أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على مايشبه حال أهل الذمة، وكانت الظروف التى عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حفظا لمصالحهم من اليهود أو من الشعوب فى الولايات المستولى عليها من الروم . وكانت الرئاسة بين المجوس واليهود وراثية ، وكان رؤساؤهم يلقبون بلقب الملك ، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم خلافا لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى . وقد قال بطريرك اليعاقبة فى مجلس له مع الخليفة : إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون ، وإنه هو رئيس روحى ، ولا يستطيع إلا فرض العقوبة الروحية ، كأن يحكم بعزل القسس والأساقفة من مناصبهم ، أو يمنع العلمانيين من حضور البيعة .

كان عدد المجوس كبيراً فى العراق فى القرن الرابع الهجرى[1] وخاصة فى جنوب فارس . وفى سنة ٣٦٩هـ = ٩٧٩م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين ، ونهبت فى هذه الفتنة دور المجوس ، وغضب عضد الدولة لما نزل بالمجوس وعاقب كل المعتدين عقابا صارما[2] كانت شيراز مدينة هادئة ، وقد عجب المقدسى من أنه لم ير فيها على مجوسى رداء يميزه عن غيره ، وكانت الأسواق تزين فى أعياد المجوس : وتركز المجوس فى فارس فى مدينة القريتين فى المفازة التى بشرق فارس ، وكانت حرفتهم الرئيسية كرى الحمير[3] .

---

(١) المقدسى ص ١٢٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ٨ ص ٥٢٢ .
(٣) قدامه : الخراج (طبعة ليدن) ص ٢٠٩ .

UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS

ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

No. 4 — JULY 1964

DAR EL-HANA Press — Cairo.

[illegible]

ON THE ESTIMATION OF EVAPORATION FROM LAKE NASSER

By

M. A. Hammouda * and M. K. Elnesr **

Summary

The evaporation rate from lake Nasser has been estimated for the different months of the year. The study was based on Penman's work which implies the knowledge of the available meteorological data.

The expected amount of water to be lost by evaporation would come to 200 mm per month corresponding to 10.6×10^9 m^3 per annum.

1 — Introduction

Lake Nasser which will be formed in front of Aswan High Dam will be one of the biggest artificial lakes of the world (area about 4000 $km.^2$). Its northern extremity starts 8 km. south of Aswan and extends 500 km. southward. Its average width is 8 km. and its depth is about 50 m. Its capacity will reach 136×10^9 m^3 of flood water that used to be lost in the Mediterranean.

This huge water reservoir extending up to contour 182 m. will offer, besides the generation of electric power (10 milliar kilowatt hour/annum), an increment of one million feddans of

* Assistant Professor, Botany Department, Women's College, Ain Shams University.

** Assistant Professor, Physics Department, Women's College, Ain Shams University.

cultivated land and the changement of the basin system of irrigation in Upper Egypt to the canal system. Moreover, it will guarantee the irrigation needs of all cultivated land even in years of low water floods. It will offer basin lands along its boundaries to be cultivated and increase the potentialities for fish breeding.

The extended water surface of the lake, subject to the severe solar radiation and other climatic factors will, evidently, lead to enormous losses of water to the atmosphere. The knowledge of the rate of evaporation from the lake is, naturally, of value to scientists and engineers interested in water economy. It is the purpose of this paper to evaluate the expected losses due to evaporation for the different months of the year.

2 — Theory

The evaporation from a lake or a reservoir could be obtained by a purely observational technique, i.e., measuring the water level, precipitation, inflow and outflow of water. On the other hand, to estimate the expected rate of evaporation from meteorological data, two quite distinct methods could be adopted :

1 — The diffusion method, which depends on the mechanism of removal of vapour by diffusion.

2 — The energy balance method, which depends on the determination of the amount of energy used to change water to the vapour phase.

Different workers have treated the two methods and gave various formulae to evaluate the rate of evaporation : Brunt (1939), Sutton (1950), Priestley (1949) and Pasquill (1943, 1949). Either method could be applied when the surface temperature is known.

Penman (1948, 1950), has approached the problem combining the two classical conceptions to eliminate the unknown surface temperature and gave the following formula :

$$E_o = (\Delta H + 0.27\ E_a) / (\Delta + 0.27)\ \text{mm/day}$$

where :

Δ = the slope of vapour pressure curve for water at mean air temperature T_a (mm mercury/°F)

H = R_A (1—r) (0.18+0.55 n/N)— σT_a^4 (0.56—0.92 $\sqrt{e_d}$) (0.10+0.90 n/N). 0.27 is the constant for the standard hygrometer equation mm/°F.

E_a = 0.35 (e_a —e_d) (1+$u_2 \times 10^{-2}$) mm/day.

R_A = theoretical calculable amount of radiation that could reach the earth in the absence of an atmosphere in evaporation units, (59 cal/cm² = 1 mm evaporation).

r = reflection coefficient, to be taken as 0.05 in case of open water surface.

n/N = actual possible hours of sunshine. In the first term in H it is a factor limiting incoming short wave radiation; in the second it is a transform of a cloudiness factor limiting outward long wave radiation.

σT_a^4 = theoretical black body radiation at mean air temperature T° K (in evaporation units).

e_d = saturated vapour pressure at dewpoint (mm Hg).

e_a = saturated vapour pressure at mean air temperature.

$e_d - e_e$ = mean saturation deficit.

u_2 = average wind speed in miles/day at two m. above the groud.

3 — Available Meteorological Data

To apply the above relation, it is required to know the meteorological data at the different localities where the lake will be formed. The available data in the Climatological Normals for Egypt and the Sudan (1938 & 1950) are only those for Aswan (24°2'N, 32°53'E, h. = 111 m.) and Wadi Halfa, (21°55'N, 31°19'E, h. = 135 m.). Table 1 summarizes the monthly mean values for these two Stations; (number of years of observations are 45 and 34 for Aswan and Wadi Halfa, respectively). It could be noticed from Table 1 that their weather conditions are almost similar. The air temperature and the humidity are slightly lower

Table I

Monthly means of different meteorological factors at Aswan and Wadi Halfa

Month	ASWAN							WADI HALFA				
	Air Temp.	R. Hum.	W. vel.	V. pr.	n/N	Rad.	Evap.	Air Temp.	R. Hum.	W. vel.	V. pr.	Evap.
							(Piche)					(Piche)
	°C	%	km/h.	mb.		g.cal/cm²	mm/day	°C	%	km/h.	mb.	mm/day
Jan.	15.0	45	6.3	7.7	.85	22.0	7.3	14.5	47	5.5	7.6	8.8
Feb.	17.2	40	8.3	7.6	.88	25.1	8.8	16.0	37	5.5	6.3	10.9
Mar.	21.3	32	9.6	8.5	.89	28.6	12.6	26.5	29	6.0	6.4	15.4
Apr.	26.2	27	10.0	10.0	.89	30.9	16.2	28.7	23	6.0	6.9	18.1
May	30.5	27	11.8	13.5	.90	31.8	18.0	29.6	21	5.0	8.4	19.4
June	32.9	25	9.3	14.3	.97	32.1	20.6	31.5	20	5.5	8.9	21.5
July	33.2	26	7.4	15.2	.97	31.8	18.6	31.6	23	5.0	10.1	19.4
Aug.	33.0	29	8.5	15.0	.96	30.9	18.6	31.2	27	5.0	12.0	17.5
Sep.	30.9	33	7.6	14.0	.97	28.9	17.7	29.4	30	8.0	11.6	18.2
Oct.	28.3	35	8.1	13.1	.95	25.8	14.9	26.8	33	6.0	11.1	15.9
Nov.	22.6	40	5.6	12.2	.89	22.5	10.7	21.4	41	4.5	9.9	11.7
Dec.	17.4	45	7.4	8.7	.88	20.9	7.2	16.0	48	4.5	8.5	8.6
Mean	25.8	34	8.1	11.6	.92	27.6	14.2	24.5	32	5.5	9.0	15.4

Table 2

Details of Calculation of the Evaporation E_0

Month	Δ	R_A	$e_a - e_d$	e_d	σT_a^4	E_0	E_0
	mm Hg/°F	mm ev./day	mm Hg	mm Hg	mm/day	mm/day	mm/month
Jan.	.46	11.2	6.6	6.3	13.8	4.2	130.2
Feb.	.51	12.8	8.9	5.7	14.2	5.4	115.2
Mar.	.60	14.5	12.7	6.2	15.1	6.6	204.6
Apr.	.86	15.7	18.2	7.0	16.1	8.1	243.0
May	1.05	16.2	22.7	9.2	17.0	9.0	279.0
June	1.22	16.3	27.1	10.1	17.6	10.3	309.0
July	1.18	16.2	27.0	11.0	17.4	9.6	297.6
Aug.	1.20	15.8	26.7	10.8	17.6	9.2	285.2
Sep.	1.07	14.7	22.8	10.2	17.1	8.4	252.0
Oct.	.93	13.2	18.7	9.6	16.6	7.1	220.1
Nov.	.65	11.5	12.4	7.9	15.5	5.2	156.0
Dec.	.49	10.7	8.0	6.7	14.2	4.2	130.2
Mean	.88	14.0	16.1	8.3	16.0	6.3	221.5

annual evaporation
$\doteq$ 2658 mm.

for Wadi Halfa than for Aswan, while the evaporation as measured by Piche evaporimeter is slightly higher. This could be attributed to the relatively high intensity of solar radiation at wadi Halfa which is situated 250 km. towards the south.

4 — Calculation of the Evaporation Rate from Lake Nasser

As the meteorological data for Aswan may give a fair representative of the weather conditions over the whole area of the lake, it has been found convenient, for simplicity, to make use of it only in calculating the evaporation rate from the lake. The details of calculation are given in Table 2.

It could be concluded from this table that the mean annual evaporation is about 220 mm per month. It has a lower value in the winter months (average 140 mm per month from Jan. to Feb.) and increases gradually till it reaches its maximum value in summer (average 300 mm/month in June and July).

5 — Discussion

Taking into consideration the amount of solar energy incident on the lake and the influence of the weather conditions, it could be seen that the results obtained and presented in Table 2 are quite reasonable. The mean daily value of 6.3 mm is of the same order of magnitude for large extended areas of water under comparable conditions. Comparing these results with the corresponding values obtained by Piche evaporimeter, it is found that the latter are nearly double (or even more in winter months) than the calculated values. This could be attributed mainly to the smaller area of the evaporating surface of Piche evaporimeter and the greater effect of the long wave radiation from the air and the earth. Piche's data are therefore unreliable for use in water economy studies of the Nile.

Integrating the amount of water evaporated from the whole surface of the lake, it could be seen that it rises to 10.6×10^9 m^3 per annum, which corresponds to about 8% of the full capacity of the lake.

Would the evaporation from the lake be stopped, this amount of water is sufficient to irrigate about 1,000,000 feddans. The question now arises, is it possible to control this evaporation ? In fact, recent studies on evaporation control has shown the practical utility and success of monolayers of cetyl, stearyl and a number of alkoxy ethanols in reducing evaporation; Trapeznikov (1963), Mihara (1963) and Ganapathy (1963). Three different methods for the control of evaporation could be used either individually or jointly. The first is a solution of the chemical in a solvent like petroleum ether, the second a water emulsion and in the third blown particles of the chemical are let to settle on water surface.

References

Brunt, D. 1939, Physical and Dynamical Meteorology, Cambridge Univer. Press.

Ganapathy, K.T. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.

Mc Arthur, I.K.H. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.

Mihara, Y. 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.

Pasquill, F. 1943, Proc. Roy. Soc. London A 182, p. 75.

Pasquill, F. 1949, Ibid, London A 198, p. 116.

Penman, H.L. 1948, Proc. Roy. Soc. London A 193, p. 120.

Penman, H.L. 1950, Proc. Quar. J. Royal Meteorol. Soc. p. 372.

Priestley, C.H.B. 1949, Brit. Commonwealth Conf. Agric. Sec. A.

Sutton, O.G. 1950, Atmospheric Turbulence, London. (Methuen).

Sutton, O.G. 1953, Micrometeorology. London. (Mc Graw Hill).

Trapeznikov, 1963, Proc. Symposium on Evaporation Control, UNESCO.

Climatological Normals for Egypt, 1950, Meteorological Department, Ministry of War and Marine, Egypt.

Climatological Normals for Egypt and the Sudan, 1938, Meteorological Department, Ministry of War and Marine.

ON THE MEASUREMENTS OF SOLAR RADIATION INTENSITY IN THE SPECTRAL REGION OF SHORT WAVELENGTHS ($\lambda < 425$ m μ)

By

M. K. Elnesr* and N. A. Hegazy**

Summary

A filter, composed of 80% Lead Oxide, has been manufactured and tested at the National Research Centre. It transmits uniformly all the solar radiation for wavelengths higher than the long-wave limit of violet and ultraviolet radiation ($\lambda < 425$ m μ).

The filter is similar to any of the Standard Schott filters such that it can be used in conjunction with any type of actinosuch that it can be used, in conjunction with any type of actinometer, to measure the solar radiation above and below 425 m μ

1. Introduction

The measurements of solar radiation and its spectral distribution is becoming desirable in many applications in biology, agriculture and industry (1). Evidently the ideal method is to undertake these measurements spectroscopically for the different wavelengths. Such method is quite delicate and is used only for investigations where maximum accuracy in the interpretation of measurements is required. In practice relatively simple processes are used such as the use of actinometers which integrate the radiation in the whole solar spectrum or in certain spectral regions, when the actinometers are provided with carefully calibrated filters.

Many types of coloured glasses, having different selective absoption characteristics, are available for use as optical filters in the spectral regions in the ultraviolet, the visible and near infrared. Filters Nos. OG_1, RG_2 and RG_8 manufactured by Schott

*, ** University College for Women (Ain Shams University).

Jéna (2) are used for the measurements of the solar radiation in the spectral regions from 525 to 2800 mμ , from 630 to 2800 mμ and from 710 to 2700 mμ respectively.

For the measurements of the solar radiation in the violet and ultaviolet region, filters GG_{18}, GG_{13}, GG_{22} and WG_1 are recently manufactured by Schott, which transmit uniformly all the solar radiation for wavelengths higher than 400 mμ. The difference between the two actinometric readings with and without the filter gives the amount of the ultraviolet radiation.

In Egypt preliminary data on violet and ultraviolet solar radiation, whose upper wavelengths limit is less than 425 mμ have been obtained using a new filter manufactured and tested at the National Research Centre.

2. The New Filter

Besides the use of the Schott filters OG_1, RG_2 and RG_8 which are the only available filters in our laboratory, attention has been paid to find a new filter which can shut-off all the ultraviolet radiation and at the same time, transmit uniformly the rest of the solar spectrum. To this end, spectrophotometric examination on various glass filters have been carried out. Flint filters have not proved suitable as their short wave cut-off were always below 325 mμ. On the other hand, when examining the transmission curves (between 200 & 700 mμ) of Crown glass samples with different Lead Oxide concentrations, studied at the Glass Technology Unit, N. R. C. it has been found that a filter with 80% Lead Oxide concentration may satisfy our requirements.

A new melt, having the same composition of this type of glass was made, cut and polished to form filters similar to the standard filters manufactured by Schott. These filters which have different thicknesses were then examined spectroscopically for wavelengths up to 2800 mμ, and at different temperatures.

It was found that :

1. The short wave cut-off is at the long wave limit of the violet radiation.

2. This position shows no shift with increasing temperature (± 10°C).
3. The percentage transmittance, as shown in figure 1 (curve A) is constant in the main transmission region up to 2.7 μ. It is equal to 87% when the thickness of the filter is 1 mm.

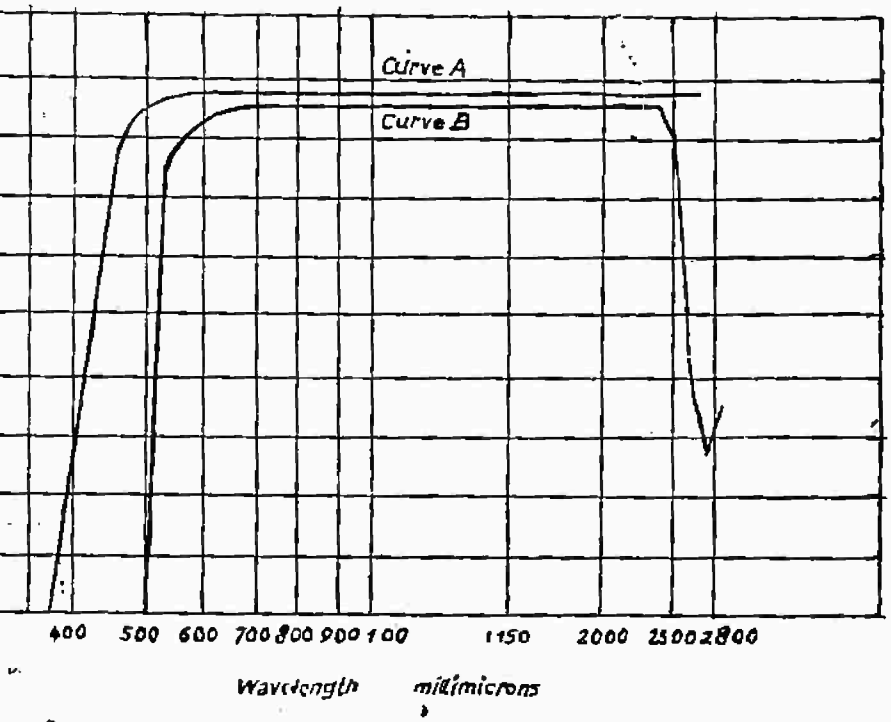

FIG. 1 Variation of the percentage transmittance with wavelength for the new filter and the Schott Filter OG$_1$

4. As thickness of the filter increases, its transmittance decreases slightly. It reaches 85% when the thickness is 2.10 mm.
5. As the temperature of the filter increases by 10°C, its transmittance decreases by 0.2%.
6. For wavelengths higher than 2.7 μ , a rapid decrease in the transmittance is noticed, but it is of no importance as the solar intensity in this range is very small and depends mainly on atmospheric humidity.

3. Energy Transmitted by the New Filter

The ultraviolet solar radiation can be measured with this filter when it is used in conjunction with a pyrheliometer or actinometer. The difference between the two actinometric readings taken alternately and rapidly with and without the filter is proportional to the solar radiation in this spectral region. In many applications it is convenient to know this amount in energy units. This is done as follows :

1. Calculate the reduction factor F_A of the filter; i.e. the factor which allows for the measurement of the transmitted energy with an ideal filter of 100% transparency. ($F_A = \frac{100}{87}$ from curve A).
2. Obtain curve B, as shown in figure 1, to represent the percentage transmittance of the standard Schott filter OG_1, noting that the same spectrophotometers should be used as in the case of curve A. The transparency for OG_1 as obtained from curve B is 85% and the corresponding reduction factor is $F_B = (100/85)$.
3. Mount the two filters on a Linke and Feussner actinometer, and notice the actinometer readings d_A and d_B when adjusting the two filters separately and rapidly. The ratio between the energy transmitted by the new filter to that by OG_1 is given by : $d_A F_A / d_B F_B$, and the amount of radiation transmitted by OG_1 (d_B x Davos Reduction Factor DR_1). In other words the actinometer deflection when using the new filter should be multiplied by (87/85) DR_1 to give the radiation it transmits in energy units. It should be noted that the measured energy includes correction for the losses due to reflection at the surfaces of the filter.

Measurements of the ultraviolet radiation have been obtained with this filter, at the National Research Centre, since February 1962. A Linke and Feussner actinometer No. 113 has been used (1 scale division of its millivoltmeter corresponds to 0.018 cal. cm^{-2} min^{-1}). As of measurements obtained, table 1 is given. It assembles the data observed on three days when the sky conditions are clear. (On May 28th and 29th the sky was perfectly blue).

Table 1. — Hourly measurements of the intensity of the ultraviolet and total solar radiation (cal cm^{-2} min^{-1}) taken at normal incidence for clear sky conditions.

ate	Time	Air mass	Deflection of Actinometer		Intensity of		Ratio %
			Without filter	With-filter	Ultra-violet Radia-tion	Total Radi-ation.	
/4/62	09	1.58	63.0	49.0	0.20	1.13	18
	10	1.29	66.0	50.0	0.24	1.19	20
	11	1.15	71.5	54.9	0.24	1.29	19
	12	1.10	72.0	55.0	0.25	1.30	19
	13	1.13	72.5	55.0	0.26	1.31	20
	14	1.24	68.0	52.8	0.22	1.22	18
	15	1.47	65.0	50.0	0.22	1.17	19
	16	1.98	58.5	45.5	0.19	1.05	18
	17	3.32	44.0	35.0	0.12	0.79	15
8/5/62	08	1.73	54.5	41.9	0.20	0.98	20
	09	1.34	58.5	44.2	0.21	1.05	20
	10	1.14	62.5	47.2	0.22	1.13	20
	11	1.04	64.9	48.9	0.24	1.17	20
	12	1.01	65.0	49.0	0.24	1.17	20
	13	1.04	66.0	50.0	0.24	1.19	20
	14	1.13	60.3	45.8	0.22	1.09	20
	15	1.32	58.0	44.5	0.20	1.04	19
	16	1.68	52.0	40.5	0.17	0.94	19
	17	2.58	38.7	30.0	0.13	0.70	18
9/5/62	08	1.72	49.0	37.0	0.18	0.88	20
	09	1.34	58.3	45.0	0.20	1.05	19
	10	1.14	61.0	46.2	0.22	1.10	20
	11	1.04	62.8	48.0	0.22	1.13	20
	12	1.01	60.0	45.5	0.22	1.08	20
	13	1.04	60.0	45.5	0.22	1.08	20
	14	1.13	57.5	43.3	0.21	1.04	20
	15	1.17	55.0	42.0	0.19	0.99	20
	16	1.68	46.0	35.5	0.15	0.83	19
	17	2.49	33.0	26.0	0.10	0.59	17

These observations obtained show that the ultraviolet radiation constitutes about 20% of the total incident radiation when the air mass $m \leq 2$ (three or four hours before and after solar noon) and decreases considerably for higher air masses.

Acknowledgements

The authors wish to express their sincere appreciation to Dr. Abu El Azm, Head of the Glass Technology of N. R. C. for permission to examine the transmission curves of the various glass filters manufactured in his Unit, and to his Co-Worker Mr. Ali Nassar for his valuable assistance in developing the New Filter.

References

(1) Maurain Ch. "Etude Pratique des Rayonnements", P. 148, 1937.

(2) Schüepp W. "Measurement of Atmospheric Turbidity", Meteorological Service, Leopoldville, Belgian Congo.

ON THE ESTIMATION OF THE PRODUCTIVITY OF THE ROOF TYPE SOLAR STILLS AT DIFFERENT LOCALITIES IN THE U.A.R.

By

M. K. Elnesr* and S. H. Soliman**

1) Considerable attention has been paid in Egypt to solve the problem of water supplies in the arid and semi-arid zones. In addition to the many other methods, the method of utilizing solar energy to distill water has been considered.

2) Numerous experiments on solar distillation, has been carried on since 1955 by the University College for Girls and the National Research Centre. Numerous stills including several variations have been constructed and tested, and a great deal of information has been accumulated on their maintenance, production and efficiency. From the practical point of view, solar stills of the greenhouse type with symmetrical glass cover has been found superior to the inclined tray units.

3) As far as the roof type is concerned, two important experiments have been undertaken :

a) the construction of a permanent base still (1) of an area of 40 m^2 : the results obtained, for a period of nearly a whole year, are presented in figure 1. It gives the relation between the daily productivity and the amount of incident solar radiation received on a horizontal surface per day.

b) the construction of a metallic foldable still (2) of an area of 1.2 m^2 : the results obtained for 3 summer months are shown in figure 2. It gives the relation between the hourly production for clear sky conditions and the corresponding amount of the incident solar radiation.

* University College for Women, Ain Shams University.
** National Research Centre.

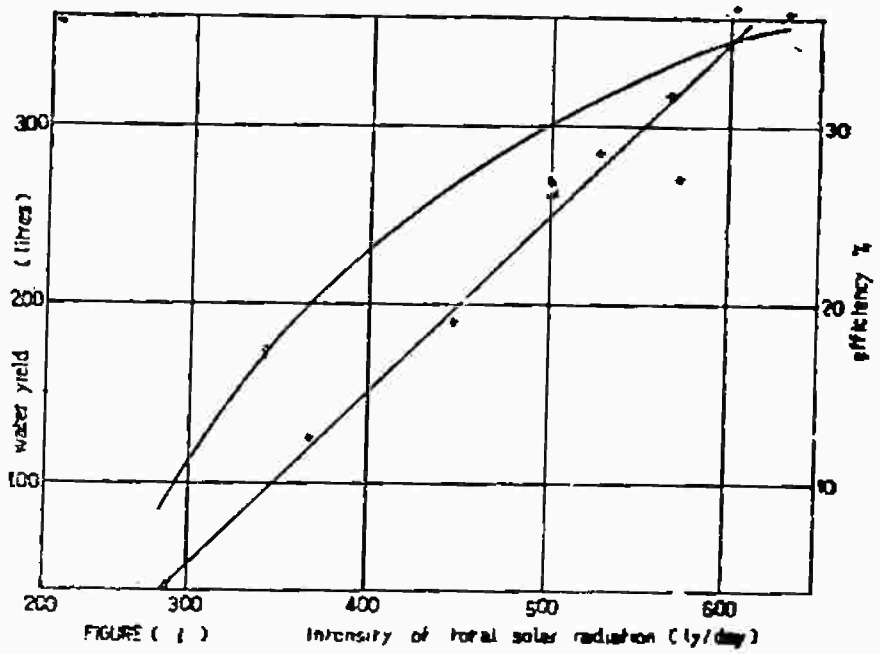

FIGURE (1) Intensity of total solar radiation (ly/day)

4) To make use of the results obtained in estimating the productivity of any still of the roof type, constructed at any locality in the U.A.R., it is required to know, for the different months of the year, either the mean values of the total daily radiation falling on a horizontal surface, or its hourly distribution.

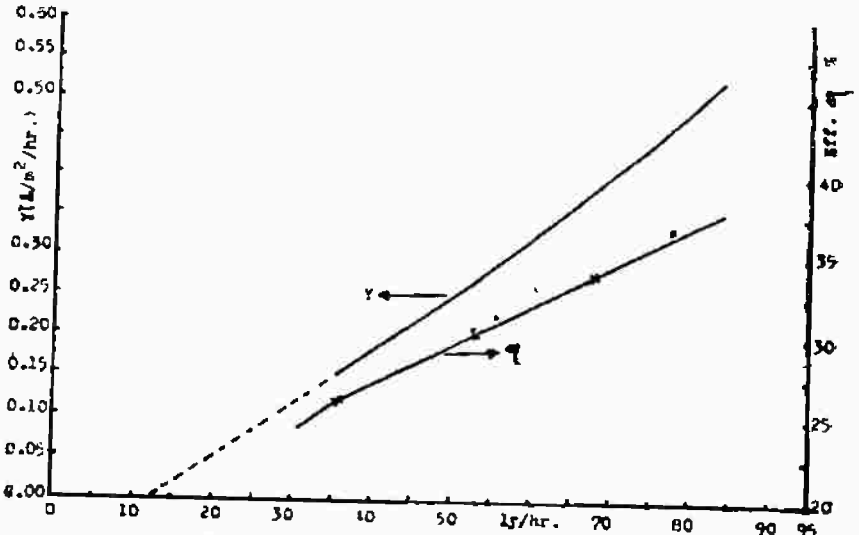

Figure(21).Variation of yield and efficiency with incident solar energy on the roof type still.

5) Regression equations of the Angstrom type have been used for many years for estimating mean values of the total daily radiation falling on horizontal surfaces from sunshine records.

The original Angstrom formula has been modified by Black, Bonython and Prescott (3) and is written in the following form :

$$Q = Q_0 \left(0.23 + 0.84 \frac{n}{N}\right) \quad \ldots\ldots (1)$$

where Q = mean global daily radiation on the horizontal plane for the period under consideration (for clear sky conditions).

Q_0 = total radiation per unit area falling on a horizontal plane outside the atmosphere.

n = mean daily amount of bright sunshine hours.

N = maximum possible amount of sunshine hours.

6) To calculate Q_0, the values determined by Milanovitch given in the Smithsonian Meteorological Tables (4) were increased by the ratio 2.00/1.94 to allow for the changed value of the solar constant as a result of Johnson's recommendations. The values for an individual day were plotted on an extended scale. A smooth curve was drawn and Q_0 was obtained by planimetry. The results obtained (mean monthly values) for latitudes 20°N & 30°N are given in Table 1.

Table 1 : Mean values for calendar months of total daily radiation on a horizontal plane outside the atmosphere of the earth. Latitude 20°N & 30°N (Solar constant 2.00 cal. cm^{-2} min^{-1}) :

	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
Lat. 20°N	659	747	848	924	959	965	959	934	877	784	687	631
Lat. 30°N	521	632	772	899	1073	1063	987	927	822	683	558	487

7) The number of hours of sunshine, n, are evaluated by means of a sunshine recorder. In remote areas, where solar distillation is needed no records are obtained and it has been found necessary to account for observations of cloudiness, taken at the widespread network of meteorological stations. Table 2 gives the values, we have obtained for such localities.

Table 2: Monthly variation of the degree of cloudiness (0-8)

	Cloudiness											
Zone	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
Mediterranean	3.5	3.1	2.9	2.4	2.1	1.2	1.3	1.5	1.6	2.1	3.0	3.4
Arabic Desert	1.9	1.6	1.4	1.2	0.2	0.2	0.3	0.5	0.9	1.2	1.9	0.9
Lybian Desert	1.4	1.2	0.8	0.9	0.2	0.1	0.1	0.1	0.5	0.9	1.5	0.9

The sunshine duration, or the cloudiness is now known, the amount of solar radiation incident daily on a horizontal surface can be calculated. With the help of figure 1, an approximate evaluation of the daily water yield can be obtained.

8) On the other hand, in case it is required to give a more precise evaluation of the productivity of the still, it is recommended to make use of the experimental results obtained and presented in figure 2. To this end, the hourly distribution of the total solar radiation q_0 should be calculated (7) from the relation:

$$\frac{q_\theta}{Q} = \frac{\pi}{4} \times \frac{\frac{24}{\pi} \sin \frac{\pi}{24} \text{ces } \omega - \cos \omega_s}{\sin \omega_s - \omega_s \sin \omega_s} \qquad (2)$$

where :

Q = solar radiation received during the day.
q_θ = solar radiation received during the hour from $\theta - 1/2$ to $\theta + 1/2$
ω = hour angle from noon = $\frac{\pi}{12}\theta$ ($\theta = 15°$ per hour).
ω_s = hour angle at sunset [$\cos \omega_s = - \tan \phi \tan \delta$.]
ϕ = latitude of the place.
δ = solar declination.

The most important conclusion to be drawn from this equation is that the ratio of hourly to daily radiation for a given hour is a function of the sunset hour angle ω , or in other words of the theoretical maximum possible duration of sunshine for the particular latitude and time of the year.

9) As an application of this study, the daily productivity of

Table 3 :- Estimated hourly values of total radiation q(ly/hr) and water yield y $cm^3/m^2/hr$ for the different months

w(hour)	±1		±2		±3		±4		±5		±6		Q	Y
Month	q	y	q	y	q	y	q	y	q	y	q	y	(ly/day)	(L/m^2/ day
Jan.	42	300	39	180	31	125	21	60	9	-	-	-	284	1.63
Feb.	54	280	50	250	42	200	30	120	16	25	-	-	384	2.25
March	67	380	62	335	53	270	41	190	25	85	8	-	512	3.02
April	71	410	67	380	58	305	46	225	31	125	15	20	576	3.44
May	73	425	69	390	61	330	50	250	36	160	20	55	618	3.72
June	75	440	71	410	62	335	52	265	38	180	23	70	642	3.94
July	74	340	70	400	62	335	51	255	37	165	22	70	632	3.81
Aug.	72	420	68	385	59	315	48	235	33	135	18	35	594	3.55
Sep.	68	385	63	350	55	285	42	200	27	100	11	—	532	3.14
Oct.	57	300	52	265	44	210	33	140	19	45	3	—	416	2.42
Nov.	44	210	40	185	33	140	23	125	10	—	-	—	300	1.82
Dec.	39	180	36	155	29	115	19	45	7	—	-	—	260	1.49

solar stills at Giza has been estimated. We have proceeded as follows :

a. calculate the hourly values of the total radiation for the different months of the year using equation 2. (The values of Q used are those of the actual measurements at Giza (8).
b. evaluate for every hour, the corresponding expected yeild from figure 2.
c. add 0.5 L/m^2 to the sum of the hourly amounts per day, to represent the production by night.

The results obtained are presented in Table 3, showing a good agreement with the results obtained experimentally (1).

References

(1) Elnesr, M.K. Proceeding of the Math. and Phys. Soc. of the U.A.R. 24, p. 25 (1960).
(2) Soliman, S.H. M. Sc. Thesis Cairo University (1963).
(3) Black, J.N. Q.J. Roy. Met. Soc., 84, p. 231 (1954).
(4) Smithsonian. Meteorological Tables 6th Ed. Washington (1951).
(5) Johnson, F.S. J. Met. 2(6) p. 131 (1954).
(6) Climatological Normals. Meteorological Dept. Cairo (1952).
(7) Whillier, A. Arch. fur Meteo. Geophysik und Bioklimatologie Serie B. 7 p. 197 (1956).
(8) Elnesr, M.K. & El-Sabban. J. of Solar Energy Science & Engineering, 4, 1, p. 48 (1960).

ON THE DETERMINATION OF THE TOTAL AMOUNT OF SOLAR RADIATION RECEIVED BY A FLAT PLATE COLLECTOR

By

M. K. Elnesr* and A. M. Khalil**

---

1 — One of the most important applications of solar energy is the production of hot water for domestic use. The flat plate solar heat collector is commonly used. It consists of :

a) an insulated heat absorbing surface painted black to increase heat absorption. This surface may be a metallic sheet fastened to its side, facing the sun rays, some form of piping through which water may be circulated.

b) insulating material below and adjacent to the lower surface of the absorber, protected in a wooden box.

c) one or more sheets of glass (or any other transparent material) above the absorbing surface covering the collector edge to edge and sealed by good mastic sealing compound to prevent dust or rain entering the collector.

The collector should be inclined towards the equator at a certain angle of tilt governed by the locality. The angle of optimum tilt (i.e. when the collector receives maximum energy) is that angle which a south facing tilted surface can make with the horizontal, such that the solar beam will fall normally on it at noon time.

For our latitude 30°N, the optimum tilt angle for the different months of the year, as we have calculated (1) are :

J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.
51	43	32	20	11	7	9	16	27	39	49	53

---

* University College for Women Ain Shams University.
** National Research Centre.

2 — For any study on the performance of a heat collector, it is required to know the amount of incident radiation falling on it at any time. This can be done by using a solarimeter or a pyrheliometer tilted to the horizontal at the same angle as the collector. In most solar energy laboratories, pyrheliometers are very delicate and require continuous calibration and are used only for recording the solar radiation on the horizontal. The other alternative which is commonly used is the evaluation of incident energy on the collector from that measured on the horizontal. The procedure used (2) is as follows :

— estimate (3) from the total solar radiation intensity on the horizontal, its direct and diffuse parts.

— calculate by simple trigonometry (1), the component of the direct part on the collector.

— add to this direct component the amount of diffuse radiation (3) expected to be received by the collector at the optimum tilt angle.

Evidently such method is laborious especially it should be repeated several times during the operation of the collector. To simplify the problem, we have adopted the above procedure, to the pyrheliometric measurements at Helwan Observatory (4) and calculated for clear sky conditions and for the different months of the year, the energy falling on the collector when tilted at the optimum tilt angle. The ratio between the hourly amounts of this energy and that received on a horizonatl surface are shown in Table 1.

Table 1. Ratio between the hourly rates of total solar radiation on a surface at the optimum tilt angle and that on a horizontal surface ($\phi = 30°N$)

Solar Time AM	J.	F.	M.	A.	M.	J.	J.	A.	S.	O.	N.	D.	Solar Time PM
6	—	—	—	—	.92	.94	1.00	1.00	—	—	—	—	18
7	—	1.90	1.14	.94	.98	1.00	.98	.95	.96	1.42	—	—	17
8	2.00	1.46	1.13	.98	.99	.98	.99	.97	1.05	1.31	2.07	2.17	16
9	1.65	1.37	1.14	1.02	.99	.99	.98	1.00	1.07	1.25	1.57	1.76	15
10	1.54	1.32	1.14	1.04	1.00	.99	1.00	1.03	1.09	1.23	1.45	1.59	14
11	1.48	1.29	1.14	1.05	1.02	1.00	1.01	1.03	1.11	1.24	1.42	1.53	13
12	1.46	1.30	1.14	1.06	1.02	1.01	1.01	1.04	1.09	1.23	1.41	1.52	14

To calculate the amount of solar energy incident on the collector at the optimum tilt angle, at any time of the day for the same latitude, the corresponding intensity on the horizontal as measured by a solarimeter is multiplied by the suitable ratio from Table1.

3 — Before applying such simple method, it has been found necessary to check its validity. To this end, a Kipp solarimeter has been fixed on a movable wooden board such that it can be oriented at any direction. During a period of two months, May and June 1962, and on every clear day, the optimum tilt angle was calculated in advance and the solarimeter was adjusted accordingly. The ratio between the readings of the solarimeter at this position and when it is horizontal was calculated hourly and the results obtained, as shown in Table 2, are compared with the corresponding estimated values given in Table 1.

Table 2. Comparison of measured and estimated values of the ratio, R, between the intensity of radiation on optimum tilt and horizontal surfaces :

Month	No. of runs	Ratio R											
		S.T.	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	Mean
May	7	Rexp.	—	.97	1.01	1.02	1.01	1.01	1.00	.98	.96	—	.95
		Rcal.	.99	1.00	1.02	1.02	1.02	1.00	.99	.99	.98	.92	1.00
June	7	Rexp.	1.00	1.00	1.01	1.02	1.01	1.00	1.00	.99	.97	.93	.99
		Rcal.	.99	.99	1.00	1.01	1.00	.99	.99	.98	1.00	.94	.96

The excellent agreement between the experimental and calculated ratios confirms the validity of this method in converting solarimetric readings on the horizontal to the corresponding heat values on a flat plate solar collector mounted at the same locality and tilted at the optimum tilt angle.

References

(1) Brown, A.I.x Marco, S.M. Introduction to Heat transfer, N.Y. McGraw Hill 69 (1951).

(2) Anderson, L.B. Symposium on Space Heating with Solar energy, M.J.T. p. 17 (1950).

(3) Heat. Vent. Air Condition. Guide, 30, 266-271 (1952).

(4) Elnesr, M.K. & Khalil, A.M. U.N. Conference on new sources of energy. Rome 35/S/12 (1961).

STUDIES ON THE EFFECTS OF PODOPHYLLIN SUSPENSIONS IN DIFFERENT SOLVENTS ON PLANTS

I — Effects of podophyllin suspensions in acetone and alcohol on root morphology and anatomy with reference to "Vicia-faba"

By

Hoda A. Hakeem and Soheir Amer

University College for Girls, Ain Shams University and
National Research Center, Dokki, Cairo.

Introduction

The effect of chemicals on root growth had been widely studied by many authors. Ashby (1951) studying the effect of certain acid growth regulating substances and their corresponding aldehydes on root growth found inhibition of root growth. Hussein and Hakeem (1960) studying the effects of podophyllin *no Vicia faba* and *Luffa cylindrica* found that podophyllin caused temporary inhibition followed by stimulation of root growth.

With regard to the effect of various chemicals on plant anatomy comparatively few studies were made.

Said and Naguib (1951) treating *Vicia* plants with colchicine noted definite xylem strands near the tip. Hussein and Hakeem (1960- noted several anatomical abnormalities in treated *Vicia* roots with aqueous podophyllin suspension — such as disappearance of meristematic zone, enlargement of cortical cells, prematuration of xylem and phloem elements and proliferation of pericyclic tissue.

As podophyllin is more soluble in alcohol and acetone than in water, Egypt. Pharmacopeaia (1953), it was of interest to confirm the previously obtained results within a wider margin of concentration. Since alcohol and acetone may have their own effects on the plants, control experiments with alcohol and

acetone alone were conducted. It was also of interest to see whether alcohol and acetone act synergetically with podophyllin.

Material and Methods

Vicia faba seeds (var. Rebaya 34) soaked in water for 24 hours were treated with the experimental solutions for two, three or six hours. They were then washed with running water, and finally planted in pots containing saw dust. For each treatment 120 seeds were used. Seeds soaked in water for 24 hours were used as controls.

The treatments were carried out with aqueous alcoholic and aqueous acetone suspensions of podophylin. (100 mg/100 ml 10% aqueous acetone or alcohol). Experiments with 10% aqueous alcohol, and 10% aqueous acetone were carried out for comparison.

The length of roots was measured every 2 days over a period of 14 days.

For anatomical studies, the roots were cut when reaching 1.5 cm., at 14 μ thickness, and stained using the technique of Sharman for meristems.

Results and Discussion

1. Effect on root germination

From Table I, the following conclusions were reached :

1. The treatment of the seeds in most of the above solutions resulted in a depression in the percentage of germination.
2. The 2-hour treatment resulted in a slight inhibition of germination.
3. No clear relation could be traced between the percentage of germination and the concentration of podophyllin.
4. No material difference between the behaviour of seeds treated with alcohol or with acetone solution was observed.

2. Effect on root growth

Inhibition of growth of the main root was a common character in all the treatments as compared with the controls (Figs. 1, 2, 3, 4, 5). The inhibiting effect of alcohol and of podophyllin in alcohol on root growth was stronger than that of acetone alone or of podophyllin in acetone, as seen from Text-Figs. 1-2). Another interesting phenomenon was that there was no relation between the time of treatment and the inhibition of growth.

a. Effect of acetone and podophyllin in aqueous acetone. In the two and six-hour teatments, there was significant inhibition of growth during the first 8 days of the experiments after which the inhibiting action decreased. The three-hour treatments showed slight inhibition of growth during the experimental period. In general, aqueous acetone affected more inhibition than podophyllin suspension in aqueous acetone (Fig. 1).

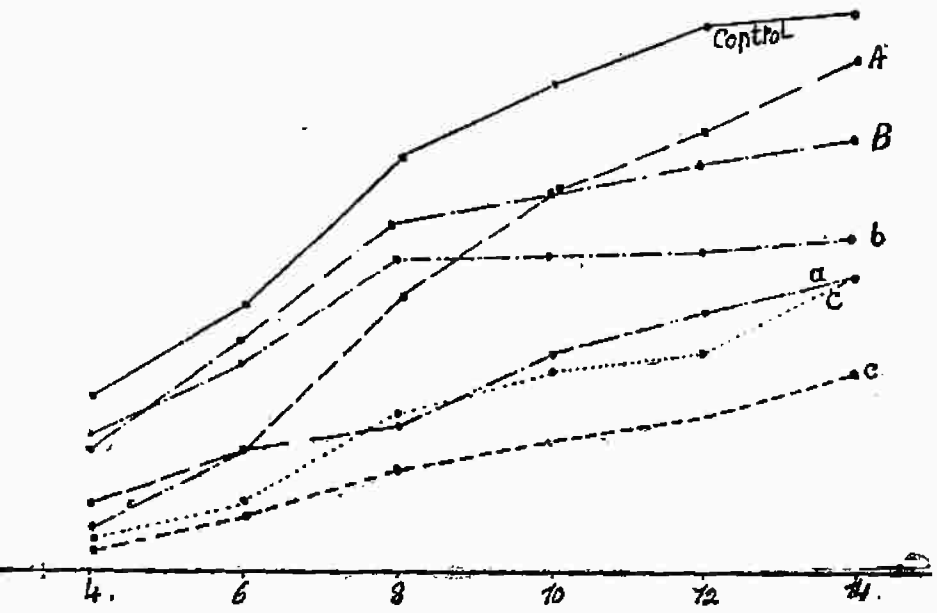

Fig. 1
Effect of podophyllin in aqueous acetone and of aqueous acetone on the root growth of *Vicia faba*.

b) **Effect of alcohol and podophyllin in alcohol.** During the first ten days the rate of inhibition of root growth was highly significant in the treatments with alcohol and podophyllin in alcohol for two and three hours. In the six hour treatments, the inhibition was strong over the time of the experiment.

It is obvious, that treatments with podophyllin in alcohol gave a stronger inhibiting effect than the same treatment with alcohol alone, especially the tow and three hour treatments (Fig. 2).

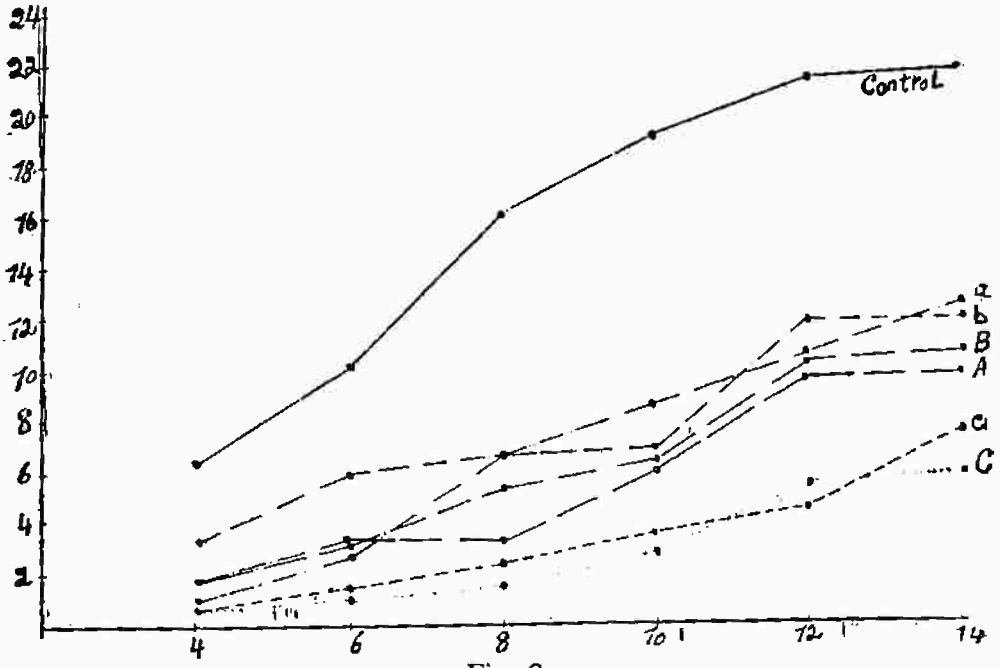

Fig. 2
Effect of podophyllin in aqueous alcohol and of aqueous alcohol on the root growth of *Vicia faba*.

Hussein and Hakeem (1960) reported that aqueous podophyllin suspension used for soaking *Vicia faba* seeds resulted in a stunted growth of the main root followed by recovery and furtber stimulation.

In the present work, podophyllin suspension in alcohol or acetone used for similar treatments showed in general stunted growth of the main root of *Vieia faba* seedlings in their early vegetation without any noticeable recovery. Inhibition of the

root growth of the plants treated with acetone, podophyllin in acetone, alcohol, and podophyllin in alcohol may be attributed to cessation of cell division in the apical meristem as the anatomical examination has revealed.

In addition to the inhibition of root growth, swelling of the hypocotyl, curvature of roots and division of main root tips were observed (Figs. 3, 4 & 5). These abnormalities were also resulted by aqueous podophyllin suspension (Hussein and Hakeem 1960).

In addition to the above peculiarities the following were observed in contrast to the action of aqueous podophyllin suspension.

1. Short thick roots replaced by a tuft of secondary roots which appeared to originate from the hypocotyl (Fig. 3).
2. Division of the root tips of the lateral roots. Anatomical examination of the treated main roots revealed, however, the presence of dead cells in the middle of the root tip, to which this phenomenon could be attributed (Fig. 11, 12).

In general, podophyllin in aqueous alcohol exhibited the most destructive effect on the root system. Fig. 4 shows thickened hypocotyl, whereby the main and secondary roots are severely inhibited in growth, swollen and divided at their distal ends.

B. Anatomical effects :

Anatomical studies of the untreated (Figs. 6, 8 & 10) and treated roots of *Vicia* (Figs. 7, 9, 11 & 13) showed that visual histological changes took place. The percentagle of roots showing these changes increased with increase of concentration in both suspensions of podophyllin in alcohol and acetone. In case of roots treated with different concentrations of alcohol and acetone there was no clear difference as compared with the normal roots.

In the treated root tips a precortex extended over the zone of the promeristem without differentiation into a root cap. The cells of this meristematic region were all conspicuously vacuolated in contrast to the richly protoplasmic very small non-vacuolated cells of the normal tip. A clearly differentiated dermatogen was also lacking.

Fig. 3 : a, b, c, 2 weeks old seesings from treated seeds showing, divided and thick roots, d, Control seedling.

Fig. 4 : Enlarged seedling of (b) showing inhibited abnormal divided root.

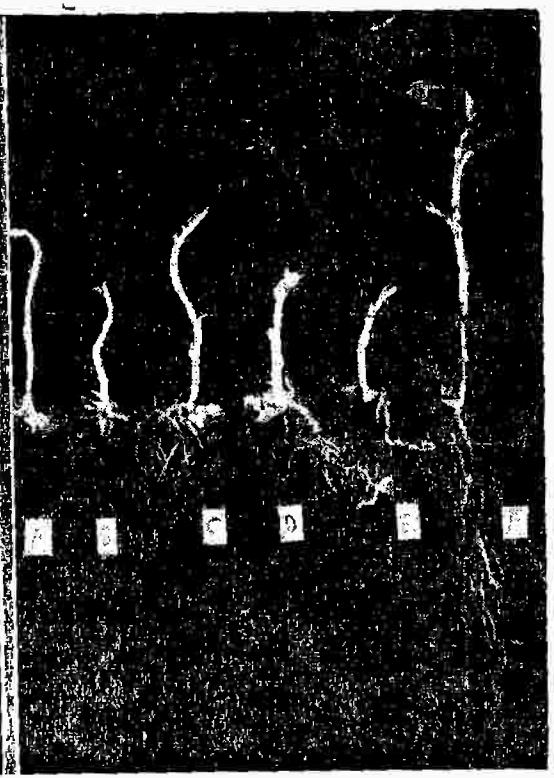

Fig. 5 : A, B, C, D, E, 2 weeks old seedlings from treated seeds showing different types of abnormalities such as inhibition & curvature. F, 2 weeks old seedling of control Plant.

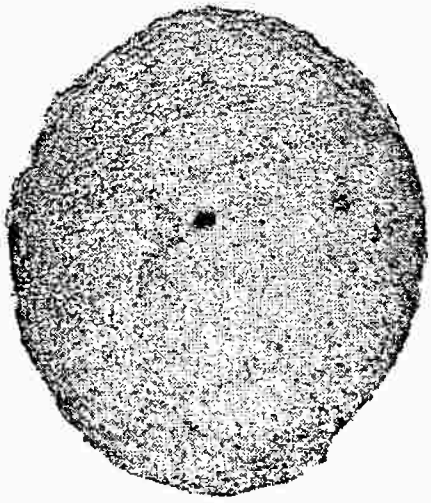

Fig. 6 : T.S. in Untreated *Vicia* root 220 u from the tip.

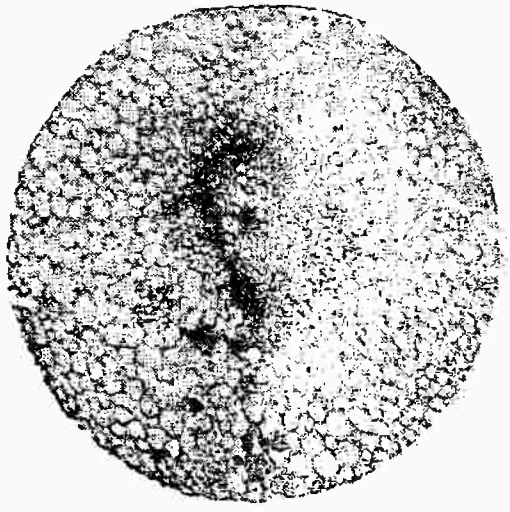

Fig. 7 : T.S. in treated *Vicia* root with 100 mg/pod/100 ml 10% aqueous acetone for 3 hours (220 u from tip).

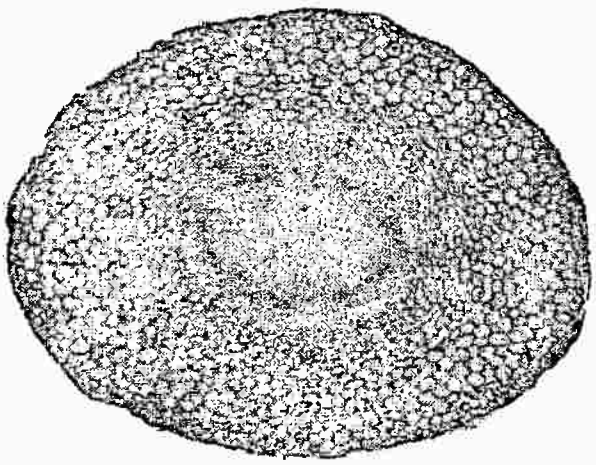

Fig. 8 : T.S. in Untreated *Vicia* root 440 u from the tip.

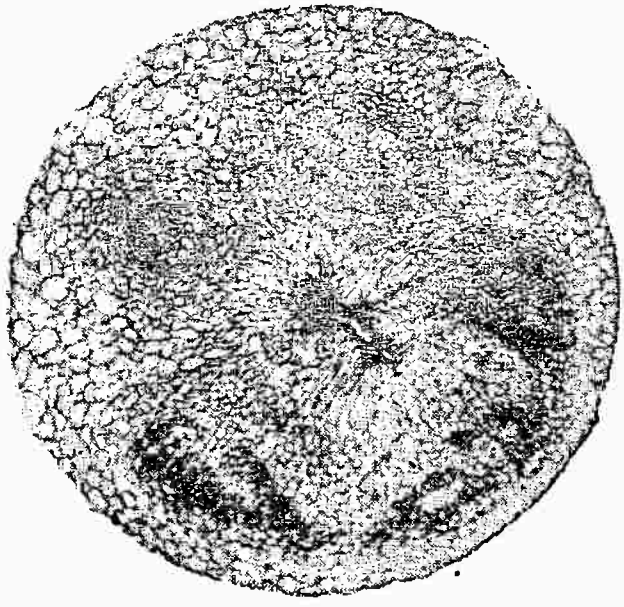

Fig. 9 : T.S. in treated *V.cia* root with 100 mg pod/100 ml 10% aqueous acetone for 3 hours (440 u from tip).

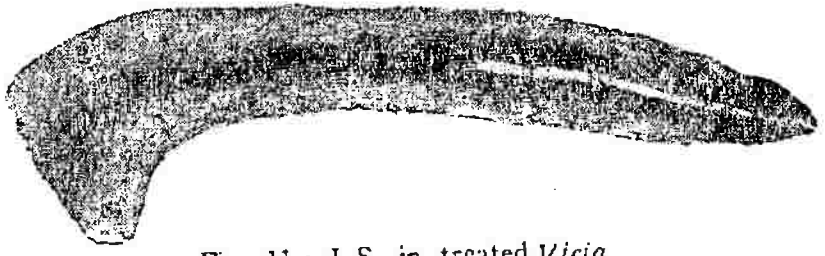

Fig. 11 : L.S. in treated *Vicia* root with 100 mg pod/100 ml 10% aqueous alcohol for 2 hours (×10).

Fig. 10 : L.S. in untreated root (×10).

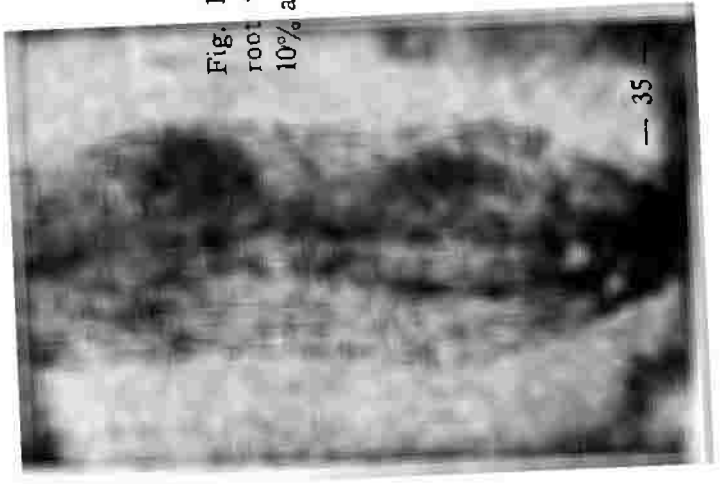

Fig. 12 : L.S. in treated *Vicia* root with 100 mg pod/100 ml 10% aqueous acetone for 6 hours (×10).

Fig. 13 : Enlarged part of Fig. 11
Showing fuzz of hairs (×100).

Abnormal enlarged cortical cells were observed with no apparent increase in the number of vertical rows of cells (Figs. 7, 9). Proliferation of the pericycle cells (Figs. 9, 12) was observed and early maturation of xylem and phloem elements was observed in treated roots (Figs. 7, 9, 11). The distance between the first xylem vessel and the tip decreased with increase of concentration and time of treatment. These prematured vessels were mostly pitted or reticulate.

Prolonged treatments (6 hours) induced degenerated or ead cells at the root tip.

These necrotic cells occured sometimes also in longitudinal trands apparently corresponding to the strands of the proto ylem initials (Fig. 12).

Some of the roots treated with podophyllin in aqueous cetone for three hours showed stimulation of root hair ormation, a thick fuzz of root hairs was observed near the root p (Fig. 13) Ashby (1951) attributed this phenomenon to the ccurence of more epidermal cells. According to Borgstrom 1939) root hair formation is an auxin response.

These anatomical modifications of the roots after treatments ith podophyllin suspension in aqueous acetone or alcohol agree o a great extent with the results of some authers using different hemicals, either polyploidising agents or growth regulating sub- tances on different plants. They are also similar to the effect f aqueous podophyllin suspension on *Vicia* and *Luffa* roots.

Table I

atments	Percentage of root germination after					
	4 days			6 days		
	2h.	3 h.	6 h.	2 h.	3 h.	6 h.
ntrol (water)	100	100	100	100	100	100
0 mg Pod/100 ml 10% ueous acetone	65	100	92	75	90	82
% aqueous acetone	80	100	100	80	90	78
0 mg Pod/100 ml 10 % queous alcohol	90	85	96	75	70	60
% aqueous alcohol	80	95	80	80	70	60

Summary

1. Seeds of *Vicia faba* were treated with podophyllin suspensions in water, aqueous alcohol, and aqueous acetone, for 2, 3 and 6 hours. The effects on the growth and anatomy of roots were studied.

2. Both root growth and germination were inhibited by most of the treatments.

3. Swelling of the hypocotyl, division of the distal ends of both primary and secondary roots and curling of roots upwards were usually observed.

4. The anatomical responses of the roots were :

   a. Partial disappearance of root cap and meristematic zone.
   b. Hypertrophy of root cells.
   c. Proliferation of the pericyclic cells.
   d. Stimulation of root hair formation.
   e. Early maturation of the vascular elements.

References

(1) Ashby, W.C. (1951). Effects of certain acid growth regulating substances and their corresponding aldehydes on the growth of roots. Bot. Gaz. **112,** 237-250.

(1) Borgstrom, G. (1939 a). Root hair formation as an auxin response. Kungl Fysiorufiska Sallskoptes, I Lund forhandlingar 9: 108.

(3) Egypt Pharmacopeia (1953). Cairo Univ Press 670-671.

(4) Hussein, F. and Hakeem, H. (1960). Morphological and anatomical effects of podophyllin on **Vicia faba** and **Luffa** cylindriea, U.A.R. J. Bot **III.** 101-120.

(5) Said, H. and Naguib, M.I. (1951). The effects of colchicine, indoleacetic acid and Pulvinic acid on the histology of the growing tips of **Vicia faba** Proceedings, 6: 63.

(6) Venning, F.D. (1954). Manual of advanced plant microtechnique, 19: 20.

MUTUAL EFFECTS OF ION UPTAKE BY CARROT ROOT TISSUES

By

M. A. Nosseir

Introduction

It has been recently shown by the author (1962) that D-aspartic acid, when supplied together with KNO_3 or NH_4Cl to carrot root disks, exerts a marked depressing effect on the rate of nitrate or ammonium nitrogen uptake. Differences in the rates of absorption of ammonium, nitrate and aspartate nitrogen led to the suggestion that the process of uptake might have involved association with a carrier at the surface and movement of the complex, followed by dissociation, in the interval vacuole of the cells. The aspartic acid used was neutralized with KOH to pH 7 before it was supplied to the culture media around the tissues. Therefore, it was obvious that the culture media was containing potassium and chloride ions in addition to aspartate and ammonium ions or containing potassium in addition to aspartate and nitrate. Consequently, it was desired to extend this work and study the uptake of potassium and chloride ions in presence of the different nitrogen sources.

Methods and Experiments

The plant material, the technique of the disk culture experiments, and the analytical methods were the same as in the earlier work described by El-Shishiny and Nosseir (1957). Potassium was determined by means of the flame photometer. Chloride was estimated by titration against standard silver nitrate using dichlorofluoresoein indicator as adopted by Stiles and Skelding (1940). Two experiments were done. Experiment I was designed to include K, aspartate, NH_4 and chloride ions simultaneously in the culture media. Therefore, duplicate samples of carrot root disks after being washed for 4

days in aerated distilled water, were transferred into culture vessels each containing 350 ml. of the following solutions : Distilled H_2O; 0.00125M D-aspartate; 0.005M D-aspartate; NH_4Cl; NH_4Cl + 0.00125M D-aspartate; NH_4Cl + 0.0025M D-aspartate; NH_4Cl + 0.005M D-aspartate. However, experiment II was designed to include K, aspartate and nitrate ions in the culture media and hence duplicate samples were cultured in the following culture media : Distilled water; KNO_3; KNO_3 + 0.00125M D-aspartate; KNO_3 + 0.0025M D-aspartate; KNO_3 + 0.005M D-aspartate. The concentration of NH_4Cl in experiment I and KNO_3 in experiment II was 0.005M. D-aspartic acid was neutralized with KOH to pH 7 before supplying it to the tissues.

Results and Discussion

As shown in Tables 1 and 2, ammonium, nitrate, aspartate, potassium and chloride ions, when present together in their respective culture solutions, were absorbed simultaneously at different rates by carrot root disks. Among the nitrogen sources, ammonium or nitrate ions were absorbed in preference to aspartate ions.

Also, Table 2 shows that the ratios of absorbed K to NO_3 were always higher than 1.0, suggesting that anions other than nitrate were absorbed to equalize the positive electrostatic charges of the cations absorbed in excess of nitrate. Alternatively, evidence was obtained that the excess absorption of cation over anion was compensated by the exosmosis of other ions from the tissues. These results show that carrot root tissue, like pine-apple roots, Sideris and Young (1950), absorbed more potassium than nitrate, suggesting differential rates for cations and anions. It is possible that the negative electrostatic charges of the root tissues might be responsible for greater attraction of K than of NO_3. Likewise, in Table 1, with K D-aspartate supplied to carrot tissues either singly or in combination with NH_4Cl, ratios of K to aspartate greater than 1.0 were obtained in all culture solutions except in that containing NH_4Cl + 0.00125M KD-aspartate. Here chloride ions were absorbed partly to balance the electrostatic charges of the cations absorbed in excess of aspartate and partly to balance the electrostatic charges of the ammonium ions absorbed.

Table I

Absorption of K D-aspartate and NH_4Cl by carrot root disks during 24 hours from different culture media

Culture media	absorbed[x]				% of initial concentration			
	NH_4-N	NH_2 acid-N	K.	Cl.	NH_4-N	NH_2 acid-N	K.	Cl.
Water control[xx]	-	-	-10.33	-	-	-	-	-
0.00125M K D-aspartate	-	4.94	15.87	-	-	17.4	18	-
0.005M K D-aspartate	-	19.20	20.30	-	-	16.2	6.1	-
0.005M NH_4Cl	57.71	-	-	94.80	43.9	-	-	30
0.005M NH_4Cl + 0.00125M K D-aspartate	39.55	9.80	7.25	90.05	33.1	35.4	8	28
0.005M NH_4Cl + 0.0025M K D-aspartate	38.50	12.17	24.30	92.55	32.1	20	14.3	30
0.005M NH_4Cl + 0.005M K D-aspartate	34.42	17.55	21.80	95.15	27.8	14.6	6.4	30

x Mgm./100 gm. fresh wt. of tissue

xx Exosmosis.

Table II

Absorption of K D-aspartate and K NO_3 by carrot root disks during 24 hours from different culture media

Culture media	absorbed[x]			% of initial concentration		
	NO_3-N	NH_2acid-N	K	NO_3-N	NH_2acid-N	K
Water control [xx]	-	-	-20.20	-	-	-
0.005M K NO_3	44.27	-	79.75	37	-	23.4
0.005M K NO_3 + 0.00125M K D-aspartate	38.17	0.60	114.05	31.5	2.1	25.6
0.005M K NO_3 + 0.0025M K D-aspartate	36.52	0.60	129.15	32.5	1.0	24.3
0.005M K NO_3 + 0.005M K D-aspartate	38.88	0.60	135.00	32.8	0.5	19.4

x Mgm./100 gm. fresh wt. of tissue

xx Exosmosis.

Although the actual rate of intake of ions is greater with the higher concentration of the salt, actually the rate of absorption relative to the external concentration decreases with increase in concentration apart from the complications resulting from exosmosis of K or other ions in the culture solutions. It was stated by Stiles (1927) that when storage tissue is placed in distilled water, there is an exosmosis of ions which was found, in the present investigation, to include K ions. It would appear that there is still this tendency for exosmosis when the liquid surrounding the tissue is a K salt. It may be noted also that if this exosmosis is independent of the concentration of the external solution, then in a higher concentration of K, this tendency will reduce the absorption relative to the concentration less than in a weaker concentration. This might probably account for the relative absorption of K being higher from 0.0025M K D-aspartate than from 0.00125M concentration in presence of ammonium chloride. Similar results were arrived at by Stiles and Skelding (1940).

Again, as shown in Table 1, ammonium absorption as per cent of total supply decreases progressively with the increase of amino acid concentration in the various culture solutions. This might be due to the inhibiting effect of D-aspartate on ammonium uptake. As regards chloride uptake, the relative absorption was almost constant indicating more or less equal absolute rates of absorption from the different solutions.

On the other hand, Table 2 shows that the nitrate uptake as per cent of total supply decreases to almost one and the same level consequent to administration of various concentrations of D-aspartate. They might indicate that the inhibition of nitrate uptake by carrot root tissues was independent of the concentration of D-aspartate added.

It was of interest to find that D-aspartate has competed with nitrate or ammonium as a nitrogen source for carrot tissues. Thus antagonistic effects can be produced by combinations of substances radically different in their structure. This result has been repeatedly shown by the author in other publications and may substantiate the observations of Macht (1934) and Virtanen and Linkola (1946).

Summary

The uptake of different ions by carrot tissue was studied.

1. The ratios of absorbed K to NO_3 or K to aspartate or NH_4 to aspartate were always higher than 1.0. It is possible that the negative electrostatic charges of the root tissue might be responsible for greater attraction of K or NH_4 than of NO_3 or aspartate.
2. Chloride ions were absorbed partly to balance the electrostatic charges of the cations absorbed in excess of aspartate and partly to balance the electrostatic charges of the ammonium ion absorbed.
3. The rate of absorption relative to the external concentration decreased with increase in concentration except in certain cases.

References

(1) El-Shishiny, E.D.H. & Nosseir, M.A. The relation of optical form to the utilization of amino acids. I. Utilization of stereoisomeric forms of glutamic acid by carrot root disks. "Plant Physiol. 32: 360-364, 1957".

(2) Macht, D.I. Growth of **Lupinus albus** seedings in solutions of some amino acids. "Amer. J. Bot., 21: 72-76, 1934".

(3) Nosseir, M.A. The relation of optical form to the utilization of amino acids. IV: Effect of D-aspartic acid on the uptake and utilization of ammonium and nitrate nitrogen by carrot root disks. "Advancing Frontiers Plant Sci. New Delhi, 1: 141-152, 1962".

(4) Sideris, C.P. and Young, H.Y. Growth of **Ananas Comosus** (L.) Merr. at different levels of mineral nutrition under green-house and field conditions. I. Plant and fruit weights and absorption of nitrate and potassium at different growth intervals. "Plant Physiol., 25: 594-616, 1950".

(5) Stiles, W. The exosmosis of dissolved substance from storage tissue into water. "Protoplasma, ii: 577-601, 1927".

(6) Stiles, W. and Skelding, A.D. The salt relations of plant tissues. I. The absorption of potassium salts by storage tissue. "Annal. Bot. N.S., No. 14, IV: 329-363, 1940".

(7) Virtanen, A.I. and Linkola, H. Organic nitrogen compounds as nitrogen nutrition for higher plants. "Nature, 158, 515, 1946".

THE EFFECTS OF SEED TREATMENTS WITH 2, 4-DICHLOROPHENOXY ACETIC INDOLE ACETIC AND NAPHTHALINE ACETIC ACIDS ON THE DIFFERENT CARBOHYDRATE FRACTIONS OF "ZEA MAYS" PLANTS

By

A. I. Khalil and **M. I. Naguib**
(Bot. Dept., Fac. Sci., Cairo Univ.)

One of the marked effects of some auxins on plants is the rapid depletion of carbohydrate food reserves. This was observed in the morning glory plant by Mitchell and Brown in 1945; in the bindweed by F. G. Smith et al. in 1947; in buckwheat by Wort in 1951; and in broad bean by Hofmann and Schmeling in 1953. It has also been noted by Sell et al in 1949 that red kidney bean plants treated with 2, 4-D showed an accumulation of proteins, amino acids, lipids and reduction of insoluble carbohydrates.

The present investigation was designed with the aim of studying in more details, the effects of 2, 4-dichlorophenoxy acetic, indole acetic and naphthalene acetic acids (abbreviated as 2, 4-D, IAA and NAA respectively) on the different carbohydrate fractions of **Zea mays.**

Methods and Technique

The grains of **Zea mays** were procured from the Ministry of Agriculture. Samples of the grains were soaked for 24 hours in 2, 4-D, IAA and NAA (5 p.p.m., 10 and 20). Another sample was soaked in pure water for comparison. After soaking, the grains of each sample were sown in separate plots with 6 replicates for each treatment and each replicate with 40 plants.

The plants were given 200 kgs ammonium nitrate per feddan as recommended by the Ministry of Agriculture.

Samples of the leaves were collected from the plants at random and air dried at 70°C till constant weight was obtained. After that the leaves were finely powdered and kept desiccated for further analysis of the different carbohydrate fractions. These samples were taken twice, the first being after one month from sowing and the second after two months.

Analysis of the different carbohydrate fractions was carried out according to the procedures adopted by Naguib 1962 and 1963. Nucleoprotein pentoses were estimated after hydrolysis of the plant residues using 5% trichloroacetic acid for one hour at 100°C which accured the complete hydrolysis of both ribonucleic and desoxyribonucleic acids without further hydrolysis of any other polysaccharide fraction. Five replicates were analysed for each treatment.

Results

Effect of the acids after one month. — Table 1 shows the mean values of the different carbohydrate fractions present in the control as well as the differently treated one month old corn leaves, expressed as mgms sugar per 1 gm dry weight.

Effect of 2, 4-D : 2, 4-D decreased the total carbohydrate content except when the grains were soaked in 10 p.p.m. where the acid had no effect. Furthermore, inspite of the fact that the soluble sugars formed a very small fraction of the total carbohydrates, yet the fluctuations of the different fractions were somewhat remarkable. Thus in the control samples, sucrose seemed to participate by nearly one fourth the total soluble sugars, a ratio that was slightly lowered in presence of the three concentrations of 2, 4-D. On the other hand, the monosaccharide content of the treated samples was slightly changed by soaking in 5 and 10 p.p.m. 2, 4-D but increased when treated with 20 p.p.m. In all cases, the fluctuations were mostly in the hexose fractions.

The distribution of the polysaccharides seemed to be unaffected when the seeds were treated with 10 p.p.m. 2, 4-D. On the contrary, lower and higher concentrations of the auxin reduced the total polysaccharide content of the tissues, mostly from the glucosan fraction and partly from the galactosans while

the fructosans seemed to be little affected. Furthermore, the reduction in glucosan accumulation was always accompanied by excessive accumulation of galactosans.

Effect of IAA : The results obtained from the analysis of the total carbohydrate content of one month old leaves treated with IAA were more or less similar to those previously obtained in presence of 2, 4-D, yet the total soluble content of these treated leaves was lower than the controls, more or less to the same extent irrespective of variation of concentration of the auxin, the decrease being mostly from the sucrose and hexose fractions.

On the other hand, the total polysaccharide content of the treated samples seemed to be unaffected when treated with 10 p.p.m. while the lower and higher concentrations of IAA considerably inhibited the accumulation of this fraction. In all cases, the values of the different polysaccharide fractions were unchanged except for the glucosan content which was very much reduced while the rate of galactosan accumulation was accelerated.

Effect of NAA : Table 1 shows that soaking in 5 and 10 p.p.m. NAA reduced the total carbohydrate content of one month old leaves while 20 p.p.m. of the acid slightly raised this value. Under all conditions both the hexose and pentose fractions were unchanged while the sucrose content was reduced leading to a lowered total soluble sugar content.

Similar to IAA, NAA induced a lowered glucosan accumulation while the galactosan content remarkably increased particularly when the plants were treated with the higher concentrations. Still the fructosans and pentosans were seemingly unaffected.

Effect of the acids after two months. — Table 2 shows the mean values of the different carbohydrate fractions present in the control as well as the differently treated 2 months old corn leaves expressed as mgms sugar per 1 gm dry weight. The table shows clearly that during one month development, the control leaves accumulated an appreciable amount of polysaccharides mostly the glucosans and conjugated pentoses while the soluble sugar content dropped considerably mostly from both

hexose fractions. In all cases, whether treated or not, the leaves ceased to build up sucrose and all the original sucrose content disappeared. Furthermore, during this period of development, a noticeable amount of conjugated pentoses was recovered in the control samples.

Effect of 2, 4-D. — Treatment with 5 and 10 p.p.m. 2, 4-D seemed to have no effect on the total carbohydrate content of the leaves after 2 months of growth. The only noticeable effect is a considerable increase in the accumulation of fructose especially with the lower and higher concentrations. The other soluble fractions showed little or no fluctuations from the control samples so that no safe deduction could be made. On the other hand, pretreatment with 20 p.p.m. 2, 4-D favoured the accumulation of total carbohydrates, the excess being mostly galactosans. All treatments showed lowered glucosan and higher galactosan content over that of the control samples.

Effect of IAA. — Treatment with IAA seemed to have very little, if at all, effect on the different soluble fractions except for a considerable rise amounting to about 300 per cent in both hexose fractions. The most stricking effect of the auxin is the increased polysaccharide content of the treated plants, a phenomenon that was reduced by increase of concentrations. In all cases the increase was mostly in the galactosans, while the glucosans were reduced only when the grains were treated with 5 and 10 p.p.m.

Effect of NAA. — The most stricking of the effects of NAA on the carbohydrate levels is the increased total carbohydrate content, a phenomenon that increased by increasing the concentration of the auxin. This was accompanied by a depressing effect on the rate of building of conjugated pentoses, the effect being marked in the two higher concentrations. The conjugated pentosan fraction was slightly affected by 5 and 10 p.p m. of the auxin but was markedly reduced in the highest concentration of 20 p.p.m. Furthermore the treated tissues accumulated appreciable amounts of hexoses over the control, the fructose content being little affected by variation of concentration of the auxin while the glucose value was lowered by raising the concentration of the auxin. On the other hand NAA favoured the accumulation of both the glucosans and galactosans.

Discussion

The results of this experiment clearly established the fact that during the first month of development, the three compounds, under the conditions of the experimen, seemed to have no effect on the different pentose forms, a phenomenon suggesting that these auxins did not interfere with the nucleotide and nucleoprotein formation. On the other hand, all treatments lowered the sucrose content; an indication that sucrose phosphorylase was inhibited. On the contrary, the treated samples showed a higher galactosan level, suggesting activation of hexose isomerases. From what is mentioned, it is obvious that the auxins used remained in the cells to exert their actions for a relatively long period. The presence of 2, 4-D as such had been demonstrated in tomato and pass for as long as 26 days after treatment (Dhillon and Lucas 1950).

Furthermore it seems that lower concentrations of the 3 compounds had more or less similar reducing effects on the total polysaccharide accumulation whereas in high concentration, both IAA and 2, 4-D lowered while NAA increased the polysaccharide contents of the tissues. Again it should be mentioned here that, inspite of the fact that IAA and 2, 4-D behaved more or less similarly in this respect, yet Tang and Bonner (1947) and Wagenknecht and Burris (1949) reported that 2, 4-D, unlike indole compounds, is not rapidly broken down in plant tissues.

During the second month, the tissues recovered from the inhibitory effects of 2, 4-D on the rate of polysaccharide synthesis and further enhancement was observed in the high concentration of 20 p.p.m. Still the inhibition of starch phosphorylase and acceleration of hexose isomerase was noticed. Furthermore, it seems that by lapse of time, 2, 4-D accelerated the nucleotide formation. Such a long-time response of plants was dealt with by Jaworski and Butts (1952) and Fang and Butts (1954) using 2, 4-D. They claimed that 2, 4-D may form a compound with the sugar glucose or protein and is stored in the plant in this form and slowly liberated by enzymes over long periods of time. Any how, the result was also substantiated by earlier workers such as Weintraub et al (1954) who found that when 2, 4-D was applied in the autumn to dormant buds of **Prunus,** it could still be

extracted unchanged in the spring and was then present in amounts sufficient to affect new growth from the buds.

The depressing effects of the three compounds on polysaccharide accumulation, during the first month of development, was followed by an accelerating effect that increased by raising the concentration of either 2, 4-D or NAA but decreased under the same conditions of IAA. Both 2, 4-D and IAA still lowered starch phosphorylase and accelerated hexose isomerase activity while NAA accelerated both enzymes.

Furthermore, while IAA, by lapse of time, had no effect on nucleotide and nucleoprotein formation, 2, 4-D accelerated while NAA lowered the rate of building both components particularly in presence of high concentrations.

Summary

Grains of **Zea mays** were soaked in 2, 4-D, IAA and NAA (5 p.p.m., 10 and 20) and sown. The leaves were analysed for their different carbohydrate fractions after one and after two months from sowing.

The three acids caused a persistant lowering of starch phosphorylase but enhanced the hexose isomerases. The tissues recovered from the inhibitory effects on the rate of polysaccharide formation after two months from sowing and in few cases caused a further enhancement. In all cases the soluble sugar fractions were very small compared with the polysaccharides. IAA had no effect on the nucleoprotein formation while 2, 4-D accelerated the rate of building of these components. On the other hand NAA had a depressing effect.

Table 1

Different Carbohydrate Contents of Leaves after One Month.

(Calculated as mgm sugar per 1 gm D.W.)

Treatment	Soluble carbohydrates									Insoluble carbohydrates								Total carbohyd.
	Glucose	Fructose	Total hexose	Free pentose	Conjugated pentose	Total pentoses	Total Monosacch.	Sucrose	Total sol. sugars	Glucosans	Fructosans	Galactosans	Total hexosans	Free Pentosans	Conjugated Pentosans	Total pentosans	Total polysacch.	
Control	2.67	1.07	3.74	0.64	0.08	0.72	4.46	1.62	6.08	280.10	10.80	44.80	335.40	44.59	3.91	48.50	383.90	389.98
5 p.p.m. 2,4-D	2.34	1.59	3.93	0.59	0.19	0.78	4.71	1.28	5.99	127.73	6.17	77.80	213.70	41,76	4.74	46.60	260,20	266.19
10 p.p.m. 2,4-D	2.68	1.09	3.77	0.60	0.10	0.70	4.47	1.25	5.76	280.57	9.48	44.40	334.40	41.84	4.66	46.60	330.90	365.65
20 p.p.m. 2,4-D	2.69	1.77	4.36	0.58	0.12	0.70	5.06	1.21	6.27	122.81	7.68	79.80	209.40	39.22	4.18	43.40	252.80	259.07
5 p.p.m. IAA	1. 7	0.69	2.46	0.66	0.11	0.77	3.23	1.26	4.49	131.38	9.37	108.80	249.45	46.15	4.64	50.80	300.25	304.74
10 p.p.m. IAA	1,29	0.68	2.57	0,56	0.15	0.71	3.28	1.27	4.55	167.50	10.40	162.60	340.00	45.62	3.08	49.70	390,20	394,75
20 p.p.m. IAA	1,88	0.81	2.66	0,65	0.15	0.75	3,44	1,24	4,68	139,93	8.93	122.00	269.86	40.08	4.62	44.70	314.56	319.24
5 p.p.m. NAA	2,69	1.08	3.77	0.64	0.14	0.78	4.55	0.57	5.12	200.88	7.12	84.60	292.60	40.76	4.74	45.50	338.10	343.22
10 p.p.m. NAA	2.73	1.09	3.82	0.63	0.15	0.78	4.60	0.57	5.17	194.15	7.55	84.60	286.30	40.10	4.50	44.60	330.90	336.07
20 p.p.m. NAA	2,69	1.06	3.75	0.64	0.09	0.73	4.45	0.61	5.09	245.96	7,94	101.60	355.50	40.20	5.10	45.30	400.80	405.89

Table 2.

Different Carbohydrate Contents of Leaves after Two Months
(Calculated as mgm sugar per 1 gm D.W.)

Treatment	Soluble carbohydrates									Insoluble carbohydrates								Total carbohyd.
	Glucose	Fructose	Total hexose	Free pentose	Conjugated pentose	Total pentose	Total monosacch.	Sucrose	Total sol. sugars	Glucosans	Fructosans	Galactosans	Total hexosans	Free pentosans	Conjugated pentosans	Total pentosans	Total polysacch.	
Control	0.21	0.23	0.44	0.65	0.22	0.87	1.31	0.00	1.31	438.00	10.60	46.58	494.18	39.57	10.09	49.66	543.84	545.15
5 p.p.m. 2,4-D	2.52	0.89	3.41	0.59	0.42	1.01	4.42	0.00	4.42	361.66	9.84	123.80	495.30	36.06	10.24	46.30	541.60	546.02
10 p.p.m. 2,4-D	0.23	0.36	0.59	0.59	0.27	0.86	1.45	0.00	1.45	362.43	9.82	127.20	499.45	38.46	9.94	48.40	547.85	549.30
20 p.p.m. 2,4-D	2.38	1.03	3.41	0.59	0.46	1.05	4.46	0.00	4.46	362.56	10.29	182.40	555.25	38.89	9.31	48.20	603.45	607.91
5 p.p.m. IAA	0.55	0.76	1.31	0.64	0.23	0.87	2.18	0.00	2.18	372.68	9.37	260.70	642.70	30.91	9.24	40.15	682.85	[illegible]
10 p.p.m. IAA	0.61	0.72	1.33	0.61	0.27	0.88	2.21	0.00	2.21	395.25	9.05	160.60	564.90	36.06	9.34	45.40	610.30	612.51
20 p.p.m. IAA	0.57	0.79	1.36	0.63	0.22	0.85	2.21	0.00	2.21	491.61	9.79	87.80	609.20	39.74	9.46	49.20	658.40	660.61
5 p.p.m. NAA	4.58	0.94	5.52	0.67	0.15	0.82	6.44	0.00	6.44	487.98	9.27	90.10	587.35	35.14	11.06	46.20	633.55	639.99
10 p.p.m. NAA	2.84	1.02	3.86	0.80	0.04	0.84	4.70	0.00	4.50	505.59	9.21	110.00	614.80	37.55	9.65	47.20	662.00	666.50
20 p.p.m. NAA	1.19	0.86	2.05	0.71	0.04	0.75	2.80	0.00	2.80	548.58	10.67	162.50	721.75	40.97	5.28	46.25	768.00	770.80

Literature

Dhillon, A.S. and Lucas, E.H. (1950) : Absorption, translocation and persistance of 2, 4-D in some plants. Bot. Gaz., 112, 198-207.

Fang, S.C. and Butts, J.S. (1954) : Studies in plant metabolism. III. Absorption, translocation and metabolism of radioactive 2, 4-D in corn and wheat plants. Plant. Physiol., 29, 56-60.

Hofmann, E. and von Schmelling, B. (1953) : Zur Wirkung der 2, 4-D auf den Stoffwechsel bzw. Fermentgehalt der Pflanzen. Naturwissenschaften, 40, 78-86.

Jaworslei, E.G. and Butts, J.S. (1952) : Studies in plant metabolism. II. The metabolism of C^{14} labelled 2, 4-D in bean plants. Arch. Biochem. Biophys., 38, 207-18.

Mitchell, J.W. and Brown, J.W. (1945) : Effect of 2, 4-D on the readily available carbohydrate constituents in annual morning glory. Bot. Gaz., 107, 120-9.

Naguib, M.I. (1952) : A rapid procedure for the colorimetric estimation of free and conjugated sugars in plant extracts. Zucker 15 (17) : 351.

————, (1963) : Colorimetric separation of plant polysaccharides. Zucker 16 (2) : 15.

Sell, H.M., Luecke, R.W., Taylor, B.M. and Hamner, C.L. (1949) : Changes in chemical composition of the stems of red kidney bean plants treated with 2, 4-D. Plant Physiol., 24, 295-299.

Smith, F.G., Hamner, C.L. and Carlson, R.F. (1947) : Changes in food reserves and respiratory capacity of bindweed tissues accompanying herbicidal action of 2, 4-D. Plant Physiol., 22, 58-65.

Tang, Y.M. and Bonner, J. (1947) : The enzymatic inactivation of indole acetic acid. I. Some characteristics of the enzyme contained in pea seedlings. Arch. Biochem., 13, 11-25.

Wagenknecht, A.C. and Burris, R.H. (1949) : Indole acetic acid inactivating enzymes from bean roots and pea seedlings. Arch. Biochem., 25, 30-53.

Weintraub, R.L., Reinhart, J.H., Scheriff, R.A. and Schisler, L.C. (1954) : Metabolism of 2 4-D. III. Metabolism and persistance in dorman plant tissues. Plant Physiol., 29, 303-4.

Wort, D.J. (1951) : Effects of nonlethal concentrations of 2, 4-D on Buckwheat. Plant Physiol., 26, 50-8.

A STUDY OF GIFTED STUDENTS AND THEIR DEVELOPMENT IN A SOCIALIST DEMOCRATIC SOCIETY

By

Mohamed I. Kazem

University College For Girls, Ein Shams University

PART I

Introduction

Since the early days of history people could recognize that individuals were not the same; neither in their physical shapes and capacities, nor in their mental abilities. The folk-lore of all old civilizations tell us how they distinguished between the superior, the normal, the feebleminded and the mad.

This does not necessarily mean that they conducted scientific study among the population to identify and put each individual in his own category, but at least we can consider the attempt of Plato 2300 years ago to speculate upon ways of telling which children were gifted so that they might be educated for leadership in the state. He was convinced that Greek democracy would be no better than its leadership and he wished to educate superior youth for this important task[1]. The ancient Egyptians used to invite a number of foreign students who were sons of leaders or bright children (as potential leaders) to their institutions for political reasons. The Romans, the Arabs, and the Turks were aware most of the time of the existence of the exceptional children. They tried to help the defective children and to make use of the gifted.

In this paper we will concern ourselves with the gifted children and their place in our present day socialist democratic society. As a matter of fact during the last few centuries which were accompanied with the fast development in all aspects of life, little attention was paid to make use of the gifted or even study them scientifically. Attention to gifted children was

stimulated by the publication in 1869 of Glaton's **Heredity Genius** which marked the beginning of the era of strong interest in individual differences[2]. Since this time evidence accumulated from many years of research and observation indicated that the range of intellectual abilities, interests and capacities among individual human beings is very great[3]. (see Fig. 1).

The intelligence of the population

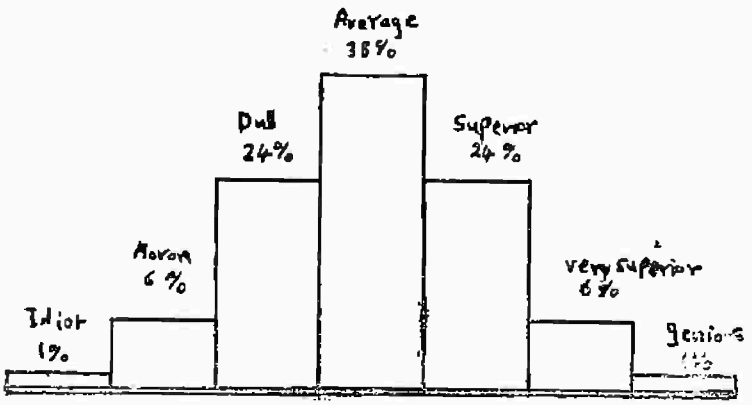

You will notice on the graph that the highest percentage of the population (38 per cent) is of average intelligence. An additional 48 per cent of the population is divided equally on either side of the average group. These are the somewhat-less-than-average and the somewhat above average segments of the population. The feeble-minded and the gifted, the extreme ends of the graph, comprise only about 14 per cent of the total population.

Who Are The Gifted Children :

The gifted group are defined as those who have special abilities or talents of social value. These include :

1. High intelligence.
2. Talent in creative fields, such as art, music, and writing.
3. Special abilities in a variety of socially useful areas, such

---

* After Thelma Guin Thurstone, and Katharine M Byne. Mental abilities of children, science research assn. Chicago, 1951, p. 9.

as mechanics, science, dramatics, athletics, human relations, social organization.

4. Creative talent or the ability to make new and novel solutions to problems[4].

In general, we may assume that with few exceptions, the gifted children will have superior intelligence, though not always the very highest. Within this category the child must rank in the top 2 or 3 percent of the age group in at least one area of special significance, such as art, verbal intelligence, or spatial imagination. The types of talent to be included are those which have social value and are of sufficient complexity to permit further development. Hence we will concern ourselves with children who have high intellectual ability and children with creative ability. Creative children are those who have unusual ability to evolve new methods and improved procedures for doing things. They are resourceful and have great initiative. The child with unusual creative ability usually has high intellectual ability, though many children with high intellectual ability do not have **high creativity.** The child who excels in this area will usually have other talents in addition to his creative ability[5]. Mentally gifted children have a high degree of general intelligence in the sense of the ability to do abstract thinking and other types of relational thinking. Those children rate high in respect to the general intelligence factor which Spearman designated by the letter "G". In terms of Thurstone's theory they possess to a high degree most if not all, of the eight mental abilities. According to Thorndike, they excel in the abilities involved in "abstract" intelligence. The mentally gifted are characterized by "power" that is, they are able to do mental tasks of a high degree of difficulty. The mentally gifted are alert and quick. Spearman thought that intelligence and speed of response were not separable to any great degree. The mentally gifted are also characterized by broad attention-span, by a high degree of insight into problems, and by ability to generalize[6].

There is a traditional belief that gifted children are usually one sided and they are almost always weak, suffering self-tornment and unhappy. We do not know whether they are more happy or less happy than the average person in the generality. We do know that they are better fed, better housed, and better doctored than the average person, that they are in a position to

care better for their children, and that they have less reason generally to be anxious about the future. Such things can't insure happiness, but they would seem to favor it. The more important results, however, can be stated : children of I.Q. 140 or higher are in general, appreciably superior to unselected children in physique, health and social adjustment; markedly superior in moral attitudes as measured either by character tests or by trait ratings; and vastly superior in their mastery of school subjects as shown in a three hour battery of achievement tests[7].

Special attention was given the geniuses who had sometime or other been labeled as backward in childhood and in every one of these cases the facts clearly contradicted the legend. In these cases one notes a tendency for the direction of later achievement to be foreshadowed by the interests and preoccupations of childhood[8]. Terman says, "Gifted children do work of superior quality in all subjects requiring abstract thought, but only slightly better than average in subjects depending upon manual dexterity or special talent." The reason why many children with high I.Q.'s have poor muscular control is because muscular development is not so dependent upon mental age as upon physical development[9]. Furthermore, Terman found in his gifted group that success is associated with stability rather than unstability, with absence rather than with the presence of disturbing conflicts in short, with well balanced temperament and with freedom from excessive frustrations[10].

Even the famous idea of C.F. Hohan and Edgar Dale about using films, "the effectiveness of films with children of a given level of "Intelligence" must be expected to vary with the subject taught and with the learning out-comes measured[11]". Where effectiveness is considered in terms of verbal responses to information tests, films seem to be relatively more effective for "dull" than bright children, is not accepted by recent studies. Herbert Smith in conclusion of his study about that says, "In view of the probable penalty which the use of gains places on brighter students, and the depressing effect on the correlation coefficient of unreliability in the measuring instrument, the positive correlations obtained seem to be conclusive evidence that bright children learned more of the information demanded by the five different tests employed in the two studies than dull children[12]".

As a summary to answer who are the gifted we can use the conclusion of Lewis Terman[13] of his study which was designed to discover what physical, mental and personality traits are characteristic of gifted children as class, and what sort of adults they become. The subjects investigated were selected by methods which insured that they would be fairly representative of the top 1 percent of the general school population in I.Q. All but a few members of the group were first tested and studied in 1921-22. The follow-up has included two extensive field studies, with retests in 1927-28 and 1939-40. On several follow-up studies by mail (the latest 1945) some of the most significant findings are as follows :

1. The typtical gifted child is superior not only in intelligence but in practically all the traits that were studied, including school achievement, versatility, character traits, play information, social adjustment, and physique.

2. As adults, the group as a whole averaged in tested intelligence about 1.0 S.D. above the average college students, and between 2.0 and 2.5 S.D. above the average adult. None of the subjects have regressed to average adult intelligence, but perhaps 10 percent have regressed from the 99th percentile to the 85th percentile or below.

3. The mortality in the group has been only about four-fifths of the expectancy for the general population of comparable age. The insanity rate has been low, and serious maladjustment (other than insanity) amounted to only 6 percent by 1945.

4. Nearly 90 percent of the group have had some schooling above the secondary level, and about 70 percent have graduated from college. Two-thirds of the men, and three-fifths of the women who graduated from college have had one or more years of graduate work.

5. The school records in general have been superior at all educational levels, but a good many of the subjects have failed to achieve in proportion to their intellectual ability. Of the numerous causes responsible for such failure, one of the most important has been the absence of educational procedures adapted to children of exceptional ability.

Limitation of the Study :

The very fact why we are concerned with the study of the gifted is the trend in this age towards mass production. I do not only mean the modern method in industry, but I really also mean the impact of the quick development in all aspects of life. The competition which exists between men and nations and what follows of involving the masses of people and providing service and education for all the people, may be, because it is the best way to produce optimum efforts. It is not a question of the direction in which modern life is leading us, but rather how can optimum achievement by the gifted be accomplished. It is clear that the basic idea of Plato is still valid, "Put the right man in the right place". If we want to choose the right man for leadership and responsibility, then they are the gifted individuals. It is the responsibility of society and education, then to locate these individuals and give them the suitable training for their own benefit and our own welfare.

Prior to speaking about how to locate these children and how to use them, we like to point to the special difficulties which stood in the way of the progress of such study. Terman lists four factors which operated to limit research on the gifted:

1. The influence of current beliefs, partaking of the nature of superstitions, regarding the essential nature of the great man who has commonly been regarded by the masses as qualitatively set off from the rest of mankind, the product of supernatural causes, and moved by forces which are not to be explained by the natural laws of human behavior.

2. The widespread belief, hardly less superstitious in its origin, that intellectual precocity is pathological.

3. The vigorous growth of certain so called democratic sentiment in Western Europe and America during the last few hundred years, which has necessarily tended to encourage an attitude unfavorable to a just appreciation of native individual differences in human endowment.

4. The tardy birth of the biological sciences, particularly genetics, psychology and education[14].

PART II

Identifying the Gifted

The studies made in the 1930's by Stoke and Lehman, as well as by others, have revealed that gifted children are usually found in average and inferior socioeconomic groups because of the greater number of children that make up such groups. And despite earlier implications, based upon percentage of their quota, that the gifted are to be found primarily among the professional and higher occupational group. Lehman and Stoke concluded from their studies of the number of girted children in unselected populations that the great majority of children with I.Q.'s above 140 come from non-professional classes[15]. The identification of gifted children is not as easy as it appears at first thought. Sometimes the lack of interest in classroom routine manifested by many gifted children has misled the teacher in many cases and caused her to regard them as dull or slow learning individuals. Attitudes growing out of frustration have caused gifted children to be classified as delinquent and socially maladjusted cases. There is need for careful systematic identification in all schools. Many schools make no effort to learn who the gifted are, and still others make the attempt in such haphazard fashion that the results have little reliability and still less usefulness[16]. It is a matter of high importance though to locate these gifted and as early as possible. These early identified gifted are the geniuses and leaders of the future. Both the evidence on early mental development of historical geniuses and that obtained by follow-up of gifted subjects selected in childhood by mental tests points to the conclusion that capacity to achieve far beyond the average can be detected early in life by a well constructed ahility test that is heavily weighted with the "G" factor[17].

In the following pages we located some charts which illustrate the age versus production in different fields[18]. We can see that the best work in science is done between ages 25-35 and rarely later than 45. The peak productivity for works of lesser merit is usually reached 10 years later in philosophy, art, psychology, and education, etc.

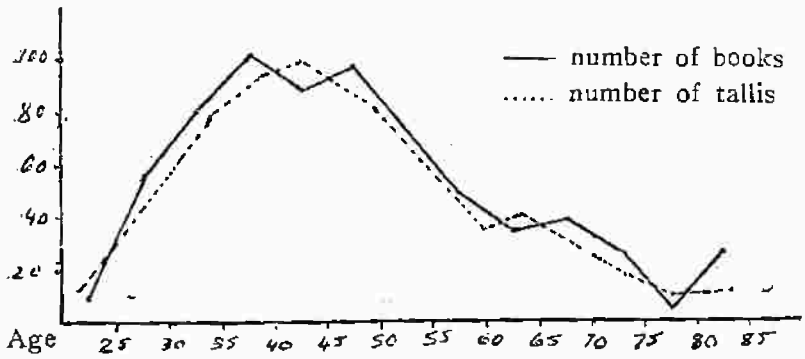

Age versus production of 128 philosophical works each of which was alleged by one or more of the 50 historians to be authors (chief work). (Lehman P. 44)

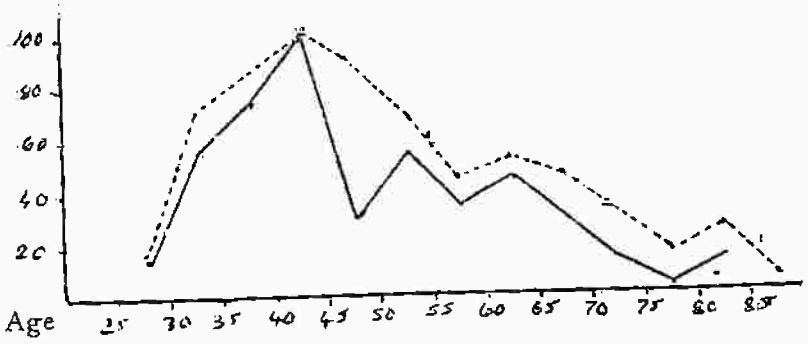

Age versus production in educational theory and practice.
—— one superior contribution by each of 75 individuals born from 1750-1850.
..... 425 contributions of lesser merit by 206 individuals born from 1750-1850. (Lehman P. 137)

Age versus production in psychology.
—— 85 superior contributions by 50 individuals.
..... 4687 contributions of lesser merit by 339 contemporary psychologists. (Lehman P. 136)

Chronological Ages

Average number of practical inventions during each five year interval of the inventors' lives. Based on 554 inventions by 402 inventors now deceased. (Lehman P. 10)

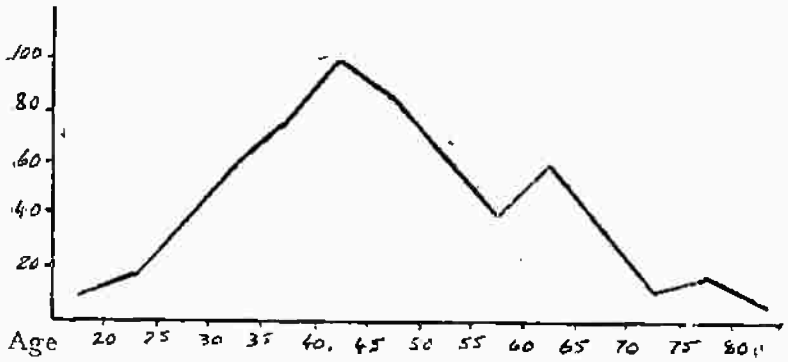

Chronological Ages

Age versus the production of 274 superior prose selections by 62 authers. (Lehman P. 111)

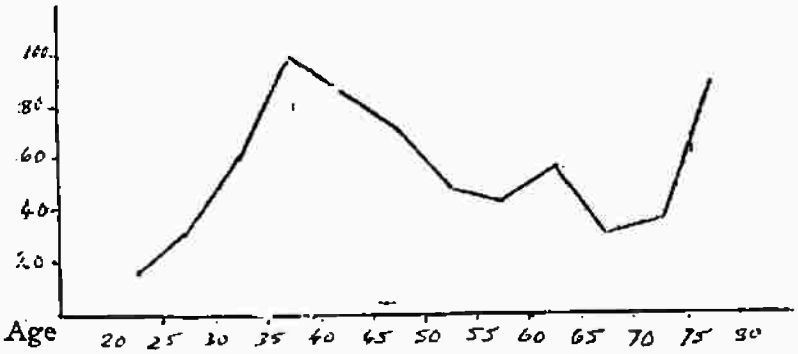

Chronological Ages

Age versus important pictures in the louvre. Based on 53 paintings by 32 artists. (Lehman P. 73)

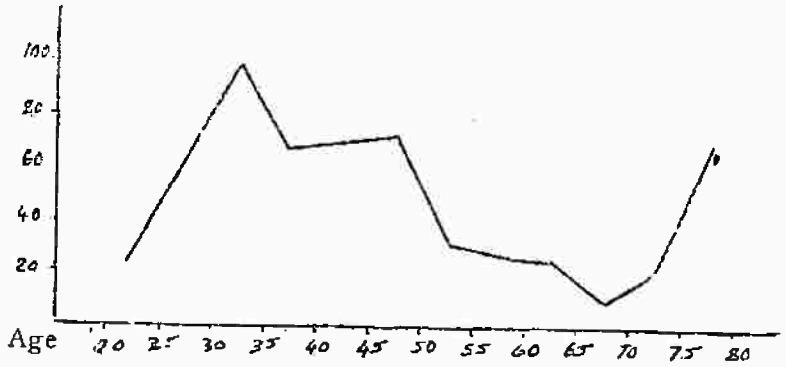

Average number of contributions by physicists during each five-year interval of their lives. Based on 141 contributions by 90 physicists now deceased. (Lehman, P. 9)

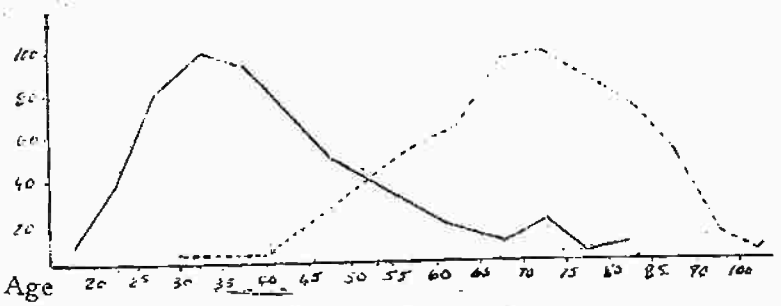

993 significant contributions by 244 noted chemists.
Percentage of the 244 chemists who died during each five years interval. (Lehman, P. 17)

Age versus medical discoveries and inventions. Data for 159 individuals who made 188 medical discoveries and inventions.
(Lehman, P. 27)

We can see from this study of Lehman that the youth of high achievement potential should be well trained for his life work before too many of his most creative years have been passed.

How to Identify the Gifted :

It is clear that in any program concerned with the identification of gifted children, it is important to develop methods of detecting individuals of high intellectual abilty as well as those who exhibit special gifts in such areas as the arts, music, mechanics, science, social relations, leadership and organization[19]. However, we should be very careful in our judgments and conclusions. We should not confuse mental ability with scholastic ability. A child may do poorly in school because he is not high in verbal comprehension and word fluency. Learning in our schools depends largely on these two abilities. But a child may possess high mental abilities that the school does not utilize. It takes inelligentce to find the cause of a motor knock, to lay out a dress pattern economically and to plan the scaffolding for building a new house — yet the child may not have the opportunity to show these abilities in class work. We should not label a child "smart" or "dull" on the basis of his ability in one or two areas of intelligence[20].

Enlightened by all the limits to the way of identifying the gifted, there are three general methods of identifying superior children which supplement each other and which, taken together, provide an excellent program of identification[21].

1. **Standardized Tests** : Standardized tests used with good common sense are excellent means of arriving at the gross mass of gifted children. Such tests include group intelligence tests, vocational aptitude tests, academic achievement tests and the like. If these tests are followed by a Sanford-Binet, after careful study of the child emotionally and socially, such procedures will come as near identifying the gifted as any other means. There are, however, some who, believing the total organism of the child to be a combination of physical, emotional and intellectual traits, say that these traits operate so closely in an individual that it is impossible to measure them separately[22]. On the other hand, the adequacy of the intelligence test score itself

(1.Q) in giving a true picture of the child's intellectual endowment is conditioned in part by the child's performance and cooperation at the time of the test. In evaluating the results, a reviewer needs to take many other factors into consideration. The test score itself usually gives only the barest clue to other abilities of the gifted, such as initiative, creativeness, and intellectual curiosity[23]. Furthermore, there are more questions about the validity of the tests. Terman said : our conclusion is that for subjects brought up under present-day educational regimes, excess in 1.Q. above 140 or 150 adds little to one's achievement in early adult years. The data revealed that above the 1.Q. level of 140, adult success is largely determined by such factors as social adjustment. emotional stability, and drive to accomplish. Why is it that high 1.Q. has proved so generally disappointing in fulfilling the promise some investigators held for it ? An answer to this recurring question should be of interest to teachers in their attempts to reorient their thinking concerning the role of intelligence in modern life.

If by gifted children we mean those youngsters who give promise of creativity of a high order, it is doubtful if the typical intelligence test is suitable for use in identifying them. For creativity posits originality, and originality implies successful management, control and organization of new materials or experences.

Intelligence tests contain over-learned materials which, as Rockwell states, call for stable predictable response, not original creative reaction. It is evident, then that an acceptable criterion for giftedness must be sought primarily outside the provinces covered by the intelligence test. For the content of the intelligence test is patently lacking in situations which disclose originality or creativity.

Another criticism of the intelligence test which may help explain its failure in the identification of creative ability lies in its maker's disavowal of concern for the motive or drive which actuates high attainment. The intelligence test neglects the role of feeling and motive and requires only the habituated response of the child to situations which are "set" and which are "low in feeling tone"[24]. After all this criticism for using tests, and while current tests of general intelligence will not pick out all the

mentality gifted children in any group, these tests are probably the most effective single instrument now available for selecting such children. About aptitudes, it is a controversial issue. So far as identifying gifted children is concerned, there is, at present, a tendency to use such aptitude tests as are available in order to cast some light at least on the nature of the abilities of the gifted. The value, of those tests depends upon the background and training of these who interpret them[25].

2. **Teacher's judgment :** A clear idea of the nature of intelligence is little understood by the best of educators. Disregard for the age of the child is a common error in choosing a bright child. Over-aged pupils, doing excellent with children chronologically younger, are sometimes erroneously judged bright by teachers or people. The child who has fine character traits, whose personal appearance if flawless, and who behaves himself well, surely makes a better impression than one who causes the teacher untold difficulty. We mean then that a combination of teachers' judgment and the result of standardized tests is much better than the use of tests alone as a means of choosing the bright child[26].

3. **Classroom Performance :** No one deny that good school marks usually indicate good intelligence. Certainly, if the consensus of opinion of several teachers is that certain children rank high in their school subjects, and if these children are not over-age for their grade, school marks then might be used as the basis of selecting gifted children[27]. However, we know that school marks can't be proof for anything, we only can say that the probability of finding more gifted children between the children with high school marks is more than the probability of finding them between children with low school marks.

Austing H. Turney found that the correlation between marks and I.Q. is not more than the correlation between marks and any of the other factors[28].

"The average correlation between marks and each of these variables for the high school classes of 1926-1927 was :

Marks and Industry	.72
Marks and Cooperativeness	.62
Marks and Perseverance	.74
Marks and Ambition	.77
Marks and Dependability	.75
Marks and I.Q.	.64

Each of these traits appear to be equal to or greater than I.Q. in their effect upon achievement as measured by teacher's marks in the University High School. Inter-correlations indicated that these traits may be measures of the same factor to some extent."

Anyhow, though we can say that we do not have a perfect means to identify the gifted we can say that the best method is the best available one. Hence, we suggest a combination of the three methods which we spoke about. We can claim that the results which we will get out of it can be accepted for the time, for all practical purposes.

PART III

Developing the Gifted

The question of how to handle gifted children is a question about the core of Democracy. The people who urge for special care and special education and special future are arguing that in the name of democracy. They say that a democratic society should give individuals equal opportunities to develop their personalities to their maximum capacity. And as long as the gifted or the exceptional children can't achieve that in the common system, then it is their right and the duty of society to provide for each individual person the kinds and quality of educational experience needed to develop, to the fullest extent possible, his unique combination of personal characteristics. Bearing in mind that the improving of the capacities of these people is improving the general capacity of society, and denying them special care which will affect the development of their capacity is a sort of waste in society resources as well as denying the democratic concept of equality.

On the other hand, people, especially, in older days who were arguing against special care of the gifted, based their opposition on the notion that special education means special privilege which is undemocratic practice.

Democracy according to Bayles[29] is : "It is a form of socio-governmental organization in which there is equality of freedom or opportunity to participate in making decision on matters of

group or individual concern, and equality of obligation or responsibility to abide by such decisions and carry them out".

Democratic education then is founded on the ideal of opportunity. Too often equality of opportunity has meant **identical opportunity.** Opportunity to be equal must be measured in terms of individual abilities and capacities to the end that all will be challenged to utilize their powers to the fullest. Society will reap a rich reward from such policy. It makes possible the full development of individual capacities so that both the individual and the society which educates him may be mutually benefitted. As John Deway says, "If democracy has a moral and ideal meaning, it is that a social return be demanded from all and that opportunity for development of distinctive capacities be afforded all."[30]

There is nothing undemocratic in utilizing all social resources for the betterment of society. No people can afford to disregard the differences in human materials. Special education aims to prepare the child of low mentality for a place in society for which he is best fitted. Is it any less important that the child of superior mentality be prepared for social leadership?[31]

Special education is not favoring some individuals, and does not mean special privilege, as long as it is provided according to the rule and not for personal reasons. The gifted child is both an asset and a responsibility. He is an asset of uncalculated value to society. His potentialities for good are difficult to overestimate. Our socioeconomic structure, both national and international, demands leadership of the highest quality and keenest intelligence. Where else may we look for this type of leadership except among those of intellectual superiority?

Th basic concepts upon which the special education movement rests are quite simple. It is assumed that the first step in education is a careful diagnosis of the abilities, disabilities, capacities, and adjustment of an individual, using the greatest degree of expertness obtainable in a given school setting. The second step is to plan in terms of this diagnosis a program of education and training which will include the services of specialists, the development of special curricula, the use of special equipment or facilities, or the utilization of any other services,

devices or means which research or other experience has shown to have promise, and that may appear to be needed. The third step in the process is continuous evalution of the progress of the individual and readjustment of the program as appears to be warranted by such evaluation[32].

The situation of gifted education : In spite of the fact, that along with the increasing use of tests and perhaps largely as a result of it, there is a growing verbal interest, in improving educational methods for the gifted[33]; only an extremely small percentage of school systems make any special adjustment in program to give the exceptionally superior child a full opportunity to develop his powers.

Some of the reasons why more do not, are that such programs may mean :

1. Increased financial outlay necessitated by special classes, program adaptations, additional supervisors, extra equipment, and similar expenditures.

2. Difficulty in securing teachers who have the knowledge and skill required to make curricular adjustments for the gifted or to conduct special classes for them.

3. Administrative difficulties encountered in making program adjustments and providing special classes.

4. General apathy toward the problem commonly expresses as, "why worry about the gifted? they'll get along all right."

An analysis of these factors would seem to indicate that the basic difficulty lies in the public attitude rather than professional practice[34]. Now with reference to the need for special education, extensive and careful studies show that approximately 22 percent of all children are exceptional to the extent that at some time they need the benefits of specialized educaional opportunities. At the same time similar studies abroad have shown that, in cities providing the most extensive facilities for the exceptional, only about 6 percent of the children, who differ most widely from the so-called normal and whose needs are most extreme, have been placed in special schools and classes. Sixteen

percent, or nearly three times as many as are ever placed in special schools or classes remain in the regular grades. The individualization and specialization needed by most of the children can and will continue to be provided by regular teachers in the regular grades.[35]

Despite the foregoing evidence of gains, the gifted child continues to be grossly neglected throughout his school career. The U.S. office of Education reports that in 1948 only 4,080 elementary school pupils and 16,632 secondary school students were enrolled in special classes.[36]

Methods of Education for the Gifted :

The principle that special provisions should be made for students of high ability because of their high ability is a part of the broader principle that all educational programs should be adapted to meet the needs and abilities of all students. Because the gifted children's intellectual interests and prospective futures differ from others, and because they can learn more and learn it more rapidly, the educational experience which gifted students should have in school and college ought not be identical with the experiences of other students. Some of their education should be the same, but some of it should be different — different as to kind, quantity, and level of insight.[37]

The methods which may be used throughout a school system for dealing with the mentally gifted may be listed as follows : 1. Homogeneous grouping. 2. Intraclass grouping. 3. Special classes. 4. Enrichment. 5. Acceleration.[38]

1. Homogeneous Grouping : [39]

Results of the studies indicate that homogeneous grouping will tend to enhance educational achievement when accompanied by provision for the abilities and needs of the groups concerned. The following general types of segregation and grouping have been tried by Dvorak and J. Rae : (1) Classification into three groups — bright, average and slow; (2) Classification into two groups — average and above in one and slow in the other, or bright in one and average and dull pupils in the other; and (3) No special clasisfication, but rather intraclass grouping.

It is impossible, however, to have complete homogeneous grouping of children. Howard Taylor gives the following principles at bases for the classification of gifted children :

1. Education should promote social adaptation.
2. Education should challenge fully the ability of the pupil.
3. Education should be within the physical and mental limits of the child.
4. Education should have depth and breadth through (enrichment) rather than height through acceleration.
5. Maturation is important as well as learning ability.
6. Education should provide for individual differences.

2. Intraclass Grouping :

It should be recognized that even though a twofold or threefold grouping is used, there will be also a great deal of intraclass grouping. The good teacher will recognize the variation in interests and abilities and will automatically conduct a sort of grouping so as to render the school work more effective. Group projects, individualized work, contract methods, and socialized recitations can be adapted to intraclass groupings. The intraclass grouping will furnish opportunities for leadership and for individual pupils to apply their knowledge, experiences, special abilities, and intelligence in a very desirable manner if the teather knows his pupils and enlists their interest and help in planning units of experience. However, intraclass grouping, unless carefully planned and executed, tends to promote habits of laziness and superficial thinking among gifted children. The gifted child, like other children, needs materials that will challenge his abilities.[40]

3. Special Classes and the Specialized High School :

Such a procedure has the advantage of presenting a situation where methods and materials suitable for gifted children can be used for enhancing educational development. Since keen minds will be helping and competing with one another, such an organization has possibilities for the development of increased initiative and motivation. There are certain inherent dangers in such an organization such as lack of democratic practices in living, lack of widespread opportunity to learn to work with and

adjust to individuals of different levels of mental ability. But this argument is specious. It is not true that individuals in a democracy live and work in groups as heterogeneous as the generality of the population. The home, the family, and the circle of friends which surround a person are often fairly homogeneous groups. On the other hand, it is certainly not true that forcing individuals of widely divergent abilities into a single class is the best method of teaching them to understand each other, or to make pleasant and mutually helpful contacts.[41]

4. Enrichment :[42]

Professor Hillingworth adopted the statement by Thorndike that the education of the best thinkers should be an "education for initiative and originality". She contended that any study undertaken as "general discipline" for the minds of the rapid learners or any work which involved simply covering materials that would be required again in high school or college would be useless in achieving this objective. "The education given", she wrote, "should be such as will function specifically and uniquely in their lives. It should afford them a rich background of idea, in terms of which they may perceive the significant of ideas, in terms of which they may perceive the significant features of their own times". Thus, the objectives of the curriculum for rapid learners differed perhaps in degree, but not essentially in kind from the objectives of a functioning curriculum for all children.

We see then that the method most often advocated is curriculum enrichment for the gifted without segregating them from ordinary class. Under ideal conditions enrichment can accomplish much, but in these days of crowded schools, when so many teachers are overworked, underpaid, and inadequately trained, curriculum enrichment for a few gifted in a large mixed class can't begin to solve the problem.[43]

It is clear then that the amount of enrichment possible is usually limited by lack of special teachers, a dearth of time and inventiveness on the part of the regular teacher, and lack of facilities on the part of the school. No cases of too much enrichment have been recorded. If a broadly enriched program is offered the child during his first six or seven years in school he

will be challenged to build a background of experience which will stand him in good stead for future acceleration. Meanwhile, he will have an opportunity to mature socially and physically so he will not be at a loss to adjust as he moves ahead more rapidly in subsequent years.[44]

5. Acceleration :

We can imagine the great unhappiness and sometimes, serious emotional maladjustment develop when a gifted child's mental tasks are too easy for him or when he invites ridicule or jealousy or even fear because of his manifest superiority.[45] It is hard for him to maintain silence when ideas press for utterance. The tendency is for many to speak at once, each striving to outspeak the others. An atmoshhere of confusion is thus created unless discipline can be imposed. To **hold his tongue**, to listen quietly and respectfully to others, to speak according to some order of procedure, and to restrain disappointment at failure to be heard at all these habits seem especially difficult for gifted children to form. Only gradually do these children learn self-government in this respect.[46]

Hence, it is a conservative estimate that more than half of the children with I.Q.'s of 135 or above had already mastered the school curriculum to a point two full grades beyond the one in which they were enrolled,[47] and some of them as much as three or four grades beyond. ge can not put a general rule for the suitable number of years for acceleration, it depends upon the individual, sometimes it can be done safely for four years, sometimes it may be harmful for two years. Acceleration is an easy solution for the case of gifted children but it causes sometimes more troubles than what it solves. If the child be greatly accelerated in grade status, so that he is able to function intellectually with real interest, he will be misplaced in otber important respects. A child of eight years graded with twelve year olds is out of his depth socially and physically, though able to do intellectual work as well as they can. These problems come out clearly when we consider that the seats and desks planned for twelve year olds will not fit him; that he will always be the last one chosen in athletic contests; that no one will know how to treat him at class parties, that the teacher will be prone to complain of his manual work such as handwriting; and that he

will be emotionally immature in comparison- with older class mates.[48] Moreover, the child who accelerates, may, in many cases, miss many of the basic idcas which he may lose for all his life. Then there is possibility, not only that his emotional life is threatened, but also his academic life may be, not on a concrete base.

Finally we have suggested a number of ways in which the potentialities of gifted children can be more fully realized by home and school training. In this connection we have especially emphasized the importance of curriculum enrichment, special classes, vocational guidance, and a greater amount of school acceleration.[49]

The Teacher :

It is felt that a study of gifted education can not avoid speaking about teachers. As a matter of fact, all the basic philosophical consideration in the gifted education, and the curriculum can only get its meaning and value through the method and spirit of applying it, in short, the teacher. Upon the understanding and the desire of the teacher depends the whole system.

The point of view of the N.E.H. Policies Commission that the qualities especially needed in a teacher of gifted children are "superior intelligence, a rich fund of information; versatility of interests; an inquiring mind; ability to stimulate and inspire; modesty; a sense of social and professional responsibility; freedom from jealousy; freedom from excessive sensitivity to criticism; understanding of educational psychology, with special knowledge of psychology of the gifted children". The lack of any one of them is a distinct handicap to a teacher of the gifted.[50]

In the Spring of 1953 Hunter College in the U.S.A. undertook a survey of opinion among school administrators. Study of the replies received from institutions raises these questions :

1. How far are teacher education institutions meeting the needs which superintendents regard as important ones in providing for the education of gifted children?

2. How concerned are these institutions to accept or take

leadership opportunities and responsibilities in the development of suitable programs for the education of gifted children?

3. In the preparation of teachers for gifted children should more emphasis be placed on broad background courses and less emphasis on professional preparation for handling classroom situations?

Answers to questions 1 and 2 seem for most colleges to be toward the negative. The answer to question 3 is at present almost wholly a matter of opinion and the question is one which might well be made subject for scientific evalution by some college or colleges.[51]

Success and Adjustment of the Gifted :

A. **Success :** The criterion of "success" was the extent to which a subject had made use of his superior intellectual ability, little weight being given to earned income.[52] Adult success of the group of Terman and Oden,[53] whether measured in terms of educational or vocational achievement, has been on the whole outstanding. Compared to a random population of similar size, the gifted group, selected in childhood solely on the basis of I.Q., has furnished many times the usual proportion of doctors, lawyers, university teachers, engineers, and leaders in business or other fields. Even the least successful 20 percent of the group don't compare badly with the average run of college graduates. The prognostic significance of superior childhood I.Q. has thus been established beyond question. Results[54] show that the incidence of mortality, ill health, insanity, and alcoholism is in each case of gifted below that for the generality of the population of this age. Their I.Q. developed, "early ripe, early rot" does not hold for these subjects. As for schooling, 90 percent entered college, 70 percent graduated. Thirty percent of the graduates were awarded honors and about two-thirds remained for graduate work. They earned a lot of their expenses and had scholarships. The follow-up of these gifted subjects has proved beyond question that tests of "general intelligence" given as early as six, eight, or ten years, tell a great deal about the ability to achieve either presently or 30 years hence. Such tests don't however, enable us to predict what direction the achievement will take, and least of all do they tell us what personality factors or what accidents of

fortune will affect the fruition of exceptional ability. Granting that both interest patterns and special aptitudes play important roles in the making of a gifted scientist, mathematician, mechanic, composer, Terman[55] is convinced that to achieve greatly in almost any field, the special talents have to be backed up by a lot of Spearman's "G".

Another factor in success : At any rate, Terman[56] has seen that intellect and achievement are far from perfectly correlated. A study by him to identify some of the nonintellectual factors that have influenced life success among the men in his gifted group. He found that his A's (he called his more successful group "A" and the other "C") tended to be more successful in high schools and college, the differences between the educational histories of the A's and C's reflect to some degree the differences in their family backgrounds. Fifty percent of the A's fathers, but 15 percent of C's were college graduates. The estimated number of books in the A homes was 50 percent greater than in the C homes. When the average age of the subject was about 16 years, more than twice as many of the C parents as of A parents had been divorced. Eighteen years before the study, the only trait on which the C's averaged as high as the A's was general health. The superiority of the A's was especially marked in four traits : prudence, self-confidence, perseverance, and desire to excel. A's also were higher in leadership, popularity, and sensitiveness to approval or disapproval. Later 80 percent of A's married, and better wives, but only 66 percent of C's. The divorce of C's was twice as high as for the A's. There are also differences in persistence in the accomplishment of ends, "integration toward goals, as contrasted with drifting", self-confidence and freedom from inferiority feelings.

Cox[57] defined her three traits for the personality of her groups :

1. Youths who achieve eminence have in general: A. Heredity above the average. B. Superior advantages in early environment.

2. Youths who achieve eminence are distinguished in childhood by behavior which indicates an unusually high I.Q.

3. Youths who achieve eminence are characterized not only

by high intellectual traits, but also by persistence of motive and effort, confidence in their abilities, and great strength or force of character.

We like to add another factor, or idea, which can help us in avoiding wrong or misleading predictions. Whatever efficiency our tests may have in discovering exceptional talents, and whatever schools may do to foster these discovered, it is the prevailing spirit of the age that will decide, by the rewards it gives or withholds, what talent will come to flower! The most favored by the current spirit of the age, are those that can contribute to science and technology. One may regret that the spirit of the time is not equally favorable to the discovery and encouragement of potential poets, prose writers, artists, statesmen and social leaders.[58]

As a summary we can say that achievement in school is influenced by many things other than the sum total of intellectual abilities. The same is true of success in life.[59]

The following table (after Havighurst) shows the probability of going to college for gifted. Cells 5 and 7 represent large number.

Probability that Youth of Superior Mental Ability will go to Post High School Institutions[60]

Socioeconomic Status	Individual Motivation		
	Low	Medium	High
High (upper an upper middle)	3 — Doubtful probability	2 — high probability	1 — very high probability
Medium (lower middle)	6 — low probability	5 — doubtful probability	4 — high probability
Low working class)	9 — very low probability	8 — low probability	7 — doubtful probability

B. **Adjustment :** The abilities of the gifted are superior almost in all areas, including adjustment. But it is not fair to compare the adjustment of the average individual to average individuals and the adjustment of the gifted to average individuals.

There is difference in the efforts which are made in the different cases. So, in spite of the great efforts, in comparison with average, which the gifted can make to adjust, he may not achieve adjustment like an average one who has and makes less efforts than him. The higher capacity the gifted has, the more difference and troubles in adjustment he faces.

Hollingworth recognized also that the farther removed the child is from the average in intelligence, the more pressing his adjustment problems become. By trial-and-error experience, the highly intelligent child has to work out an adjustment, if he can, but there is likely to be noticeable difficulty if he tests above 170 I.Q.[61]

She realized that the friendships of any person are determined by his degree of intelligence and that congeniality between persons depends to a large extent upon their ability to think of the same things. Hence, since there are so few children at the top levels of intelligence, that is the upper 1 percent of the child population, it is very difficult for such children to find congenial friends.

These young children of extremely high intellectual acumen fail to be interested in child's play for the same reasons that in adulhood they will fail to enjoy pop-corn at amusement parks. It is futile, and probably wholly unsound psychologically, to strive to interest the child above 170 I.Q. in ring-around-the-rosy or blind-man's-bluff. Many well-meaning persons speak of such efforts as "socializing the child", but it is probably not in this way that the very gifted child can be socialized. The problem of how the play interests of these children can be realized is one that will depend largely on individual circumstances for solution.[62] They generally try to change in the direction of more complex patterns with more remote goals. The rest of the group don't like that, and usually lose interest and drift away. Repeating this attempt at reorganization of activities, the highly gifted child finds himself marginal, if not isolated. It is not surprising, then, that in the typical elementary school we find that highly gifted children have little chance of achieving group leadership. Indeed, Iona Kerstetteris sociometric studies reveal that even when in special classes and schools for gifted children, the highly gifted are more likely to be followers than leaders,

tending to rank in the middle in terms of acceptance and rejections [63]

However, the distribution curve of intelligence implies that a child of 140 or 150 I.Q. may find a fairly large group of associates whose mental development and range of interests are not hopelessly far behind his own, and who react to him as to a congenial playfellow, perhaps elevating him to a position of real leadership. The child of 170 or 180 I.Q. on the other hand, stands in an extremely sparsely populated region of intelligence. Only one child in thousands makes so high a score, and only one child in two hundred or more comes within such a long distance range as 140 I.Q. If he is promoted to a school grade in which the intelligence level of the pupils is at all commensurate with his own, he is likely to be immature in size, strength, and social emotional development.[64]

It is in the case of the child with extraordinarily high I.Q. that the social problem is most acute. If the I.Q. is 180 the intellectual level at six is almost on a par with that of the average eleven-year-old. Physically, development on the other hand, is not likely to be accelerated more than 10 percent, and social development probably not more than 20 or 30 percent. The inevitable result is that the child of 180 I.Q. has one of the most difficult problems of social adjustment that any human being is ever called upon to meet. He speaks a language which average children of his age literally do not understand. Their stupidities render him impatient. They are interested in nothing that he is interested in.[65] It is really wise that the genius is of necessity solitary.

On 25 cases sufficiently detailed information was available to permit rating of social adjustment.[66] The subjects were rated on a fine point scale : a rating of (1) indicated marked sociability and leadership; (5) indicated serious maladjustment or almost complete lack of social intercourse. The ratings were distributed as follows :

Rating of Social Adjustment

Rating	(1)	(2)	(3)	(4)	(5)
Number	0	2	14	7	2
Percentage	0	8	58	28	8

Conclusion :

We tried in this paper to follow the spirit of our age, the current spirit is towards sufficiency and justice. Socialist democracy is the fashion of the age, and democracy means "People's Rule". When the people are ruling there is no place for individual privilege. Neither majority nor minority have special rights. Equality is the trend ot this type of society. In the history of mankind, there were rulers who were superman — also there were stupid and idiotic rulers. We are not discussing what type of rule is better; individuals are not ruling anymore. No man now is over or beneath other men — this is the fashion of the age. "People" want to use all that they possess, nobody alone owns himself; hence the gifted are not for themselves, they are gifts to all the "people". Therefore, these gifted "gifts" should be maintained, and developed to their greatest extent. Any addition to their powers, or to anybody's powers, is an addition to the "people's" powers.

— We should idenify the gifted.

— We should handle the gifted with care.

— We should put the gifted in the right places.

We are not particularly helping the gifted, we are helping all the people.

The gifted will not live alone, he will live with the people, and by the people.

The people will live better, by him, with him, if he is better.

REFERENCES

(1) Lewis Terman **et al. Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the NSSE, Part II. (The University of Chicago Press, 1950) P. 259.

(2) Paul Witty (Ed.). **The Gifted Child.** (New York Heath and Company, 1951) P. 2.

(3) State Department of Public Instruction, Division of Special Education. The Kansas Program of Special Education for Intellectually Gifted Students. Jan., 1955.

(4) Robert J. Havighurst **et al.** "A Community Youth Development Program", **Supplementary Educational Monographs,** June, 1952. N. 75. P. 2.

(5) **Ibid.** p. 15.

(6) Lewis M. Terman and Melita H. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up,** (Stanford, University Press, 1947) P. 28.

(7) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist.** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 223.

(8) **Ibid.** p. 225.

(9) Karl Garrison. **The Psychology of Exceptional Children.** (Ronald Press Company, N. Y.) p. 243.

(10) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist.** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 230.

(11) C. F. Hohan and Edgar Dale. **Encyclopedia of Ed. Research,** edited by Walter S. Monroe, 1941, p. 1328.

(12) Herbert A. Smith. **Ibid.** p. 249.

(13) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) p. 45.

(14) After : Paul Witty. **The Gifted Child** (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p. 2.

(15) Karl C. Garrison. **The Psychology of Exceptional Children.** (The Ronald Press Company, N. Y., 1950) p. 204.

(16) Merle R. Sumption, D. Norris and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) Ch. XIV, p. 202.

(17) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist,** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 225.

(18) Harvey Lehman, **Age and Achievement,** Princeton University Press, 953.

(19) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.

(20) Thelma Thurstone and Katharine M. Byrne. **Mental Abilities of Children.** (Science Research Associates, Chicago, 1951) p. 40.

(21) Merle R. Sumption, Dorothy Norris and Lewis Terman **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950), p. 262.

(22) **Ibid.**

(23) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** ,(Stanford, Calif. Stanford University Press, 1947) Ch. 2.

(24) Paul A. Witty. "Contributions to the I.Q. Controversy from the Study of Superior Deviates". **School and Society,** Vol. 51, 1940. p. 504.

(25) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Studies of the Genius:**

Vol. IV. The Gifted Child Grows Up. (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.

(26) Merle R. Sumption, Dorothy Norris and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, the Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 263.

(27) **Ibid.**

(28) Austin H. Turney. **Factors other than Intelligence that Affect Succes in High School.** (The University of Minnesota Press, Minneapolis. Thesis 1930).

(29) Ernest E. Bayles. **The Theory and Practice of Teaching.** (Harper and Brothers, New York, 1950) p. 33.

(30) John Dewey. **Democracy and Education.** (The Macmillan company, New York, 1916) p. 142.

(31) Merle R. Sumption, Dorothy Nossis, and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II, The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 261.

(32) State Department of Public Instruction, Division of Special Education, The Kansas Program of Special Education for Intellectually gifted Students, Jan. 1, 1955, p. 2.

(33) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist,** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 227.

(34) M. R. Sumption. "Let the Community Plan the Program for Educating Gifted Children". **Exceptional Children.** October, 1953.

(35) John J. Lee. "Landmark on the Highway of Social Advance". **Exceptional Children.** October, 1953.

(36) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951). p. 207.

(37) State Department of Public Instruction, Division of Special Education. The Kansas Program of Special Education for Intellectually Gifted Students. (Jan. 1, 1955).

(38) Earl C. Garrison. **The Psychology of Exceptional Children.** (The Ronald Press Company, N. Y., 1950) p. 251.

(39) **Ibid.**

(40) **Ibid.** p. 254.

(41) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 218.

(42) Marian C. Pritchard. The Enrichment Curr. For Rapid Learners at Public School 500 Speyer School. Paul Witty (ed.) **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 60.

(43) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist,** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 227.

(44) Merle R. Sumption, Dorothy Norris, and Lewis Terman. **Special Education for the Gifted Child.** The Forty-ninth Year Book of the National Society for the Study of Education, Part II. The Education of Exceptional Children. (The University of Chicago Press, 1950) p. 278.

(45) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) Ch. 2.

(46) Leta Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, N. Y.).

(47) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford University Press, Stanford, Calif., 1947) p. 28.

(48) Leta Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, New York) Ch. 20.

(49) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius:**

Vol. IV. The Gifted Child Grows Up. (Stanford, Calif., Stanford Press, 1947) p. 45.

(50) Paul Witty. **The Gifted Child.** (Heath and Company, New York, 1951) p. 227.

(51) Frank T. Wilson. "Preparation for Teachers of Gifted Children in the U.S." **Exceptional Children,** Nov., 1953, Vol. 20.

(52) Lewis M. Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist,** Vol. 9, No. 6, 1954, p. 229.

(53) Lewis Terman and M. Oden. **Genetic Study of the Genius: Vol. IV. The Gifted Child Grows Up.** (Stanford, Calif., Stanford University Press, 1947) p. 46.

(54) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent", **The American Psychologist,** Vol. No. 6, 1954, p. 223.

(55) **Ibid.** p. 224.

(56) **Ibid.** p. 230.

(57) C. M. Cox. **The Early Mental Traits of Three Hundred Geniuses.** (Vol. 2 of **Genetic Studies of the Genius.** Stanford University Press) p. 215.

(58) Lewis Terman. "The Discovery and Encouragement of Exceptional Talent". **The American Psychologist,** Vol. 9, 1954, p. 227.

(59) **Ibid.** p. 228.

(60) Robert Havighurst **et al.** "A Community Youth Development Program", **Supplementary Educational Monographs.** June, 1952, No. 75, p. 24.

(61) Leta S. Hollingworth. **Children Above 180 I.Q.** (World Book Company, New York) p. 273.

(62) **Ibid.** p. 275.

(63) Paul Witty. **The Gifted Child.** (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p. 102.

(64) Burks, Jensen, Lewis Terman, et al. **Genetic Studies of Genius, Vol. III. The Promise of Youth.** (Stanford University Press, 1930) p. 173.

(65) **Ibid.** p.p. 264-265.

(66) Zorbaugh, **et al. The Gifted Children,** edited by Paul Witty (D. C. Heath and Company, Boston, 1951) p.p. 96-97.